

البرمجة الحاسوبية

تأليف

الدكتور أحمد محمد المحمدي

الطبعة الأولى

١٩٦٦

ملتزمة الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ... وبعد .
فإن الأمة العربية ما كادت تفيق من خوارها حتى تلفت إلى ماضيها
للشرق ، فبصرت به أعظم ماضٍ تفاخر بمثله أمة ، ووجدت فيه أنفس تراث
يخايل يشبهه خاف ، فأيقنت أنها لا تستطيع أن تبدل حاضرها ، ولا أن تحقق
آمالها في مستقبلها ، إلا بالتأسي بماضيها العظيم ، فجعلت نستحي هذا الماضي ،
وتبتعث مفاخره ، وتجلّ عظمته ، وتدرس أبطالها وعظاءها وعلماءها وأدباءها
ومفكرها دراسة واعية موحية .

ولأمر ما نعدّ من العرب أعلاما من أعصار شتى ، ومواطن متباعدة ،
وثقافات متعددة ، لأنهم جميعاً عرب ، امتزجوا بالعروبة ديناً ولغة وثقافة وإنتاجاً
وتاريخاً وحضارة ، حتى إن كثيراً منهم يمتنون إلى أصول غير عربية ، ولسكنهم
نصوها أو ذكروها على أنها أطياف من ماضٍ سحيق ، لطول العهد بينها وبينهم ،
ولسلطان العروبة الغلاب على بيئاتهم ، إذ كانت العربية ينبوع الشريعة ، ولغة
الثقافة أحقاباً متوالية ، لا تنازعها لغة من لغات الأمم التي نشر العرب عليها
ظلالهم .

بهذا التصور كتبت عن الطبري من قبل ، وبالتصور نفسه أكتب عن
الزخشري اليوم .

ومن حق الزخشري أن يخص بدراسة مفصلة متكاملة تكشف عن

عصره وحياته وأساتذته وتلاميذه ومؤلفاته ، وتفوقه وابتداعه ، فقد كان في الصدارة بين علماء عصره ، وكان إماماً في أفانين من المعرفة ، وخلف في كل منها آثاراً بقي منها كثير ، واحتجب منها كثير ، ولعله يسفر بعد طوَال احتجاب ، وإن ما بقي من آثاره السَّخِيف بتقديره ، والتنويه به ، والاحتفاء بذكره .

وقد رجعت إلى ما كتبه القدماء عنه ، وقرأت مؤلفاته مطبوعة ومخطوطة ، لأستنبط منها أحداث حياته ، ومعالم شخصيته ، وخصائصه الفكرية والفنية ، ومثلت بنماذج من كتبه لتسكون كالإشارة التي تدل على معالم الطريق الطويل .

ولست أنسى أن أتوه بالدراسة التي قام بها الدكتور مصطفى الجويني في كتابه (منهج الزمخشري في تفسير القرآن) وبالفصل الذي كتبه الدكتور شوقي ضيف عن الزمخشري في كتابه (البلاغة تاريخ وتطور) .

وإني لأرجو أن يمنح الله دراستي هذه من السداد والتوفيق ما يجعلها جديرة بما أقصد منها وأريدت له .

أحمد محمد الحوفي .

الحرم ١٣٨٦
القاهرة في
أبريل ١٩٦٦

تخصيد بيشة (١) خوارزم

هنالك على حفافتي نهر جيحون في آسيا الوسطى كانت ولايات خمس هي الصغد وعاصمتها بخارى وسمرقند ، وفي غربي الصغد خوارزم التي تسمى اليوم خيوه أو كيوه ، وصغانيان ، وفرغانة ، والشاش المسماة الآن طشقند . وقد فتح العرب الإقليم سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي^(١) . ولم يلبث هذا الإقليم بعد الفتح أن صار مركزا من مراكز الثقافة العربية والإسلامية ، ومشرقاً لكثير من كبار العلماء كالمخشي والرازي والسكاكي والطري .

وحسبنا من وصف خوارزم وما جاورها أن نذكر ما قاله ثلاثة من الرحالة شاهدوها بأعينهم وأقاموا بها زمنا .

فالمقدسي رحل إلى إقليم المشرق - وكانت تطلق هذه التسمية على إقليم خراسان وما وراء النهر - في عهد الدولة السامانية التي حكمت من ٢٦١ إلى ٣٨٩ هـ (٨٧٤ - ٩٩٨ م) فوصفه بقوله : « إنه أجل الأقاليم ، وأكثرها أجلة وعلماء ، وهو معدن الخير ، ومستقر العلم ، وركن الإسلام الحكم ، وحصنه الأعظم ، ملكه خير الملوك ، وجنده خير الجنود ، فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك . وقد قال محمد بن عبد الله لدعائه : « عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ،

ولم تنور عبا النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ،
ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ولغات نخمة ...
وأهل خراسان أشد الناس تفقها ، وبالحق تمسكا ، وهم بالخير والشر أعلم ، وإلى
إقليم العرب ورسومهم أقرب ، وإقليمهم أكثر أجلة وعقلاء ، مع العلم الكثير ،
والحفظ العجيب ، والمال المديد ، والرأى الرشيد ، به مرّو التي قامت بها الدنيا ،
وبلّخ وإليها المنتهى ، ونيسابور فلا تنسى .

وهو أكثر الأقاليم علما وفقها ، وبه يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ، وأولاد
على رضى الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشميا إلا غريبا ، ومذاهيبهم
مستقيمة ، غير أن الخوارج بسجستان ونواحى هراة كثيرة ، والمعتزلة بنيسابور
ظهور بلا غلبة ، والشيعة والكرامية بها جلبة ، والغلبة فى الإقليم لأصحابه
أبى حنيفة إلا فى كورة الشاش وطوس ونسا وأبيورد فلمهم شفعوية (شافعية)
ولهم جلبة بهراة وسجستان وسرخس .

ورسومهم تخالف رسوم أقاليم العرب فى أكثر الأشياء ، فللمؤذنين سرير
قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان ، ويذكرون بلا دفاتر .. من غير كتب
يقرءون فيها - ونيسابور رسوم حسنة ، منها مجالس المظالم فى كل يوم أحد
وأربعاء بحضرة صاحب الجيش أو وزيره ... وألسنتهم مختلفة ، أما لسان نيسابور
فقصيح مفهوم ، غير أنهم يكسرون أوائل الكلام ، وفيه رخاوة ، وأهل طوس
ونسأ أحسن لسانا ... وبهذا الإقليم عصبية بين الشيعة والكرامية وبين
الشافعية والحنفية ، وقد يهراق فى هذه العصبية الدماء ، ويدخل بينهم السلطان ..
ولهم مجالس عشيات مجّمع شهر رمضان للمناظرة بين يدى السلطان ، فيبدأ هو فيسأل
مسألة ثم يتكلمون عنها ... إلى أن يقول : وأقل إمام فى الفقه والأدب والقرآن
لقيته له تلميذ خوارزمي قد تقدم ونفذ فى فنه واستقام ^(١) .

والذى يسترعى النظر من هذا الوصف :

١ — كثرة العلماء ، وتقدير الحكام لهم .

٢ — السكف بالحفظ .

٣ — إجلال نسل على بن أبى طالب ، وكثرة الشيعة .

٤ — كثرة المعتزلة بنيسابور خاصة .

٥ — العصبية بين الشيعة والكرامية ، وبين الشافعية والحنفية .

٦ — السكف بالمناظرات :

وجاء فى وصف ياقوت لإقليم خوارزم أنه موفور الخيرات ، كثير الثمرات ، جميل المناظر ، وقال إن أهله كرام الأخلاق ، وإن لم يكونوا من ذوى الظرف والكياسة . وزار ياقوت عاصمة خوارزم (الجرجانية) سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) فوصفها بأنه لم ير مدينة أعظم منها ولا أكثر أموالا ولا أحسن أحوالا^(١) . ويقول فى موضع آخر إنه زار إقليم خوارزم سنة ٦١٦ هـ فلم ير ولاية أعمر منه ، فإنه — على رداءة أرضه وكثرة سبخها وتزوزها — متصل العارة ، متقارب القرى ، كثير البيوت المفردة والقصور فى صحاريها ، وقاما يقع النظر فى رسائقه — ضياعه ومزارعه — على موضع لا عمران منه ، هذا إلى كثرة الأشجار والخيرات . وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين ، وبندر أن تكون قرية بغير سوق ، والأمن هناك شامل والطمأنينة تامة^(٢) .

ووصفها ابن بطوطة بعد عصر الزمخشري — فى رحلته التى بدأها من المغرب إلى المشرق سنة ٥٧٢٥ (١٣٢٤ م) واستغرقت ٢٧ عاما — بقوله « لم أر فى بلاد

(١) معجم البلدان ٢/ ٧٩ .

(٢) معجم البلدان ٣/ ٤٧٤ .

الدنيا أحسن أخلاقاً من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوساً ، ولا أحب في الغرياء .
ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم ، وهي أن المؤذنين في مساجدها يطوف
كل واحد منهم على دور جيران مسجده معاً لهم بحضور الصلاة ، فمن لم يحضر
الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة ، وفي كل مسجد درة معلقة برسم
ذلك ، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد ، أو لإطعام الفقراء والمساكين ،
ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة من قديم الزمان ^(١) .

ومن البديهي أن وصف ابن بطوطة - وإن كان بعد عصر الزمخشري -
ينبئ عن أخلاق أصيلة قديمة العهد ، لأن السجيا الحميدة لا تكتسب سريراً بعد
تجرد وخلاء ، ولأنه يذكر أن عاداتهم في ضرب المتخلف عن صلاة الجماعة قديمة
منذ زمان بعيد .

وفي إقليم خوارزم عدة مدن ، منها الجزائنية وزمخشري وخوارزم ، وزمخشري
إحدى قرى خوارزم القريبة منها ، ويظهر أن كلامها امتدت فتداخلت ،
لأن القفطي يقول : سمعت بعض التجار يقول إنها قد دخلت في جملة المدينة ،
وإن العارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها ، فصارت من جملة محالها ^(٢) .
وإلى زمخشري هذه نسب جاز الله محمود بن عمر ، فقيـل الزمخشري ، وهذه
النسبة حين تذكر لا تنصرف إلا إليه .

والبرد شديد جداً هناك ، حتى إن الثلج كثيراً ما يؤثر في الأطراف
فتسقط ، ويذكر ابن خلكان أنه شاهد خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم في
خوارزم بسبب البرد ، ويعلق على هذا بأنه من الخطأ أن يستبعد من لا يعرفه ^(٣) .
ويذكر ياقوت أنه رأى نهر جیحون - وعرضه ميل - وهو جامد ، والقوافل
والعجول الموقرة ذاهبة وآية على جليده ^(٤) .

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/٢٦٨ .

(٢) إنباء الرواة ٣/٢٦٥ .

(٣) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥ .

(٤) معجم البلدان ٤/٤٧٤ .

وكثيراً ما ردد ابن بطوطة آلامه من برد الاقليم ، حتى إنه كان يتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار ، فها تقطر من الماء قطرة إلا جمدت لحينها ، وإذا غسل وجهه بالماء ووصل الماء إلى لحيته جمد ، فيسقط منها شبه الناج ، والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب ^(١) .

ويقول إن نهر جيحون يجمد في أوان البرد ، ويسلك الناس عليه ، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر ^(٢) . ويقول إن السلطان علاء الدين طرمشيرين — سلطان ماوراء النهر — أعطاني سبع مئة ^(٣) دينار دراهم وفروة سمور تساوي مئة دينار طلبتها منه لأجل البرد ، وأعطاني فرسين وجلين ، ولما أردت وداعه أدر كتمه في طريقه إلى الصيد ، وكان اليوم شديد البرد جدا ، فوالله ما قدرت على أن أنطق بكلمة ، لشدة البرد ، ففهم ذلك وضحك ، وأعطاني يده وانصرفت ^(٤) .

(٢) الحياة السياسية

خضعت تلك البلاد للحكم العربي مدة، ثم آل الأمر فيها إلى ثلاث دول متتابعة. أولاها الدولة السامانية من سنة ٢٦١ إلى ٤٣٨٩ (٨٧٤ — ٩٩٩ م) وقد نشأ السامانيون في بلخ واتخذوا بخارى عاصمة لهم ، وكانوا في عصرهم الذهبي أصحاب النفوذ والسلطان بالشرق كله ، ثم تقلص ظلمهم فشم خراسان وماوراء النهر وحدها . وإذا كانوا قد جلدوا في تشجيع الأدب الإيراني ، وكانت الفارسية لغتهم الرسمية في أكثر سنوات ملكهم ، فإنهم جمعوا في قصورهم كتاب العربية كما جمعوا كتاب الفارسية ، واجتذبت عاصمتهم بخارى كثيرا من العلماء

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ١/ ٣٩٤ .

(٢) مهذب الرحلة ١/ ٢٩٨ .

(٣) هكذا أثرت كلمة مئة ومرتباتها .

(٤) مهذب الرحلة ١/ ٣٠٩ .

والشعراء ، وكانوا حماة لأهل السنة — إلا في نحو أربعين سنة من القرن العاشر الميلادي — ففي عهدهم ألف كتاب في العقائد باللغة العربية لوفاية الشعب من الرافضة ، ثم ترجم إلى الفارسية ، وترجم تفسير الطبري إلى الفارسية ، كما ألف بها تفسير آخر ، وأفتى الناس بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية^(١) .
ثم قضى محمود بن سبكتكين الغزنوي على دولتهم سنة ٥٣٨٩هـ^(٢) .

وثانيها الدولة السلجوقية العظمى^(٣) من سنة ٤٢٩ إلى ٥٥٥٢ (١٠٣٧ — ١١٥٧م) التي امتلكت خوارزم سنة ٤٣٤هـ ثم خراسان وبلاد الرمي وأصبهان وأذربيجان ، وكان نفوذ البويهيين قد انحسر عن بغداد ، فتقدم طغرل بك إليها ودخلها بغير حرب سنة ٤٤٧هـ ، وقبض على آخر سلاطين بني بويه ، ومن هذا التاريخ قامت الدولة بالعراق ومماوراءه .

وهي تنقسم إلى خمسة بيوت ، يهمنها منها البيت الأول ، وملوكه هم السلاجقة العظام الذين ملكوا خراسان والري والجليل والعراق والجزيرة وفارس والأهواز ، وقد قامت من سنة ٤٢٩ إلى ٥٥٢٢ (١٠٣٧ — ١١٢٨م) وعاصر الزمخشري من ملوكها :

- ١ — عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان ٤٥٥ — ٥٤٩٥
- ٢ — جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ٤٦٥ — ٥٤٨٥
- ٣ — ناصر الدين محمود ٤٨٥ — ٥٤٨٧
- ٤ — ركن الدين أبو المظفر بركياروق ٤٨٧ — ٥٤٩٨
- ٥ — ركن الدين ملكشاه الثاني ٤٩٨ — ٥٤٩٨

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٨ بارتولد .

(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٤٥ .

(٣) الدولة العباسية ١٢ للضمري . وكانت السلاجقة دول غيرها أقل منها شأنًا .

٤٩٨ — ٥١١

٦ — غياث الدين أبو شجاع محمد

٥١١ — ٥٢٢

٧ — معز الدين أبو الخارث منجر

ثم انتقلت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم.

ويرتبط تاريخ هذه الدولة باسم وزيرها العظيم نظام الملك الذي استوزره ألب أرسلان ، واستعان به في إدارة ملكه ، ثم استوزره ابنه جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ، فقام بالتدبير والإصلاح خير قيام ، وبفضل اتبع نفوذ جلال الدين ، فخطب له من حدود الصين شرقا إلى آخر الشام غربا ، وازدهرت الآداب والفنون ، وازدانت المدن بالمدارس والمستشفيات . وكان جلال الدين سلطانا عادلا شجاعا متدينا ، وكان وزيره سائدا جوادا مشفوقا بالناس معظما للعلماء ، وهو الذي أمر ألا يلمن الأشعرية والرافضة على المنابر ، إذ كان الوزير حميد الملك الكندري قد زين للسلطان طغريك لعن الرافضة ، فامر بذلك . فأضاف إليهم الأشعرية ، ففارق كثير من العلماء بلادهم ، مثل إمام الحرمين وأبي القاسم القشيري . ولم يكف نظام الملك بالبعد ذلك ، بل أعاد العلماء إلى أوطانهم ^(١) .

ثم قتل الوزير سنة = ٥٢٨ هـ . ومات السلطان بعده بنحو شهر ، فأعلنت شمس آل ساجوق ، وشهدت الفتن بين كبارهم ، وحكوا السيوف فيما بينهم ، فكانت النتيجة سقوط دولتهم ، وقيام الدولة الخوارزمية .

أما الدولة الثالثة التي حكمت خوارزم فهي الدولة الخوارزمية التي نشأت بإدارة (أتاتكية) في خوارزم ، وجعلت تنقوى وتوسع ، على حين أن الدولة الساجوقية تضعف وتضيّق ، فلما سقط السلاجقة خلتهم الخوارزميون ، وضموا تحت لوأهم الأقاليم التي كان يحكمها السلاجقة .

(١) الكامل لأبى الأثير ٢٦/١٠ : ٧١ .

وهذه الدولة تنسب إلى نوثنكين أحد الأتراك في بلاط ملككاه الساجوق .

أما مؤسسها الحقيقي فهو ابنه محمد ^(١) الذي عينه أحد قواد السلطان بركياردوق الساجوق (٤٨٧ — ٥٩٨) حاكم على إقليم خوارزم ، وبقية خوارزم شاه . وقد جعلت هذه الدولة الناشئة تمتد وتقوى منذ أنس بن محمد بن نوثنكين ، ثم تصارع سنجر الساجوق وأنسر سمرقند المستمر حتى توفي أنسر سنة ٥٥١ (١١٥٩ م) وتوفي سنجر بعده بعام . وكانت وفاة سنجر نهاية للسلاجقة في فارس وخراسان ، فلم يجد الخوارزميون بعده من يعوق طموحهم أو يحتجز أسلحتهم ، فاستطاع إيل أرسلان بن أنسر أن يسطر سلطانه على غربي خراسان . ثم امتدت الدولة غربا في عهد تكش خوارزم شاه ، وصار لها نفوذ على أمراء العراق ، واستعان الخليفة العباسي الناصر لدين الله بكش على طغريلك آخر السلاجقة في بغداد ، فحرب بكش بهذه الفرصة الأولية ، والنفي جيشه بالجهت الساجوق عند الري سنة ٥٩٠ (١١٩٣ م) وانجالت المعركة عن ابتصار تكش ، وعن قتل طغريلك .

وحينئذ سطت الدولة الخوارزمية سيطرتها على الأقاليم العراقية التي كانت للسلاجقة ، فاحتل تكش محمدان عاصمة سلاجقة العراق سنة ٥٩٠ واحتل أصفهان والري . ثم حارب دولة (الخطا) شرقا ، واستولى على إحدى مدنها المهمة وهي بخارى سنة ٥٩٤ (١١٩٧ م) . وفي عهد ابنه علاء الدين محمد تم اقتطاع مدينتي بلخ وهرات من الدولة القومية سنة ٦٠٢ (١٢٠٥ م) كما نجح في هزيمة دولة (الخطا) سنة ٦٠٦ (١٢٠٩ م) فاستولى على بلاد ماوراء النهر ، ثم مد نفوذه إلى إقليم كرمان وإقليم قنكران وإلى الأقاليم التي غربي نهر السند ، وبهذا طوق غزاة عاصمة الدولة القومية ، واحتلها سنة ٦١٢ (١٢١٥ م) .

(١) الدولة الخوارزمية والمغول ١٩ وسلاجقة إيران والعراق ١١٨ .

كان الخوارزميون يتطعمون إلى تكوين دولة إسلامية عظيمة تراث
الدويلات الإسلامية والإمارات المتناثرة للفككة ، وقد تم لهم النصر على
السلجقة سنة ٥٩٠ هـ فسيطروا على العراق العجمي ، وحكموه من قبل الخليفة
العباسي ، وعلموا الخليفة بأن يخل اسمهم في خطبة الجمعة محل أسلافهم السلجقة ،
وأن يعش اسمهم إلى جوار اسم الخليفة على النقود ، ثم طلب تكش من
الخليفة الناصر أن يعيد دار السلطنة في بغداد إلى ما كانت عليه أيام السلجقة
فلم يستجب الناصر لهذه المطالب .

فلما تولى علاء الدين محمد العرش بعد أبيه تكش أعد العدة لغزو بغداد^(١)
سنة ٦١٤ (١٢١٧) فذهب الناصر لصدده ، وساعدته عوامل عدة على النجاة
من هذا الغزو ، وفي الوقت نفسه كان سيل المغول يكسح ما أمامه .

وإذا فقد خائف الخوارزميون السلجقة على فارس وخراسان والعراق ،
وخلقوا الغوريين ، واستولوا على بلاد ما وراء النهر .

أما ما حتمهم فكانت تارة مرو — عاصمة خراسان — وتارة سمرقند —
عاصمة بلاد ما وراء النهر — وحيناً أصفهان كبرى مدن العراق العجمي .

وامتد حكم هذه الدولة من سنة ٥٩١ إلى ٦٢٨ هـ (١٠٩٧ — ١٢٣٠ م) ،
وقد فاجأها المغول في عهد ملكها علاء محمد شاه ففر منهم ومات سنة ٦١٧ هـ
وفي السنة نفسها هجموا على خوارزم ، فتولى الدفاع بعده ابنه جلال الدين
منكرقي ، وقومهم في بسالة وبطولة إلى أن قبيح في قلة من رجاله ، فما أبقي
أنه لا بد من أن يقتل أو يؤسر أتى بنفسه من مرتفع على شاطئ نهر الهند ،
وهو على صهوة جواده لينجو فيأخذه من جديد ، فضرب بهذا الصنيع مثلاً رائعاً
للبطولة والفداء ، وما زال يقاومهم بعد ذلك حتى انتهت دولته سنة ٦٢٨ هـ^(٢) .

(١) لهذا الغزو أسباب منها أن علاء الدين اعتنق المذهب الشيعي واجتهد في إسعاد
الخلافة العباسية من بغداد وإقامة خلافة علوية مكانها .

(٢) سيرة جلال الدين منكرقي ١٠٠ .

كان الوزراء في الدولة الخوارزمية يتأمن من السلاطين أعظم التقدير ،
 فيجلسونهم عن أعانهم في الحافل العامة ، وكان الوزير الذي يتلب بنظام الملك
 لا يتقبل يدخل عليه وهو في دست الوزارة مهما تكن مكانته ، إجلالا للمنبص
 لأنه قائم مقام السلطان .^(١)

و كثيرا ما عهدوا بحكم الأقاليم أو المدن إلى حكم أئمتهم على كل منهم لقب
 وزير^(٢) ، فمما قوى نفوذ الأئمة صار الوزراء أكثر حرية ، فاستأثروا بشروات
 الأقاليم ، وتمردوا على السلاطين .

أما سلاطين الدولة فيهم ثمانية^(٣) ، وأما السلاطين الذين عاصرهم الرخشمري
 فيهم :

- ١ — نوشتكين من ٤٧٠ إلى ٤٩٠ هـ (١٠٧٧ — ١٠٩٦ م)
- ٢ — قطب الدين محمد » ٤٩٠ — ٥٢١ هـ (١٠٩٦ — ١١٢٧ م)
- ٣ — أئشز » ٥٢١ — ٥٥١ هـ (١١٢٧ — ١١٥٦ م)

ومن هذا يبين أن الرخشمري عاصر تأسيس الدولة ، وأدرك ثلاث عشرة
 سنة من عهد أئشز ، لأن الرخشمري عاش فيما بين سنة ٢٦٧ و ٥٣٨ هـ ، فلم يدرك
 سقوط آل سنجوق وقيام الخوارزميين مقامهم ، إذ كانت نهاية السلاجقة
 سنة ٥٥٢ هـ .

(١) سيرة جلال الدين منكبرتي ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق ٢٤٠ ، ٢٤٧ .

(٣) الدولة العباسية ٥٥١ الحضري ، وسيرة النعمان جلال الدين منكبرتي ١ ،
 واندولة الخوارزمية والنول ٢٧٣ .

(٣) حياة الثقافة

ما كادت أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر وغيرها تخضع للحكم العربي حتى جعلت تستعرب، وتكاثرت فيها بذور اللغة العربية والأدب والعلوم الإسلامية، وسرعان ما نبئت وبسقت فروعها، وأبقت ثمارها.

فلا غرابة في أن كثر العلماء والمؤلفون والأدباء في خوارزم، لأنها بيئة كثيرة الخيرات، ومنتجع الوافدين الذين يطمحون إلى طيب المقام، ولأن أهلها أقبلوا على الإسلام بشغف، ونشطوا أيما نشاط في تعلم اللغة العربية لغة القرآن والحديث، وهما مصدرا الشريعة ومنبعها، فلما كانت النهضة العلمية والأدبية في العصر العباسي ازدادوا ركضا في ميادين الثقافة العربية.

وكان نشاطهم العلمي والأدبي مقرونا بالغيرة على الإسلام، والحرص على تعاليمه، والحفاظ عليه من أعدائه المحيطين بهم.

ثم إن المدارس كانت كثيرة في الإقليم، وكان العلماء والمؤلفون والمدرسون جادين في التعليم والتثقيف والتأليف، وكانت المكتبات العامة عديدة، والحكام حراسا على تشجيع الحركة الفكرية، كالفن بتقريب الشعراء إليهم، ليضيفوا إلى ملكتهم طيبة وجالا، ولينافسوا سلفهم وجيرانهم من السلاجقة وغيرهم في الجاد وحسن الأحداث وبعد البيت.

ولأهل خوارزم اتجاه في التفكير أشبه روايه، فقد وصفهم المتنبي بأنهم أهل فهم وعلم وفقه وقرأت وأدب، وقال إني قدما أقيمت إماما في الفقه والقرآن والأدب ليس له تلميذ من خوارزم^(١).

(١) — في خوارزم

وإذا أردنا أن نختص خوارزم وحدها بالنظرة السريعة وجدناها مروج
بالعلماء والأدباء ، منذ عاش هنالك أخلاط من الفرس والعرب والترك ، ومنذ
أقامت الدولة الخوارزمية ملكها على أقطاب السلاجقة في فارس والعراق
وخوارزم ، وعلى أقطاب الدولة الغورية في غزنة ، وأما ملك ماوراء النهر ،
فوزنت ثقافات هؤلاء جميعا .

ولقد شجع الخوارزميون الأدباء والعلماء ، فزادت دولتهم بكثير منهم ،
ويذكر النوى — وهو الكتاب المؤرخ الذي حاط بهم وعمل في دولتهم —
أن سلاطينهم عثروا قصورهم بالشعراء والكتاب والعلماء من فرس وعرب ،
وقربهم إليهم ، وأغدقوا عليهم ، كما فتحو المدارس ، وشجعوا الرعايا ، على
الرغم من أن بعضهم مثل السلطان محمد بن تكش كان تركيا قهلا المعرفة
باللغة العربية (١) .

ويذكر أن الدولة كان لها ديوان إنشاء وعرض ، وأن هذا الديوان كان
أرفع رتبة من ديوان الشعراء عند السلاجقة ، وكان له رئيس ويتبعه كتاب
يلقب كل منهم بكتاب (٢) .

أما إحتاج هؤلاء الأدباء والعلماء فإنه كان بالعربية والفارسية ، فمن الذين
أتجوا بالفارسية زين الدين أبي إبراهيم إسماعيل بن حسن الطرجاني — عاش في
خلالهم من سنة ٥٠٤ إلى ٥٥٣ — وألف كتابا في الطب سماه ذخيرة خوارزم
شاه ، ومنهم رشيد الدين محمد عبد الملك الباقى النقيب بالوطواط النوى بخوارزم

(١) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ٥١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ .

(٢) المرجع السابق ٥٧ ، ١٩٤ ، ٢٥١ .

سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) كان رفيقاً وحديقاً للسلطان أئمة، وكان شاعر البلاط في عهده ، وفي عهد إميل أرسلان وابنه علاء الدين تكش، وهو مؤلف كتاب (حقائق البحر في دقائق الشعر) وهو من تلاميذ أبي سعد آدم بن أحمد الهروي ^(١) .

ومنه محمد بن قيس الذي كان في عهد علاء الدين خوارزم شاه . وألف كتاب (المعجم في معاني أشعار العجم) لأبي المظفر خوارزم شاه .

وبعضهم برع في الإتيان بالعربية والفارسية مثل الوطواط ، الذي كان أفضل زماناً في المظم والنثر ، وأعم الناس مدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب ، وكان يثني في حاشية واحدة بيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية من بحر آخر ، وتلقبها سما . وله ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية ، ومؤلفات أخرى ، ومن رسائله ما كتبه لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري :

لقد حاز جاز الله - دام جماله - فضائل فيها لا يشق غبارها

تجدد رشم الفضل بعد اندثاره بأثار جاز الله فالله جاره

ثم أتبع البيتين رسالة ثرية ، يثني فيها على الزمخشري ، ويود أن يكون من تلاميذه ^(٢) .

ومن هؤلاء عشرة الذين حبة بن محمد بن عمر ، كان يحفظ مقطع الزند لأبي علاء المعري ، والخيبي للمعني ، والمنظوم لقهر الدين الرازي ، والإشارات لابن سينا . وله بالعربية والفارسية أشعار مدونة ، وأما ترسله فأسعر الخلال والعذب الزلال ^(٣) .

(١) معجم الأدباء ١/ ١٠٣ و ١٩٣/ ٢٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٩/ ٢٩ .

(٣) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي ١٨٧ .

ومنهم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حيدر بن علي الخوارزمي (ولد سنة ٥٥٩) ، له من التصانيف كتاب ديوان الأديباء ، وكتاب شرح كلمة الفارسية ، وكتاب الرسائل إلى الرسائل (من شعر) وديوان شعر بالفارسية ، وكتاب الخطب في دعوات ختم القرآن ، وكتاب بقية البقية ، وكتاب القطر في النحو والفارسية وغيرها (١) .

ومنهم محمد التتوي — نسبة إلى مدينة نسا بخراسان — الذي كان كاتب الإنشاء للسلطان جلال الدين منكبرتي . ثم وزير له في مدينة نسا ، وهو مؤلف أدق كتات في سيرة جلال الدين .

وكان ثمة علماء وأديباء تفوقوا في الإنتاج بالعربية مثل أبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي التتوي سنة ٥٣٨٣ (٩٩٣ م) وهو شاعر نثر عالم ، كان يحاضر أخبار العرب وآدابها وأشعارها ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر (٢) .

ومثل أبي سعيد الشيبلي الفارس الأديب ، كان في أيام تيمانية خوارزم بقول شعرا جالسا . فلما عاش الناس ، ولقي الأديباء نطق طبعه ، ورق شعره ، وقد اختص بالدولة السامانية والدولة البويهية فسمى صاحب الجيوشين وشيخ الدولتين (٣) .

ومثل أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الرقاشي من أبناء الوزراء بمدينة خوارزم ، وكان مثل كشاجم كاتبا شاعرا نثيجا (٤) .

ومثل أبي الحسن أحمد بن محمد الشيبلي الخوارزمي (التتوي سنة ٥١٨ هـ ١٠٢٧ م) كان من أجلة خوارزم ، وبيت رياسة ووزارة وكرم ومروءة ،

(١) معجم الأديباء ١٥/٢ ، وشمس المصنوع ٣٢/١ .

(٢) بقية الدهر ١١٤/٤ .

(٣) بقية الدهر ١٥٤/٤ .

(٤) البقية ١٥٧/٤ .

وكان يجمع بين آلات الرياسة وأدوات الوزارة ويضرب في العلوم والآداب
بالسهم الفائرة ، وله كتاب الروضة الشهبانية في الأوصاف والتشبيهات ، وعشورته
صنف الحسن بن الحارث الحطّوني في الذهب كتاب الشهبلى يذكر فيه الذهبين
سذهب الكفى والحصى . خرج من خوارزم سنة ٤٠٤ هـ إلى بغداد وتوطنها ،
وترك وزارة خوارزم شاه أبي العباس مأمون خوفا من شره ^(١) .

ومثل الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الخوافي (حوالى ٤٤٤ هـ) من تلامذة
الشيخ أبي حامد الإسفرايينى ، تفقه عليه ببغداد ، وبيته بيت كبير ، قال صاحب
المكافى في تاريخ خوارزم إن بيته معمور بالعلاء منذ نحو مئتين وخمسين سنة ،
وأطال في ترجمته ^(٢) .

ومثل أبي القاسم محمود بن عبد العزيز العارضى الخوارزمى الملقب بشمس الدين
(٥٢١ هـ - ١١٢٧ م) كان من أفضل الناس في عصره في علم اللغة والأدب ،
وتعمق إلى الفلسفة فصار مفتونا بها ، وكان بطالع الفقه وينظر في مسائل
الاخلاق . سمع الحديث من أبي نصر القشيري وغيره ، وأمل طرفا منه وشرحه .
وكان الزمخشري يدعوهُ الجاحظ الثانى ، لكثرة حفظه وفصاحته لفظه .

أقام مدة بخوارزم مكروما في خدمة خوارزم شاه ، ثم ارتحل إلى مرو ،
فمات بها ^(٣) .

ومثل أبى على الحسن بن الطغفر الشاعر المصنف الذى كان مؤدب أهل
خوارزم في عصره وخرجهم وشاعرهم ومقدمهم ، وهو شيخ أبى القاسم الزمخشري
جهل أبى مفسر ، ومن مصنفاته التى رأها ياقوت : تهذيب ديوان الأدب ، تهذيب

(١) معجم الأدباء ٤/ ٢١٠ .

(٢) طبقات الشافعية ٣/ ٥٨ .

(٣) معجم الأدباء ١٦٩/ ١٢٦ .

إصلاح المنطق ، دمج ان شعراء ، ديوان ومناقبه ، زيارات أخبار خوارزم^(١) .

ومثل أبي الحسن علي بن عراقي الصّاري (المتوفى سنة ٥٥٣٩ — ١١١٥ هـ)
مُذَنِّبَةٌ وهي قرية من قرى خوارزم (كان نحوياً لغوياً عروضياً فقيهاً مقمراً
مذكوراً ، درس بخوارزم وبخارى ، وصنف كتاب تلخيص الدرر في تفسير
القرآن^(٢) .

وبكفي للدلالة على كثرة العلماء وتقديرهم مذكورة النسوى في سيرة السلطان
محمد بن تكش ، وهو أنه سیر إلى خوارزم برهان الدين محمد بن أحمد بن
عبد العزيز البخارى المعروف بصدر جهان ، رئيس الحنفية ببخارى وخطيبها
المقدم ، وكان في جملة من يعيش في ظل برهان الدين وإدارة ساجده ما يقارب ستة
آلاف فقيه ، وكان كرمًا يقصده العلماء والفضلاء^(٣) .

وقد سارت طريقة التأليف في خوارزم على غرار الطريقة في البلاد العربية ،
ففي النحو والصرف والعروض تخرج عماسه المؤلفون في العراق والشام ومصر
والأندلس ، وفي اللغة سلكت الاتجاهين العروفين ، وهما تأليف المعاجم على ترتيب
الألفاظ كما نجد في أساس البلاغة للزمخشري ، أو تأليف المعاجم على حسب
المعاني كما نجد في قسم الأسماء من (مقدمة الأدب) للزمخشري .

وأما في البلاغة فقد تميز الخوارزميون بما تتميز به المشرقة بعامة ، وهو التأثر
بالتسفة والمنطق وعلوم الكلام ، على حين أن أهل العراق والشام ومصر
والأندلسيين والمغاربة تأثروا بالمذهب الأدبي .

وإذا كان مذهب المشرقة قد اتضح عند الزمخشري والرازي والمطرزي

(١) معجم الأدباء ١٦١/٩ .

(٢) معجم الأدباء ٦٣/١٤ .

(٣) سيرة السلطان جلال الدين بتكبرتي ٦٨ .

والسكاكي وأشباههم ، فإنه كان أقدم منهم ، إذ برزت معالجه في كتابي أمرار
البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، وهو متكلم على مذهب
الأشعري ، ولكنه يمتاز بنبوغه الأدبي وذوقه الرفيع عن الذين خلفوه ،
فصبروا البلاغة علما جافا لغوزة نفحة الأدب ورغيف المجال .

ويظهر أن طول ممارستهم للفلسفة والعلوم العقائدية جعلهم يحنون بدراسة
البيان والمعاني أكثر مما يحنون بدراسة الألفاظ وفنون البديع .

وقد نبه ابن خلدون إلى عناية المشارقة بالبيان والمعاني فقال : ^(١) « والعناية
به لهذا العهد عند أهل الشرق في الشرح والتعليم أكثر من غيره ، وبالأجالة
فالمشاركة على هذا الفن أقوم من الفارسية ، وسببه — والله أعلم — أنه كمال في
العلوم اللسانية ، والصنائع السكانية توجد في العمران ، والشرق أوفر غرانا من
المغرب كما ذكرناه ، أو يقول لعناية العجم — وهم معظم أهل الشرق — كتفسير
الرمحشري ، وهو كله مبني على هذا الفن ، وهو أصله ، وإنما اختص أهل المغرب
من أصفاه علم البديع خاصة ، وجمعوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرغوا
له اتفاقا ، وعدوا أبوابا ، ونوعوا أنواعا ، وإنما جعلهم على ذلك لولوع بتزيين
الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المخذ ، وصعبت عليهم مآخذ البلاغة — يريد علم
المعاني — والبيان لادقة ألفاظها ، وغرض معانيهما ، فتحدثوا عنهما » .

والمشاركة أصحاب السبق إلى تقسيم علوم البلاغة إلى بيان ومعاني وبديع .

ولأهل خوارزم بخاصة الفصل في هذا المجال منذ الرمخشري والسكاكي ^(٢)

إلى اليوم .

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢١٥ .

(٢) السكاكي ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر ، من أهل خوارزم ، علامة في العربية
والعاني والبيان والأدب والعروض والنثر ، له كتابه فقه . ولد سنة ٥٥٤ هـ وتوفي سنة
٦٢٦ هـ وصنف مفتاح العلوم في اثني عشر علما (معجم الأدباء ٢٠ / ٥٨) .

وعلى الرغم من أن السبكي من أصحاب المذهب الأدبي في دراسة البلاغة فقد أشار بفضل المشاركة ، ونهج مهجهم ، وهذا واضح في قوله : « وأما أهل المشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم والآداب العقلية والمنطق ، فاستوفوا همهم الكمال في تحصيله ، واستولوا بجهدهم على جهته وتفصيله ، ووردوا منها كل هذا العرف فصدروا عنها كل ، سجالهم . وكيف لا ؟ وقد جابوا عليه بجليلهم ورجلهم . فبرزت عموماً منه كل دارس ، وعمروا من حصوه الشئدة ما رقد عنه الخارس ، وبلغوا عتقان السماء في طلبه ^(١) » .

وهكذا كانت حوارهم ثرية بعلمائها وأدبائها قبل الإخضرار وبعمده ، فلما اجتاحها التتار سنة ٦١٨ هـ (١٢٢٠ م) دمروها ، وبددوا كثير من نفائسها وذخائرها ، لكن الحياة العلمية والأدبية لم تنقطع .

ثم تناوبتها الأحداث ، حتى امتلكتها دول أخرى فأصبحت الأستار على ماضى مشرق و تراث عظيم .

المعتزلة

كانت العراقي وفارس وخراسان وما جاورها من البلاد الفارسية ، ملأى بالشيعة ^(٢) . وكان المعتزلة كثرة في هذه الأقاليم ، وكانوا الأكثرين في كل إقليم يحكمه الشيعة ، ولهذا انتشر مذهبهم بالعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر . وعلا صوته منذ قامت الدولة البويهية سنة ٣٣٢ (٩٤٣ م) ذلك أن الناس في تلك البلاد كانوا على مذهب السنة والجماعة ، فآل النعمان إلى بني عويص — وهم من غلاة الشيعة — فاحمروا التشيع وأزروا الشيعة . وفي سنة ٤٣٠ هـ أمر معز الدولة الناس أن يحتفلوا في العاشر من المحرم بذكرى قتل الحسين .

(١) عروس الأقراج في شرح تلخيص المفتاح : ٥/١ .

(٢) راجع أدب السياسة في العصر الأموي للمؤلف : ٣٤ .

فغلبت الحواريات ، وخرجت النساء مسودات الوجوه منشورات الشعور ،
يلطمن وجوههن على شهيد كربلاء .

وفي الثامن عشر من ذي الحجة أمر بإظهار الزينة في البلاد ليلاً ونهاراً
احتفالاً بعيد الغدير ^(١) . وكان من أخصارهم الكبير صاحب بن عباد الذي
تولى الوزارة لفتح الدين البويهى من ٣٦٧ إلى ٣٨٥ هـ ، فقرب العزلة وآثرهم
بالمناصب العالية ^(٢) .

ثم ذاع الاعتزال واستقر بالشرق ، حتى لقد كان أكثر الشيعة ، في بلاد
العجم معتزلة ، وأكثر فقهاءهم على الاعتزال ، وكثيراً ما وقعت المناجحات
بين العامة بسبب ذلك ^(٣) .

وهم كثير ، منهم بالقرب من خوارزم أبو القاسم عبد الله بن أحمد البجلي ،
المعروف بالسكيتي (٢٧٣ — ٣١٩ هـ) كان من كبار المعتزلة ودهشهم ، واشتهر
بإسنادهم إليه وإلى أبي علي الجبائي وأبي بكر بن الإخشيد ، كما ذكر ابن حزم
في كتابه الفصل . دخل (سكف) فأكرمه أهلها إلا الحافظ عبد المؤمن
ابن خلف .

(١) القدير : غير حم ، وهو موضع بين مكة والمدينة على ثلاثة أميال من الجلفة .
به ماء كثير وحوله شجر كثير ، يروى الشيعة عن البراء بن عازب أنه قال : كنا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم في سفر ، فقلنا : فقير حم ، فأمر بفتح مكان بين الأشجار فدخله
القدير استعداداً لإقامة الصلاة . ثم نادوا الصلاة جامعة ، فصلى القدير . ثم أخذ النبي صلى
الله عليه وسلم إلى أبي طالب فقال : ألتئم تلمعون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قلنا : بلى ، فقال : من
كانت مولاه فعلى مولاه . أليهم وإلى من وآله ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخلف
من خلفه ، وأخر الحق معه حيث دار . ألا هل بلغت ؟ قلنا : بلى .

والشيعة يتخذون من هذا اليوم عيداً . وأول من اتخذه عمر الدولة البويهى ، ثم جعله
الفاطميون عيداً في مصر منذ سنة ٣٩٣ هـ حينما قسم الميز إليها (اتال والتعل ١ / ١٤٤) .

(٢) معجم الأدياء ٦ / ٢٢٥ :

(٣) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٤٣٩ .

وهو صاحب فرقة من من المعتزلة سماها ابن النديم^(١) الباغية ، وسماها ،
الشهرستاني السكيبية .^(٢)

وقد وصفه أبو حنن التوحيدى بقوله : ناهيك به علنا وراويا وثقة^(٣) .
والمؤرخون متفقون على أن نجم المعتزلة بدأ بأهل منذ تولى الخليفة المتوكل سنة
٢٣٢ هـ (٨٤٦ م) لأنه انضبطهم ، وعزل قضائهم ، وصادر أملاكهم ، وسجن
كثيراً من رجالهم ، فضعف شأنهم ، وسخر الناس بهم ، كقول أبي العتاهية
في السيرة وأحمد بن أبي دؤاد لما عزله المتوكل وصادر ضياعه :

لو كنت في رأي منوباً إلى رشيد وكان عزمتك عزماً فيه توفيق
لسكان في الفقه شغل لو قبضت به عن أن تقول كلام الله مخلوق
صادا عليك وأنت الذي ينصعهم ما كان في الفرع لا الجاهل والموق^(٤)

ويقول ابن خلكان إنهم انقمعوا منذ تولى المتوكل ، فلما ظهر أبو الحسن
الأشعري سنة ٣٢٣ هـ ازدادوا اتقاداً ، لأنه كان معتزلياً فاشتق على المعتزلة ،
وقد كثيراً من آرائهم ، والتزم هذا وسطاً بين السنة والمعتزلة . فلم يكن
يعول على المتكلم وحده كمثل السنة ، ولا على العقل وحده كالمعتزلة ، حتى
ليصير أبو بكر الصيرفي عن هذا بأنهم كانوا قد رفعوا رؤوسهم ، فلما أظهر الله
الأشعري حجه في أقام السمس^(٥) .

ولكن خوارزم مع هذا كله كانت تخرج بالاعتزال ، حتى ليبدو أن نجد
خوارزميه ليس معتزلياً ، فإن كان غير معتزلي وأراد أن ينفي الاعتزال عن

(١) إسان الزمان ٢/٢٥٥ .

(٢) المل والنعل ١/٧٣ .

(٣) الصائر والناظر ١/١٤٣ .

(٤) تاريخ الطبري ١١/٤٦ ، الموق : الحق .

(٥) بوفيات الأعيان ٢/٤٤٧ .

نفسه أكد عليه ، كما نجد في وصف ياقوت للقاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمي :
« سألته عن مولده فقال : مولدى سنة خمس وخمسين وخمس مئة . وحضرت
في منزله بخوارزم فرأيت منه صدرا يثلاً الصدر^(١) ، ذا بهجة سنية وأخلاق
هنية ، وبشر طليق ، ولسان ذليق ، فملاً قلبي وصدري ورأيت شيخاً
بهى النظر ، حسن الشبهة كبيرها وقلت له : ما مذهبك ؟ فقال حنفي .
ولكن لست خوارزمياً ، لست خوارزمياً بكونها ، إنما اشغفت ببخارى ،
فأرى رأى أهلها ، نبي عن نفسه أن يكون معتزلياً »^(٢) .

وقد جعل المحدثي اعتبار الخوارزميين أعظم فضائلهم^(٣) ، وهو صادق
في هذا الحكم ، لأن الاعتبار شاع بينهم ، حتى إن عوامهم يدعون بأن
القرآن مخلوق^(٤) .

القضاء

كانت الغلبة في خوارزم لمذهب أبي حنيفة ، وكان لكون مدينة قاض بفصل
بين الناس وفق الشريعة الإسلامية ، فإن كانت المدينة كبيرة وبها مذاهب
متعددة عين الخوارزميون قضاء بعدد المذاهب ، وهؤلاء القضاء كانوا بشومون
أيضاً بقدرين العلوم الدينية في المساجد والمدارس^(٥) .

وذكر ابن بطوطة في وصفه لأмир خوارزم (قاضي ديمور)^(٦) أن من

(١) يريد رياسة وتقدماً بدلاً القلب .

(٢) معجم الأدباء ١٦٠/٢٣٨ .

(٣) ربيع الأبرار للمختصرى الباب التاسع مخطوط .

(٤) أحسن التقاسيم ٣٩٥ ، ٤١٥ .

(٥) سيرة جلال الدين منكبرتي ٧٧ .

(٦) خطبها بضم القاف وحكون طاء وضم اللام ، وضم اللام والهمزة ، وقال : إن من
الكلمة الأولى المباركة ومعنى الثانية الحديرة ، ومنه بدأ الحديرة المبارك ، وقال : إنه ابن خات
البايغان العظيم أوزبك وأكبر أجداده ووالية على خراسان .

عادته أن يأتي القاضي كل يوم إلى مجلسه ومعه الفقهاء وكتابه ، ويجلس في مقابلة أحد الأفراد الكبراء ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وسيوخهم ، ويتخذ كل الناس إليهم ، فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي ، وما كان من سوء حكم فيه أو أوثك الأمراء ، وأحكامهم مضبوطة عادلة لأنهم لا يهتمون بغيل ولا يقبلون رشوة^(١) .

ب — في الإقليم كله

لكن خوارزم لم تسكن في عزلة عن الحياة العلمية والأدبية في المنطقة كلها ، ولاسيما الآداب الصافية ها ، إذ كانت هذه المنطقة موحدة الحكم في عهد العرب المومنين والامانيين والسلاجقة ، وكانت لبرائهم الثقافية تجرى هذا وهناك بين مجتمع من الفرس والعرب والترك^(٢) .

وهنا يستدعي الاشهاد أن الإقليم الذي كان فارسيا واستغرب خراج غنائم من الشعراء والكتاب والمفكرين والنجاة والفقهاء والتفسيرين والمحدثين .

وإذا كان المومنيون قد ذاع صيتهم بتقدير العلماء والآباء فإن السامانيين كانوا مثليهم ، فكان نوح بن منصور الساماني يقدر العلماء ويؤثر استخدامهم في شؤون الدولة ، ولا سمع بشهره الصاحب بن عباد وزير آل غويه كتب إليه يستدعيه إلى بخارى ليفوض إليه وزارته وتدير مملكته ، فاعتذر الصاحب بأنه يحتاج إلى أربع مئة جمل لنقل كتبه .

واشتهر وزيران من وزراءهم بشغفهما بالأدب والعلم ، أحدهما أبو الفضل

(١) مذبذبة رحلة ابن بطوطة ١/ ٣٠٠ .

(٢) كثير العرب هناك منذ التتبع ، وكثير الترك وعلماء بغداد منذ عهد المنصور ، ثم توالى هجراتهم وكانت السلاجقة من ثمار بعضها .

ابن عبيد الله الهنسي الذي كان وزيرا لمصطفى بن نوح الساماني، وهو الذي ترجم تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية، والآخر أبو عبد الله محمد بن أحمد الجعفي، الذي كان وزيرا للملك السابق، وكان يكرم قصاده وبعين مؤلفيه^(١)، فشجع هذان الوزيران العلم والآداب في بخارى كما شجعها أبو الفضل بن العبيد والصاحب بن عباد في الري، فكان في قصر الصاحب بأصبهان والري وجرجان عشرات من ذوي العلم والآداب، مثل أبي الحسن السلمي وأبي بكر الخوارزمي وأبي طالب المأموني وأبي الحسن البغدادي وأبي سعيد الرستمي وأبي القاسم الزعفراني وأبي العباس الصفي وأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني وبنو المنجب وأبي الفضل الحمداني وغيرهم^(٢)، وقصده كثير من الأدباء من جهات شتى.

نعم كان السلاجقة أعظم رعاية للعلوم والآداب، بفضل الوزير نظام الملك الذي وزير لأتلب أرسلان (٤٥٥ - ٤٦٥ هـ) ولأبنة أبي الفتح ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ)، وهو عالم ذكّر في الحديث وعلوم السنة في طوس، وكان ينقب عن الممتازين منهم ويبني لهم مدارس ليتعلموا بها ويقف عليها الأوقاف، وينشئ في كل منها مكتبة، ويرتب للعلماء ما يكفيهم حتى يفرغوا التعليم وشر الثغافة بين الناس، ولما كثرت الأموال في خزانة الدولة حصص فيها لأرباب العلوم حقوقا لا تؤخر، وصير هذه الحقوق ثابتة لهم وميراثا لأبنائهم^(٣)، وإليه تنسب المدارس النظامية التي أنشأها في أمصار شتى لتعليم الحديث.

ويذكر العماد الأصفهاني أن الآباء كانوا يترددون بأبنائهم النجباء على

(١) مجمع الأدباء، ١٢/١٥٧.

(٢) بنية الدهر، ٣/٣٢.

(٣) الكامل لابن الأثير، ١٠/٣٠، و٧١، و٧٢، و٧٣، و٧٤، و٧٥، و٧٦، و٧٧، و٧٨، و٧٩، و٨٠، و٨١، و٨٢، و٨٣، و٨٤، و٨٥، و٨٦، و٨٧، و٨٨، و٨٩، و٩٠، و٩١، و٩٢، و٩٣، و٩٤، و٩٥، و٩٦، و٩٧، و٩٨، و٩٩، و١٠٠.

مجلسه ، لأنه كان يتفرس في وجودهم ، فترشح كلا منهم للمنصب الذي يلائم
رشدته وكفايته واستعداده ^(١) .

المكتبات

ولا شك أن رعاية الثقافة تقتضي عناية بالكتب والمكتبات على النحو
الذي نلاحظه في وصف ياقوت لمدينة مرو وتقديره لمكتبتها التي انتفع بها في
مؤلفاته ، فيها عشر خزائن للوقف ، لما ر في الدنيا مثلهما كثرة وجوده ، منها
خزانة في الجامع ، إحداهما يقال لها العزيزية ، فيها اثنا عشر ألف مجلد ، والأخرى
يقال لها السكينة .

وكانت سبلة التناول لا يفارق منزلي منها مثنا مجلد أكثرها بدون
وهن

وقد أنشأ جميعها كل بلد ، وألحاني عن الصحب وتوليد ، وأكثر فوائد
هذا السكنداب - معجم البلدان - وغيره فهي من تلك الخرائن ^(٢) .

ووسمها في رسالة إلى القاضي أبي الحسن الشيباني وزير حلب ، وجاء في
وصفه قوله : « كان القام بمرور الشاهجان القسر عندهم بنفس السلطان ،
فوجدت بها من كتب العلوم والآداب ما شغلني عن الأهل والوطن ، ففكرت
بها بضالتي المشودة ، فأقبلت عليها إقبال المهتم الحريص » .

ووصف في هذه الرسالة إمام خراسان بأنه موزق الأرجاء ، رائق الأتقاء ،
ذو وباض أربضة ، ومجلة أمره أنه نموذج الجنة بلا مئين ، فيه ما تشتهي الأنفس
وتلذ الأعين ^(٣) .

(١) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٦٠ ، ٧١٠ ، وتاريخ آل سنجوق ٤ : ٥ العهد الأصفهاني .

(٢) معجم البلدان - مدينة مرو .

(٣) وقفيات الأعيان ٢/٢١٣ .

وكان نوح بن منصور الساماني كفاً بالسكيب حريصاً على اقتنائها . فجمع مكتبة كبيرة حوت أهم المؤلفات في كل علم من الأدب والشعر والتاريخ والطب والفلسفة ، ذكرها ابن سينا في حديثه عن نشأته ، وقال إنه استفاد منها ، وإن بعض كتبها نادر الوجود .

ولو حاولت أن أرسم صورة كاملة للحياة الثقافية هناك لعطاني المقال والاسع المجال ، فلنتمكن لحاجات سرعات .

علماء الحديث والفقه

من المحدثين البخاري — نسبة إلى البخاري — المتوفى سنة ٢٥٦ هـ (٨٦٩ م) وهو إمام مدوني الحديث ، وصلى بن الخجاج النيسابوري — نسبة إلى نيسابور — المتوفى سنة ٢٦١ هـ صاحب صحيح مسلم ، وكل منهما قد وصل إلى العراق والحجاز والشام ومصر ليجمع الأحاديث بسندها ، ويبين صحيحها من زائفها .

ومن الفقهاء المجتهدين أبو بكر محمد بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) الذي وصفه الذهبي بأنه كان مجتهداً لا يقلد أحداً ، وأبو حاتم محمد بن حبان النميري السمرقندي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥) الذي حكى عن نفسه أنه أخذ عن ألف شيخ بين الشام — طشقند — والإسكندرية ، وهو مرجع كثير من المحدثين في حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل .

كما كان للإمام من كبار الشافعية محمد بن علي التتال الشافعي المتوفى سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) وهو الذي نشر مذهب الشافعي هناك ، وكان معتزلياً ، وله كتب في الفقه والأصول ، وأبو بكر بن فورك الأصبهاني الأصولي المشكك المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) وهو ناصر مذهب الأشعري ، وقد انتظمه أهل الزم لكثرة الاعتزالية بها ، فطلبه أهل نيسابور ، وبنوا له مدرسة يعلم فيها ، وله مؤلفات

تبلغ نحو المئة ، وأبو بكر أحمد بن الحسين الميمني الحافظ الشوفي سنة ٤٥٨ (١٠٦٥ م) —
نسبة إلى أبيه في القرب من يسابور — ومؤلفاته كثيرة حتى قالوا إنها نحو ألف
جزء ، ومنها السنن الكبير والسنن الصغير ودلائل النبوة ومناقب الشافعي
ومناقب ابن حنبل .

وكان بالإقليم من علماء الحنفية أبو منصور المازندراني — نسبة إلى ما ترديد
وهي محلة سميرند — الشوفي سنة ٥٣٣ (٩٤٤ م) وهو في علم الكلام عند الحنفية
مثل الأسعري عند الشافعية ، وله كتاب التوحيد وأوهام المعزلة ، وما أخذ
المشائخ في الفقه ، والجدل في أصول النقد وغيرها ، وأبو الليث نصر بن محمد
السمرقندي الملقب بيسام المازندراني الشوفي سنة ٥٣٧ (٩٨٣ م)^(١) .

وهكذا نجد في كتب الحديث والفقه كثيراً من العلماء منسوبين إلى منهمهم ،
مثل التيسابوري والفرغانى والمهروى — نسبة إلى هرات — والمجشري والبهيقي
والخوارزمي والقزويني والباضي والسمرقندي والشاشي والفارابي والمروزي
— نسبة إلى مرو وزيادة الرأي ، ويقال أيضاً للمروزي نسبة إلى مرو الروز —
والرازي — نسبة إلى الري — والبصغاني .

علماء اللغة والأدب

كذلك ازدهر الإقليم بكثير من العلماء الكبار الذين ألقوا في اللغة والأدب ،
منهم علي بن عبد العزيز الجرجاني الشوفي سنة ٥٣٦ (٩٧٦ م) وهو فقيه ومفسر
ومؤرخ وشاعر مشيق وكاتب سترسل ، وقد بصير له ومن مؤلفاته (البساطة
بين المتعالي وحصومه) .

ومنهم أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى — من هرات — الشوفي سنة ٥٣٧٠

(٩٨٠ م) مؤلف كتاب التهذيب الذي يعد أصلاً من أصول المعاجم العربية ، وقد اعتمد عليه وعلى المحكم لابن سيده ابن منظور في معجمه لسان العرب . ومنهم أبو عمرو أحمد بن محمد الزوزني المتوفى سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) — نسبة إلى زوزن بضم الزاي وفتحها ، وهي بلدة بين نيسابور وهرات ، وله شرح المضائق السبع .

ومنهم أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران النيسابوري المتوفى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أصله من أصحابان وسكن نيسابور ، وسمع من كبار عاصمها ، وله من المؤلفات كتاب الشامل ، وكتاب الغاية ، وكتاب قراءة أبي عمرو ، وكتاب غرائب القرآن ، وكتاب وقوف القرآن وغيرها ^(١) .

ومنهم إسماعيل بن حماد الجوهري — من فارس — المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) ، مؤلف كتاب الصحاح وهو من أمهات المعاجم العربية .

ومنهم يدعى الزمان الحمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ وهو كاتب وشاعر ، وقد اشتهر بمروعة الحفظ وسرعة التحبير ، وله المقامات المعروفة باسمه التي حاكها الحريري فيما بعد ^(٢) .

ومنهم أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) كان كاتباً وكان عالماً باللغة والأدب ، وهو مؤلف كتاب فقه اللغة على الطريقة الموضوعية ، إذ جمع في كل موضوع الكلمات المتصلة به ، ومؤلف بئمة الذهب في محاسن أهل العصر ، ترجم فيه لأدباء القرن الرابع ، وذكر نماذج من أدبهم ، وما قيل فيهم ، وقسمه حسب الأقاليم والأصناف ، وله كتاب ثمار القلوب في المضاف والمثسوب وغيرها .

(١) معجم الأدباء ١٢/٣ .

(٢) معجم الأدباء ١٦٦/٣ ، وبئمة الذهب ١٦٧/٤ .

وأبو الحسن علي بن الحسن الباخري البتحي — باخري من نواحي
باصري — المتوفى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) وهو مؤلف دمية القصر في شعراء
العصر، جعله تذييلاً على يتيمة الدهر للثعالبي^(١).

وممنهم عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) وهو مؤلف
كتابي "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة".

وممنهم أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني الباصري — الميدان محلة من محال
بباصري كان يسكنها فنسب إليها - - المتوفى سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) وهو مؤلف
جميع الأمثال، والسلمى في الأساس، والمؤرج في النجوم، وشرح المفاتيح^(٢).
وسمى آدم بن أحمد بن أسد المروزي أبو سعد النحوي البغوي المتوفى
سنة ٥٣٦ هـ - ١١٤١ م، من أهل هراة وسكن بلخ، كان أدبياً فاضلاً عالماً
بأصول اللغة صائهاً، ورد بغداد سنة ٥٢٠ فاجتمع إليه أهل العلم وقرأوا عليه
الحديث والآداب، ومن تلاميذه رشيد الدين محمد بن عبد الجليل الملقب بالطوطا
كاتب الإنشاء بخوارزم شاه، وكان يكتابه ويخضع له ويقر بفضل^(٣).

الفلاسفة

نشطت الفلسفة بالإقليم شامطاً كبيراً يرجع إلى ثلاثة من حاملي نواحيها، أولهم
— حسب الترتيب الزمني — أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي البغوي سنة
٣١٧ هـ (٩٢٩ م)، وهو من بلخ، وكان واسع المعرفة بعلم الكلام، وإماماً
من أئمة المعتزلة، وله مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية^(٤).

(١) معجم الأدباء ١٣/٢٢٢.

(٢) معجم الأدباء ٥/٤٥.

(٣) معجم الأدباء ١/١٠١.

(٤) الملل والنحل ١/٧٢.

واسميه أبو زيد أحمد بن سهل البلخي متوفى سنة ٣٧٢ هـ (٩٣٣ م) وكان صدقاً متكفياً^(١) ، وقد جمع بين العلوم الشرعية والأدب والفلسفة ، وله مؤلفات كثيرة تبلغ نحو السبعين ، منها كتاب أقسام العلوم ، وكتاب شرائع الأديان ، وكتاب السياسة ، وكتاب أسماء الله وصفاته ، وكتاب صناعة الشعر ، ورسالة حدود الفلسفة ، وكتاب أخلاق الأمم ، وكتاب نظم القرآن .

وفد هـ أبو حامد الفارسي في وصف كتابه نظم القرآن : لم أركتاباً في القرآن مثل كتاب أبي زيد البلخي .

وقال أبو حيان التوحيدي : « أبو زيد البلخي يقال له بالعراقي جاحظ خراساني » وقال أيضاً في كتاب تقريب الجاحظ : « الذي أقول وأعتقد وأخذ به أني لم أجده في جميع من تقدم ولا في ثلاثة أو اجتماع الثقلان على تقريبهم ومدحهم وشرف فضائلهم . . . لا بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم ، أحدهم (وذكر الجاحظ) والثاني (وذكر أبا حنيفة الدينوري) والثالث أبو زيد أحمد ابن سهل البلخي ، فإنه لم يتقدم له شبيه في الأعصر الأول ، ولا يظن أنه يوجد له نظير في مستألف الدهر ، ومن صصح كلامه في كتاب أقسام العلوم ، وفي كتاب أخلاق الأمم ، وفي كتاب نظم القرآن . . . علم الله بحر البحور ، وآله عالم العلماء ، وما رأيت في الناس من جمع بين الحكمة والشرعة سواء^(٢) » .

أما الثالث فهو أبو علي الحسين بن عباد الله بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٦ م) وقد درس الفلسفة اليونانية منذ الصغر ، ثم درس الطب ، وقرأ من الكتب ما لم يقع للكثير من الناس قط ، وما زال يكتبه القانون في الطب يدرس

(١) هو أبو القاسم البلخي الذي سبق الحديث عنه في الاعتبار بخوارزم .

(٢) معجم الأدباء ٦٤/٣ — ٨٦

في جامعات أوروبا إلى القرن التاسع عشر^(١) ، وما تزال كتبه الشفاء ، والتجديد ،
والإشارات مصدراً للدراسة الفلسفة الإسلامية .

كانت قد درس الفلسفة وتصدى للرد على الفلاسفة دفاعاً عن الإسلام أبو حامد
الغزالي المتوفى سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٨ م) وهو من مدينة طوس ، ودرس بالدراسة
الغزالية ببغداد ، وله مؤلفات كثيرة منها : تهافت الفلاسفة ، وكتاب فضائح
الباطلة ، وكتاب المنقذ من الضلال ، وكتاب إحياء علوم الدين .

المتصوفة

وكان بالإقليم تصوف ومتصوفة ، منهم أبو عبد الله محمد بن منازل
القيساري المتوفى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م) وأبو العباس بن القاسم بن مهدي
المتوفى سنة ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) وهو من أهل مرو ، وأول من تسكنهم عند
في حقائق الأحوال^(٢) .

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ٧٦ إرتوله ،

(٢) ظهير الإسلام ١ / ٢٦٥

الفصل الأول

حياته

اسمه محمود بن عمر بن أحمد، ولم أجد في نسبه ذكراً وليقال لأحد بعد هذا الجده،
وكنته أبو القاسم، غلبت عليه النسبة إلى بلده الذي ولد به، وشأ فيه، فقيل
المحسري، وكان قد جاور بسكة زماناً وأقرب فيه بخار الله، فصار هذا
اللقب علماً عليه (١) ..

ولد في محسري الساج والعشرين من رجب سنة ٤٩٧ هـ (١٠٧٤ م)،
وليس بين الذين أرخوا له خلاف في سنة وفاته، كما أنه متفقون أيضاً على
سنة ميلاده، إلا أن ابن كثير ذكر أنه توفي سنة ٥٣٨ هـ عن ست وسبعين
سنة (٢)، ومعنى هذا أن ميلاده كان في سنة ٤٦٢ هـ، لكن إجماعهم على أن الولد
كان سنة ٤٦٧ هـ، وقول ابن العماد الحنبلي أنه توفي سنة ٥٣٨ هـ، بعد أن عاش (٧١ سنة) (٣)
يجمعاناً نستفيد نأخذ كره ابن كثير.

وكان مولده في عهد السلطان تيمكشاه السجوقي ووزيره غلام الملك،
وهو من أزهى الفترات التي نهضت فيها الآداب والعلوم،
شأنه في محسري ودرس بهاء ثم رحل إلى بخاري لطلب العلم في مطالع حياته (٤)،

-
- (١) مرآة الجنان ٣/٢٦٩، ومعجم الأدياب ١٩/١٤٦.
(٢) وفيات الأعيان ٤/٢٥٩، وشذرات الذهب ٤/١٢١، وأبو أن الولد كان في
١٧ رجب [ولإنشاء الرواة ٣/٢٦٨، وتاريخ أبي الفدا ٣/١٦].
(٣) البداية والنهاية ١٢/٢١٩.
(٤) شذرات الذهب ٤/١٢١.
(٥) وفيات الأعيان ٤/٢٥٥.

لأنها كانت منذ عهد السامانيين « مثابة الخلد » وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدياء الأرض ، وموسم فضلاء الديار » (١) .

كان الزمخشري في مطلع حياته طموحاً ، يأمل أن يتبوأ السكانة التي تكفي حلمه وأدبه وذكاه ، وأن يقال من المال ما يكفل له رغد الحياة ، كإقال غيره من هم دولة مقدره وكفاية ، وكانت الدولة الخوارزمية حازماً في شأنها ولاية تابعة للسلاجقة ، فصوب الزمخشري نظره إلى الدولة الكبيرة التي يتولى شؤونها نظام الملك ، ومدحه بقصيدة (٢) صور فيها ضيق نفسه ، وجرمه بعلمه وكفايته وفضله ، ما لم تبوءه السكان الرفيع الذي يستحقه ، وجور بأنه من الظلم أن يظفر المتخلفون بما يجب أن يناله الأكفاء المتقدمون وحدهم ، وسخط على الزمن الذي جاد على الأراذل بحقوق الأمثال . ثم عزى نفسه عن هذه المفارقات بأن كثيراً من القبيحات أحياءهن حالية ، على حين أن كثيراً من الحسان عواجل الأحياء .

ونلاحظ أنه في مدحه المزوج بالشكوى يوه بعلمه وأدبه . وجعلهما صلة قرى بينه وبين نظام الملك ، وعرض بتصديره في رعايته على ما بينهما من هذه القرابة . مع أن غيره من الأقربة بينهم وبينه كانوا يرعون حقوقه ، وخبم القصيدة باعتداد مقرون بتحدى نظام الملك أن يجد له ظييراً في جميع من يرى ، وبتهديده بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم يسمع به بما يأمل ، وعلوم حتى على أن آماله في التوزير كانت عظيمة فذهبت سدى . لأن الأراذل ظفروا بما لم يظفربه ، ثم طاف به صراحة بأن يأمر له بما يحقق آماله . من هذه القصيدة قوله (٣) :

خليلٌ على تجزئى على فطاني إذا أنا لم أرفع على كل جاهل ؟
ومن لي حتى بعد ما زفرت على أراذلها الذين يحقون الأمثال ؟

(١) بقيمة الدهر ٣٣/٤

(٢) ديوان الزمخشري ٩٥

(٣) ديوان ٩٤

كذا الدهر كم شوهاه في الخلق جيدها
وعما شجاني أن غرة منافني
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدني
وكم من أمالي لي وكما من مصنفني
ولي في دقيق النحو والنقد منطق
غني من الآداب لكنني إذا
فيا ليتني أصبحت مستغنيا ولم
ويا ليتني مرض صديق ومُسخِط
وما حق مثلي أن يكون مُضيقا
وأعظمها أني أنيب نصابه
وقد كان يرعى الناس حق قبله
أخطئ منقوص ولست بتاقص
فلا ترض بأصدر الكفاة بأن ترى
ولا تجعلوني مثل همزة واصل
فكل امرئ أماله عند الحصا
لئن كان امرئ في خوارزم ما أرى
وكم قلت ألي في وزارتك للمني
ولم أدر أن الأردلين يزون ما
هو قع إلى هذا الزمان فإنه

وكم جدير جيساء القلعة عاقل
تغني بها الركبان بين القوافل
وسارت مسير النيرات رسالي
أصاب بها ذهني بحر المفاصل
إذا قلبه لم أبق قولاً تقائل
نظرت فما في الكف غير الأنامل
أسكن نغز خورزم ورأس الأفاضل
عندوي وأنى في قهاهسة ياكل
وقد عظم عند الوزير وسالي
إذا عرّضت أنساب هذي القبائل
على عدم القرني ويُعد الوصائل
وكم كامل خطا وليس بكامل
أعلى قسوم الحقوا بأسافل
فيسقطني حذف ولا راء واصل (١)
وهاك نظيري في جميع المحافل
فإن رحالي في ظهور الزواجل
وأدرك وحدي ما ارتجى كل أمل
تمتدوا وأنى لست أخطئ بطائل
غلامك يحملي كبعض الأراذل

(١) أي لا تهمل كما بهمل النكاح همزة الوصل وكما أسقط واصل بن عطاء الراء من كلامه

لكن الرمحشري لم يخفق من نظام الملك بما أراد ، فلذا عسى أن يكون
السبب أو الأسباب في هذا الإخفاق ؟

قد يرجع إحقاقه إلى أن نظام الملك سئى نعم الحديث وعلمه وأمله ،
وافتح المدارس لتعليم الشريعة على مذهب أهل السنة ، ولكن الرمحشري
معتزلى مكاشف باعتزاله مشهور به .

وقد يرجع أيضاً إلى أنه في مدائمه ومطالبه كان يمزج طلبه بأنواع من
التنوير بنفسه ، والمباهاة بعلمه وأدبه ، والتعريض بغيره ، ولقد نظام الملك على
تقصيره وتغاضيه عنه ، وكان كالآمر الذى يتوقع أنه لابد من أن يطاع .

وحينئذ اجتمع اليأس من المقام بخوارزم حيث لا منصب ولا أمل ، والاعتماد على
الرجاء عن الوطن الذى ولد به ورث فيه ، وكان صراع نفسى صوره في قوله :^(١)

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا إِلَى الَّتِي فِيهَا عُذِّيْتُ وَلِيَسُدَّ
وَلَكِنْ تُؤَلِّسِي بِالْكَرَامَةِ غَيْرُهَا وَهَذِي أَرَى فِيهَا الْهُوَانَ تَقِيدُ
وَمَا مَنَزَلَ الْإِذْلَالَ لِلْحَرِّ صَرِيحًا وَإِنْ كَانَ عَيْشُ الْخَرِّ فِيهِ رَغِيدًا
سَأَرْحَلُ عَنْهَا نَحْمُ لَسْتُ بِرَاجِعٍ وَأَضْرِبُ مَرَّحِي فِي الْبِلَادِ بَعِيدًا
فَلَا كُنْتُ إِنْ خَيَّمْتُ فِيهَا بَيْنَ حَرٍّ وَلَا عَشْتُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ حَبِيدًا
عَلَى أَيْنَ يَتَجَدُّ ؟

لقد اتجه إلى إقليم آخر من أقاليم الدولة السلجوقية هو خراسان ، فالتحق
ببعض رجال الدولة هناك ، ومنحهم ، منهم مجير الدولة أبو الفتح علي بن الحسين
الأردستاني نائب الحاج الدولة على ديوان الإنشاء في عهد السلطان أبي الفتح
ملكشاه ، وكاتب الرسائل المشهور في ذلك العصر ، وقد مدحه ، وتطاع إلى أن
يقرأ كتابيه (شرح أبيات سيبويه) و (الأمونج) فقال :^(٢)

• (١) الديوان ٣٧

• (٢) الديوان ٣٣

فمنع من بحير الدولة السجاري
 طمسي آصال مراض وجار
 فليت رجائي أقيمت بفساده
 وبفساد زناد وأرباب من مناقبي
 وفي شرح أبيات (الكتاب) بعض ما
 و(أتمودج) أنقذت منه بضمه
 أراغب من عين الوزير اطلاع
 جميع ثياب الدهر تبلى جديدها
 مداواة أدواء وأشبهوا جراح
 لسكر مهبصات الخطوب القوايح
 فارتفع في نعمانه غير علاج
 إذا عكست كل الزناد لفساد
 يرى في صفائي لجملاً أي شارح
 رجائي أرى فيه وجوه الشايع
 عليه وحسبي منه لحمة لاج
 وينقى على الأيام ثوب المسدائح

ولاحظ أنه صور نفسه سقياً جريحاً مهبط الجراح، ويبد بحير الدولة برفه
 ورد القوة إليه، وأنه يمتنى أن باحظه بعمل عنده ليملأ كفايته التي لا تميل لها،
 وهو إذ يقدم كتابيه في النحو وهما شرح أبيات كتاب سيويو والأتمودج^(١)
 شاهدين على علمه يشرتب إلى نظرة من الممدوح راعية، أو إلى لحمة حانية.
 وله في مدحه قصيدة أخرى^(٢).

ومدح في خراسان مؤيد الملك عبيد الله بن نظام الملك، وكان رئيس
 ديوان الإنشاء أيام السلطان أبي الفتح ملكشاه، وكان بليغاً في الشعر والنثر،
 ومتفوقاً على إخوته، ورد في مدحه أمه في منصب كبير بلائم كفاءته كقوله^(٣):

إليك عبيد الله انتهى شكايي
 بحفك فارجره ومره لينتهي
 بكاية دهر بلفججي بصيله
 فابرك أمضي من مواضي بباله

(١) سأعرض لها في مؤلفاته.

(٢) إنباه الرواة ٢٦٧/٣.

(٣) ديوان الرطري ٩٧.

فأتى الذى لديوان طوع حكمه وذلك غموق فى ركب رجاه
وأنت الذى إن ظن شدة برينه فما فيهم من يقنى عن مقبلة
وكرد مدائح له^(١) .

ولكنه لم يحد فى خراسان مبتعاه ، ولم تكن حاله بها خيراً من حاله فى
خوارزم ، فسلم البقاء ، وارتحل إلى أصفهان عاصمة السلاجقة ، وكان ملكها
محمد بن أبى الفتح ملكشاه مشهوراً بالعدل وحسن السيرة والشجاعة ، وهو الذى
قضى على الباطنية ، وملك حصونهم ، وخرّب ديارهم ، ومحا آثارهم^(٢) ، وهنالك
مدحه الزمخشري بالعدل والسؤدد ونصرة الحق وحماية الإسلام فى قوله^(٣) :

محمد بن أبى الفتح الذى تركت أوصاله أكمة فى كل منطق
ابن السلاطين من أبناء ساجوق وابن القطارف منهم والفرانيق^(٤)
لله من عادل من حق سيرته ونصيره الحق أنت إذنى بخاروق
مستوجب من جوع الشرك مبقضة محبب فى بلى الإسلام مرموق

ومرت سنوات بعد حكم أبى الفتح ملكشاه (٥٦٥ - ٥٨٥ هـ) وإذا
بالزمخشري يتدح السابع من ملوك السلاجقة ، وهو معز الدين منجر (٥١١ - ٥٢٢ هـ)
بقصيدة^(٥) تبدو ضحولة عواطفها ، وانتمارها على محاكاة القدماء فى معانيهم ،
والجنوح فيها إلى المبالغة :

مناه كل الناس كعبة مؤذرة أهل الخوانج منهم حجاجها

(١) الديوان ٢٢ ، ٣٥ ، ٨٩ ، ١٠٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١٠ / ١٨٥ .

(٣) ديوان الزمخشري ٨٦ .

(٤) القطارف اسم غطريف وهو السيد ، الفرانيق : جمع غرنيق أو غرلوق وهو
الشاب الأبيض الجبل .

(٥) الديوان : ٢٠ .

وكانما السفطان سنجر كعبه
ركبة التماسه وهي أصعب مركب
النفقة دونهم فما إجماعها
فإنه ركب النجوم لما ثبت
جهنم الحثيا للمبدأ طاق إذا
يجرى إليهم سببه بأعمال
إلى أن يقول :

تبقي الحقيقة في أمورك كلها
لو أن عسلك شدة بياضها
إب الحقيقه واضح منهاجها
لأرتد كالعذب القرات أجابها

على أنه اتصل بخوارزم شاه محمد بن نويشكين (٥٩٠ - ٥٥٢١)
ومعده ، وأشار في كتابه (مقدمة الأدب) برعاية ابنه أنسر (٥٢١ - ٥٥٥١)
للعلماء والأدباء ، لأنه أمر بنسخ هذا الكتاب لخزانته .

ثم رجع إلى نفسه في قرضته التي مرضها سنة ٥١٢ هـ ووصفها بأنها ناهكة^(٢)
ومذرة ، فعاهد الله إن من عليه بالصحة ألا يطأ عتبة سلطان ، ولا متصل بخدمة
سلطان ، وأن يربأ بنفسه وأسانه عن مديحهم ، وأن يعف عن التقاطع إلى
عظياتهم والأمل في مناصبهم ، وأن يعكف على التأليف والتدريس^(٣) .

فلما شفاه الله شخص إلى بغداد ، وناظر بها وسمع من علمائها^(٤) الذين
سيجيء ذكرهم .

(١) ابن الوردي .

(٢) الناهكة : الشديدة .

(٣) معاني الزمخشري ٥ .

(٤) تاريخ أبي الفدا ١٦/٣ .

وما لبث أن أحسَّ سمو نفسه ، وخصصها من أوهان الطامع ، فأنشد
إلى مكة مشوفاً راجياً الصبح من ربه عما فرط منه ، معتزلاً أن يقم بها مقروداً
على بيت الله ، إلى أن نجم القضاء ، فأنجى نفسه في الطريق بقوله^(١) :

يا من يسافر في البلاد متعباً	إلى إلى البلد الحرام مسافراً
إن هاجر الإنسان عن أوطانه	فإنه أولى من إليه بهاجراً
وإن جازد الأبرار لك ومن مع	بالدين ديناً فدم التاجر
حررت هذا العمر غير بقية	فلعمري لك يا بقية عامر
في طاعة الخيل أذل طافق	فلعمري فيها لكسرى جاد
سأروح بين وفود مكة وفداً	حتى إذا صدروا فما أبا صادراً
بفساء بيت الله أضرب قبتي	حتى يحل في الفرج القادراً
ألقى العصا بين الخطيم وزمزم	لا يهينني إخوة وعشائر
صيفاً لمولى لا يحل نصيفه	وبذل أقصى ما في الزائر
حسي جوار الله حسي وحده	عن كل منحرف بعد القادر
سأقيم ثم ونم تدفن أعظمي	ولوف بعثي هناك الحائر

وهذا في مكة كان الأمير أبو الحسن علي بن حمزة بن وهس الشريف
الحسيني ، وكان ذا فضل عظيم ، وله تصانيف مفيدة ، وقريبة في النظم والنثر
مجيدة^(٢) . فحرب الزنجاري ، وعرف قدره ، ورفع شأنه ، وأقبل على الاستفادة
منه ، كما استفاد منه الزنجاري^(٣) .

(١) ديوان الرخضري ٥٢ .

(٢) معجم الأدباء ٨٥/١٤ .

(٣) إنباء الرواة ٢٨٦/٣ ، ومعجم الأدباء ٨٥/١٤ .

وقد اطلعت نفس الرخشمري إلى الإقامة في مكة ، وإلى القرد المستقر
على بيت الله الحرام ، وإلى تكريم الأمير ابن وهش ، قدح الأمير^(١) مدحا
ينبىء عن صدق العائفة والمحبة والشكران ، كقوله :

ففي هو حال بالعمالي بأمرها وقد طليت منه العمالي بأوحدا
تريب نتم من ذؤابة هشم بقيت أعراف أطانده موبدا
ولو شاء لم يعتد تخيد هشم نصبا كقاء بالنبوة محمدا
ونقرأ من سبناه في قساته شهادة حق أنه سبط أجدا
هو الخرماء أحمدي إلى بعض معشرى فأبصره إلا نعت به الصدى
ولى منه نصيح الخبيبر والعقدة التي أبت أن يرى الرايون أوثق معتدا
ونولا ابن وهش وسابق فضله رعت هشيا واستقيت مصردا

وكان ابن وهش يمدح الرخشمري ، فمن مدحه قوله^(٢) :

وكم الإمام الفرد عندي من يد وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا
أخى العزمة البيضاء والحمراء التي أنابت بها ، علامة العضر والوزي
جميع قرى الدنيا سوى القرية التي تبوأها داراً فداة رخشمرا
وأحرار بأن نزاهي رخشمرا بأمرى إذا عد في أمد الشرى زمخ الشرا^(٣)
فلولاه ما ظن البلاد بذكرها ولا طار فيها منجداً ومغورا
فليس ثناها بالعراق وأهلها بأعرف منه بالحجاز وأشهرها

وفي أيام مقامه بالحجاز زار همدان ، ومدح آل زريق ، فقال في إحدى
قصائده^(٤) :

(١) ديوان الرخشمري ٢٧ ، ٧٤ ، والنجوم الزاهرة ٢٧٤/٥ .

(٢) معجم البلدان ٤٠٠/٤ ، وإنباء الرواة ١٦٨/٣ ، والقاموس المحيط مادة رخشمرا .

(٣) القرا : مأسدة . زمخ : تكبير . (٤) ديوان الرخشمري ١١٥ .

كَمْ قُبْتُ فِي خَوْرَزْمٍ غِنْدُ تَوْجَلِي لَو كَأَنِّي سِيرِي إِلَى هَمْدَانَا
لَوْ لَمْ أَقُلْ سِيرِي إِلَى هَمْدَانٍ مَا هَمَدْتُ بِنَا فِي سِيرِهَا هَمْدَانَا^(١)
وَبِتَوَزِيرٍ مَا شَزَرْتُ ثِيَابِهِمْ إِلَّا عَلَى الْخَضَبَاتِ مِنْ شَهْلَانَا
وَطُوفَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، لِأَنَّهُ يَقُولُ : وَطَلْتُ كُلَّ مُزْبَةٍ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ ،
فَوَجَدْتُ (تُرْبَةَ) أَطْيَبَ التُّرْبِ ، وَهِيَ وَادٌ عَلَى مِيزَةِ أَرْبَعِ لَيَالٍ مِنَ الطَّائِفِ ،
وَرَأَيْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِهَا^(٢) .

وَلَكِنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَقَامَ بِمَكَّةَ نَحْوَ سِتِّينَ شَاقِقَةً وَطَلَّهَا ، فَوَحَلَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ لَامَ
نَفْسَهُ أَشَدَّ اللَّوْمِ ، وَبَكَى أَحْرَ بَكَاءً ، وَصَوَّرَ هَذَا فِي عِدَّةِ قَصَائِدٍ مِثْلَ قَوْلِهِ^(٣) :
بَكَاءٌ عَلَى أَيَّامِ مَكَّةَ إِنِّي إِلَيْهَا حَنِينُ النَّيْبِ فَاقْدَةُ الْبَكْرِ
تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي يَهَا فَكَأَنِّي قَدْ اخْتَلَفْتُ زُرْقُ الْأَسْنَةِ فِي صَدْرِي
أَبَيْتُ عَلَى الصَّخْرِ الْمُبَارَكِ يَاصِيًّا كَمَا أَنتَ الْخَلَاءُ تَهْكِي عَلَى صَخْرِ
وَقَوْلُهُ^(٤) :

أَلْبَتَّاعُ بِالْقَوْرِ الشَّقَاوَةِ خَاسِرًا وَأَسْتَبْدِلُ الدِّنْيَا الدِّنْيَةَ بِالْآخِرَى ؟
إِذَا خَطَرْتُ بِالْبَالِ ذِكْرِي إِنَّاخَتِي عَلَى حَرَمِ اللَّهِ اسْتَفْزَنْتِي الذِّكْرَى
وَأَدْعُو إِلَى الشَّوَانِ قَلْبًا جَوَابَهُ لِدَاعِيهِ مُهْرَاقٍ مِنَ الْمَقْلَةِ الْعَبْرَى
وَمَا عُذْرُ مَطْرُوحٍ بِمَكَّةَ وَحَلَهُ عَلَى غَيْرِ بَوْسٍ لَا يَجُوعُ وَلَا يَبْعَرَى
فَمَا فَرَّ عَنْهَا يَبْتَغِي يَدْلًا لَهَا وَرَبِّكَ لَا عُذْرًا وَرَبِّكَ لَا عُذْرَا

(١) لَيْسَ فِي أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ وَلَا فِي الْقَامُوسِ مَعْنَى رَأَى وَضَعَ عَهْدَ فِي الْبَيْتِ ، لِأَنَّ أَحْمَدَ
بَعْنَى أَقَامَ وَيَعْنِي أَسْرَعَ ، وَالْمُرَادُ هَذَا الْإِسْرَاعُ ، فَيَكُونُ الصَّوَابُ أَحْمَدُ أَحْمَدًا لَا عَهْدُ عَهْدَانًا .
(٢) أَسَاسُ الْبَلَاغَةِ مَا دَفَعَ لِرَبِّ .
(٣) الذِّبْوَانُ ٤١
(٤) الذِّبْوَانُ ٤١

فلم يكن بد من العزم على العودة إلى مكة . فقتل له : قد رَجَّيْتَ أَكْثَرَ
عَمَلِكَ هَذَا ، فَمَا لَوَجِبَ ؟ قال : القاب الذي لا أجده هناك (١) . ومعنى
هذا أنه لم يكن يجد طمأنينة القلب ، وصدق النفس ، وولادة العبادة إلا في مكة .

ها هو ذا ينطلق إلى مكة ، وفي طريقه إليها يعرج على الشام ، فيمدح تابع
لنوك بوري طفتكهن صاحب دمشق ، ولم يكن هذا المدح للزلفي أو لاستدرا
عطاء ، بل كان خالصاً لمحمد الله ، لأن بوري كان معروفاً بكرامته ثباتية ،
حتى إنه قتل منهم مئة آلاف ، وكان قد حوى المسلمين من الصابيين ، إذ جمع
العرب والترك كان نصددهم عن دمشق وهرمهم سنة ٥٢٣ هـ (٢) (١١٢٨ م) .

والراجح أنه أقام بالشام مدة ، لأنه مدح شمس الملك الذي خلف أباه سنة
٥٢٦ هـ (٣) .

وفي السنة نفسها سلك الطريق إلى مكة فبلغها ، وقضى بها ثلاث سنوات .
لقى فيها من ابن وهاس ما كان يلقاه من قبل من حفاوة وتعظيم ، وكان ابن
وهاس يوافقه في مذهبه ، فشجعه على تأليف تفسيره الكشاف (٤) ، فحقق له أن
يمدح ابن وهاس بقوله (٥) :

بِمَكَّةَ آخِيتُ الشَّرِيفَ وَغِيَةً ۝ وَالْيَسَّ مِنْ آلِ النَّبِيِّ غَطَارِفَ (٦)
يَتَابِعُ إِنْ تَوَطَّرْتُ رَدًّا لِمَا نَسَبَ ۝ وَيَنْهَضُ إِنْ ذُكِرْتُ رَدًّا مَكَانَ
مَنْ أَقْبَلَ الْعَلَامَةَ الْمُفَضَّلَ ۝ وَحَيَّوْهُ ، حَيَّا لَكَ تِلْكَ لَعَارِفَ

(١) إنباء الإواه ٣/٢٦٦ .

(٢) الكامل لابن الأثير ١٠/٢٣٤ ، ٢٤٣ .

(٣) ديوان الرغزبيري ٧٩ .

(٤) مقدمة الكشاف وديوان الرغزبيري ٧٤ ، ٧٥ .

(٥) ديوان الرغزبيري ٧٩ .

(٦) غطارف : جمع غطاريف وهو السيد الشريف .

وكان ابن وُقَّاس جُنْثَى فارثاً كما تفعل الأم الحفيدة لاحفاً
وتنمُّ لي الكشاف ثمَّ بشفة بها عبط التزابل للحق كاشفاً
على باب أجسامي حتى لي منزلاً كركن شامٍ باصفاً لمواصفاً^(١)
وأغشى في إنسلمه من تلاده تقيلات وزانٍ في البلاد حفاقفاً
ولم يكن غريباً أن يقول في قصيدة أخرى^(٢) :

زأرت وراء دين الحق زأراً وقد نهجت كلاب القربى
ومن يقضب لدين الله يجمع مراصيه إلى الأجر الشئى
وليس الجهر والتشبه إلا بقية لث دين جاهلى
فقم بالعدل والتوحيد فيه نقيم يابن النبي هدى النبي
وحينئذ يبدو أنه اطمأن وهداً ، وسور غرخته في قوله^(٣) :

أما الجارُ جار الله مكة مركزي ومضرب أوتادى ومعتد أطلسى
وما كان إلا زورة نهضتى إلى بلاد بها أوطان رطلى وأجبانى
فلما قضت نفسى - ولله درها - لبانة دار زلها غير خياب
سكرونا إلى طحا مكة واجفاً كفى أبو شيبان كركنا إلى الغساب
فمن يأتى في بعض القربيات رحله فقام الثرى ملقى رحلى ومُنتابى
ومن كان في بعض الحارِبِ راحكها فلكعبة البيت الحرام محرابى

ولكن هذا الرحالة الثقلة الشقيق إلى وطنه ثانية ، فهاجر إلى خوارزم ،
وخرج على بغداد سنة ٥٣٣ هـ .

(١) شمامة جيل .

(٢) ديوان الزمخشري ١١٦

(٣) الديوان هـ

ثم أهداهم بخوارزم إلى أن حرم القضاء ليلة عرفة سنة ٥٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) .
 جرجانية - قطيعة خوارزم على شاطئ - شهر جيجون -- بعد رجوعه من مكة^(١) .
 وقد زار ابن بطوطة خوارزم في أوائل القرن الثامن الهجري ، وقال :
 « غفار خوارزم قهر الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، وعليه
 قبة »^(٢) .

(١) وفيات الأعيان ٤/٢٥٩ ، وشذرات الذهب ١/١٢١ ، واللباء الزולה ٣/٢٩٨ وهو يسمى جرجانية ، كركانج . وتاريخ أبي الفدا ٣/١٦ .
 (٢) مذهب رحلة ابن بطوطة ١/٢٩٨ .

الفصل الثاني

أَسِرَائِدُنْهُ

استقى الزحشري من منابع كثير من العلماء الذين عاصره ، كما نهل من مؤلفات سابقة .

ولعل أعظم أساتذته آثاراً في نفسه أبو مضر محمود بن جرير الضبي الأصمباني المتوفى سنة ٥٥٧ هـ ، كان يلقب بفرید العصر ، ووحيد الدهر في علم اللغة والنحو ، وبضرب به المثل في أنواع الفضائل . وقد درس عليه الزحشري النحو والأدب .

أقام في خوارزم مدة ، فانتفع الناس بعلمه ومكارم أخلاقه ، وأخذوا عنه علماً كثيراً ، وخرج عليه جماعة من الأكابر في النحو واللغة ، وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ، ونشره بها ، فاجتمع عليه الخلق لجلالته ، وتذهبوا بمذهبه ، ومنهم أبو القاسم الزحشري ^(١) . وقد توسم أبو مضر في تلميذه الذكاء والجد والجدارة بأن يخلفه ، فتمعه به بعلمه ، ورعاه بماله . يدل على هذا قول الزحشري لنظام الملك ^(٢) :

إليك نظام الملك شكواي فاستمع إلى بث تحذود الغاش ضنكها
ولو لم تلب الضي عنى عراكها لفات بد البوى أدبى بقر كها
وكان الزحشري محباً لأستاذه أبي مضر ، وفيما له ، فلما مات سنة ٥٥٧ هـ رثاه بقوله ^(٣) :

(١) مجمع الأدباء ٢٢/١٩ ، وشذرات الذهب ١/١٢٠ ، ووفيات الأعيان ٥/٢٥٢

ونبذة الوفاة ٣٨٨ . (٢) الديوان ٩١ . (٣) الديوان ٦٤ .

فقلت لطبعي هات كل ذخيرة فمن أجله ما زلت أدخِرُ الذخيرة
وأبرز كرمات القسوفى وعرفها فقه استفادها العلم والنظم والنثر
ورثاه بقوله^(١) :

وقال ما هذه الرزق التي تسقط من عينك قطرتين سحابتين
فقات لها : المر الذي كان قد حشا أبو طغر أذنى تسقط من عيني
وعلى علمهما الرفع بقوله : هذا مثل قول القاضي أبي بكر الأثرجاني :

ولم يكتفى إلا حديث قرائهم لما أسرته إلى أدبهم
هو ذلك الدر الذي أودعته في مسعى أجريته من منمعي
ولا يدري أيهما أخذ من الآخر ، لأنهما كانا متعاضدين^(٢) .

ثم رجع إلى الخزانة استزيد من مداهل علمائها^(٣) ، وكانت حاتر
تابعة لسلطنة السامانية ، ولها صيت ذائع في العلم ، حتى إن الثعالبى يقول : إنهما
كفية طلاب العلم ، ومطلع نجوم أدباء الأرض^(٤) .

كنت سمع الحديث من شيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثى ، ومن أبى
سعد الشافعى^(٥) ، ومن أبى الخطاب بن أبى البظر^(٦) .

(١) الديوان ٥٧ ، ووفيات الأعيان ٢٥٨/١ ، ومعجم الأدباء ١٩/٧٢٤ مع بعض
تغيير ، وشذرات الذهب ١/١٢٠ ، وجمرة الجنان ٣/٢٧٠ ، وإنباء الرواة ٣/٢٦٧ .

(٢) مرآة الجنان ٣/٢٧٠

(٣) وفيات الأعيان ٢/١٠٧ ، ومعجم الأدباء ١٩/١٢٧

(٤) بليغة البهر ٥/١٠١

(٥) معجم الأدباء ١٩/١٢٧ ووفيات الرواة ٣٨٨

أعثر على ترجمة الحارثى في كتب الطبقات والتراجم ، وأما الشافعى فخرج الشافعى
للمشهور وكثير ما عني تصحيحه في أحد قيس يعرف بهذه النسبة من كبرى أئمة أو أئمة
بل وجدت من المشهورين الحديث أن أصل العباس بن الشيخ أبى العباس أحمد بن محمد بن
الشافعى ، وهو من أهل بغداد ، كان فقيهاً متديناً أفق عمه ووالده ، ورجل فاضل
وصورة الأكرام ، وأزواج العباس ، واشتهر على المشافعى ، ولادة العباس والشافعى ، وكان أبوه
من أئمة أئمة الأصول . فوفى أبو طغر له ٥٠٠ هـ الأنساب لشمس ووفى ٢٢٦

(٦) طبقات المفسرين ٢١ . لم أعثر له على ترجمة في كتب التراجم والوفيات .

وقد أخذ الأديب عن أبي علي الحسن بن المظفر النيسابوري^(١)

وجد في تاريخه أنه اجتمع في بغداد بالفقيه الحنفي الإمامي^(٢) والشريف ابن الشجري^(٣) . وقال القفطي^(٤) إن المبحري قدم مليدا ببغداد سنة ٥٣٣ هـ ورأته مرتين عند شيخنا أبي منصور بن الجواليقي^(٥) فقرأ عليه بعض كتب اللغة من فوائدها ومستحيزاً لها .

كذلك نجد في تاريخه أنه قرأ في مكة كتب سيبويه على عبد الله بن طاحفة النيسابوري^(٦) . وإذا صححت رواية القفطي أن المبحري قرأ على الجواليقي بعض

١١٠٠ مجمع الأدباء ١٩/٢٢٧ . وكان الأصل (عن أبي الحسن علي بن المظفر) واسكني سوية من المعجم رقم ١٩١/٩ . والحسن هذا كاتب شاعر مؤلف - كان في عصره مؤيد أهل خوارزم وخرجهم وشاعر قومهم ، وهو شيخ المبحري قبل أبي نصر . وله مؤلفات منها : تهذيب ديوان الأديب ، وتهذيب إصلاح المنطق ، وناس من أسماء الحسن (وهذا يؤكد أن اسمه الحسن) وزيادات أخبار خوارزم ، وديوان شعر ، وديوان رسائل (مجمع الأدباء ٩/١٩٠) (٢) وثبات الأعيان ٣/٣٥٥ . الإماماني يفتح الميم بلد من بلاد قومس ، من علمائنا في الحديث فمضى الفضاة أبو عبد الله محمد بن علي الإماماني ، ولي قضاء بغداد مدة ، وكان إليه القضاء والرياسة والتقدم ، وكان فيها عضواً ، توفي ببغداد سنة ٩٨٠ هـ (الأنساب ووقفة ٢١٦) وكان جلي المذهب ، وقد تآثر المبحري [طبقات الشافعية ٣/١٠٠] .

١٣١ ترجمة الأديب ١٧٠ . ابن الشجري هو عبد الله بن علي أبو سماعات يفتي بدمشق على أبي أبي طالب ، كان فرد زاهداً في العلوم العربية ، وعلم النحو سبعين سنة ، توفي سنة ٥٤٧ هـ ، وله من المؤلفات : الأماني ، والانتصار على ابن الحنفية ، والحاشية على به حاشية في تمامه ، وشرح المعجم لابن حني ، وكتب ما اشرف الفضاة واختلف معناه . وشرح التصريف الملوكي ، وعقبها [مجمع الأدباء ١٩/٢٨٢] .

(٤) بناء الرواة ٣/٢٧٠ .

(٥) هو موهوب بن أبي طاهر أحمد الجواليقي ، كان إماماً في فنون الأدبية ، وهو من طاعن بغداد ، درس الأدب في مدرسة الشافعية عند الخطيب النيسابوري ، وكان في اللغة أمثلاً منه في النحو ، وكان متواضعاً من أهل السنة ، وله حسن التصانيف المفيدة التي انتشرت عنه ، مثل شرح أدب السالكين ، والغريب من السلام الأعمى ، والسمكة في بعض فروع العامة ، أكل به دوة النوازل لبحري ، وله سنة ٥٤٦ هـ ، وتوفي ببغداد سنة ٥٣٩ هـ (وفيات الأعيان ٤/٤٢٥) ومجمع الأدباء ١٩/٢٠٥ . وبقية الرواة ٤٠١ .

(٦) بقية الرواة ٢٨٤ وطبقات القسرين ٣٨ . هو نحوي أصلي عليه توفي سنة ٥١٨ هـ [بقية الرواة ٢٨٥] .

كتب اللغة سنة ٥٥٣٣ هـ يستزيد كانت دليلاً على أنه وهو في السادسة والستين من عمره ، وقبل أن يودع الحياة بخمس سنوات لما ألف أن يجلس الطائفة لتزيد مع أمه بعد موقعة سنة ٥٥١٢ هـ زار بغداد وناظر بها^(١) ، وألف كثيراً من كتبه .

الفصل الثالث

تلاميذه

كان لمجترى صارا إلى الثقافة يتردد على مناهلها * ويرتوي من رجاها
ثم كان له تلاميذ عطاش إلى مهله ، يسرعون إليه في كل بلد حله ، فيستنون
منه ، ويجرون ما استقوه جداول تنعم غلة الناس .

يذكر القفطي^(١) أنه دخل خراسان ، وورد العراق ، وما دخل بلدا
إلا اجتمع الناس عليه ، وتلمذوا له ، واستفادوا منه . ويقول إنه أقام بخوارزم
نحرب إليه أكباد الإبل ، وتخط بفتاته رجال الرجال ، وتهدى باسمه مطايا الآمال .
وبعد كبريات أنه قدم بغداد ، في طريقه إلى الحج فاجتمع الناس حوله
ليسمعوا منه^(٢) .

وهؤلاء التلاميذ كثير ، منهم زخشر أبو عمرو عامر بن الحسن
الساجي ، وطبرستان أبو الحسن إسماعيل بن عبد الله الطويلي ، وبأبيورد
أبو الحسن عبد الرحيم بن عبد الله البرازي ، وبسمرقند أبو سعيد أحمد بن محمود
الشافعي ، وغيرهم^(٣) . ومنهم خوارزم أبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه ،
والوفيق بن أحمد بن أبي سعيد الحروف بأخطل خوارزم ، كان متمكنا في
العربية غزير العلم فقيها أدبيا شاعرا^(٤) ، ومنهم علي بن محمد العمري الخوارزمي ،

(١) إنباه الرواة ٤/٢٦٦

(٢) معجم الأدباء ١٩/١٢٨

(٣) الأنساب لأبي سعيد ٢٧٨

(٤) بنية الرواة ١٠١ : ١ والأنساب ٢٧٨

أبو الحسن الأديب ، الملقب بحجة الأفاضل ونهر المشايخ ، المتوفى حوالى سنة ٥٦٦ هـ ، قرأ الأدب على الزنجشري فصار أكبر أصحابه وأوفهم حفا من غرائب آدابه ، وجعل أيامه فى آخر عمره مقصورة على نشر العلم ، وفتح الناس إليه فى حل المشكلات وشرح المعضلات ، وكان مولعا بالسماع كقولنا ، وهو مع علمه الغزير وفضله الكثير علم فى الدين والصالح ، وكان بذهب مذهب المعتزلة ، وله تصانيف حسان منها : كتاب المواضع والبلدان ، وكتاب تفسير القرآن ، وكتاب اشتقاق الأسماء ^(١) .

وتلمذ له محمد بن أبى القاسم بايجورك ، أبو الفضل البقال الخوارزمى الأديب الملقب زين المشايخ (٥٦٦ هـ) النحوى الأديب ، كان إماما فى الأدب ، وحجة فى لسان العرب ، أخذ اللغة وعلم الإعراب عن أبى القاسم الزنجشري ، وجلس بعده مكانه ، وجمع الحديث منه ومن غيره ، وله من التصانيف : مفتاح التنازل ، وتقويم اللسان فى النحو ، والإعجاب فى الإعراب ، والبداهة فى المعاني والبيان ، وكتاب منازل العرب ، وشرح أسماء الله الحسنى ، وغير ذلك ^(٢) .

وتلمذ له أبو يوسف يعقوب بن على بن محمد بن جعفر البغوى ، أحد الأئمة فى النحو والأدب ، أخذ عنه ولزمه ^(٣) .

ومن تلاميذه على بن عيسى بن حمزة بن وهّاس ، من ولد سليمان بن حسن ابن على بن أبى طالب ، كان شريفا خليلا محامدا من أهل مكة وشرفاتها وأمرائها ، وكان ذا فضل غزير ، وله تصانيف مفيدة ، وقرحة فى النظم والنثر بحيدة ، قرأ على الزنجشري بمكة ، وبرز عليه ، وصرفت أخته طيب العلم إليه ،

(١) معجم الأدباء ٦١/١٥ وبغية الوعاة ٢٥٠

(٢) معجم الأدباء ١٩/٥

(٣) معجم الأدباء ٢٠/٥٥

(نوش ستة أمم وخمسين وخمسة) ^(١) وهو الذي مدحه بأبيات منها :

وكم للامام الفرد غنمى من يد وهاتيك مما قد أطاب وأكثرا ^(٢)

ومنهم زينب بنت الشعرى التي أجازت ابن خلكان ^(٣).

ومن استجازوه محمد بن عبد الملك الباطني الذي ينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب المعروف برشيد الدين النبطي كان أرفع معاصريه في النظم والنثر ، وكان ينشئ في وقت واحد بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر ، ويطلبه سامعا ، وكان شاعر البلاط و كاتب الإنشاء في عهد السلطان الخوارزمي أنس وفي عهد إيل أرسلان وابنه علاء الدين ككش ، وله مصنفات منها حقائق الشعر في دقائق الشعر ^(٤) .
وحيثما كان تسكنه محاورا كتب إليه الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي من الإسكندرية يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته ، فرد عليه بما لا يشفي الغليل ، فلما كان العام الثاني كتب إليه رسالة أخرى مع الخجلاج يستجيزه ، قال في آخرها : « ولا يوجب — أدام الله توفيقه — إلى المراجعة ، فاللغة بمودة . وقد كانته في السنة الماضية ، فلم يوجب بما يشفي الغليل ، وله في ذلك الأجر الجزيل » . فرد عليه الرخصى في تواضع وتهرب من الإجازة ، وقد ذكر ابن خلكان أكثر رسالة الرخصى ، وعقب عليها بقوله : ما أعلم على إجازته ، بعد ذلك أو لا ^(٥) .

وليس من شك في أن التلاميذ كتبهم كانوا أكثره ، وأن قراء مؤلفاته كانوا بقدره ، لأنه كان في عصره كما قال القفطي علامة الأدب ، وسأله

(١) معجم الأدباء ١٤ / ٨٥ ، ولنباه الرواة ٣ / ٢٦٨

(٢) معجم الأدباء ٤ / ٤٠٠

(٣) وفيات الأعيان ١ / ٢٥٧

(٤) معجم الأدباء ١ / ١٠٣ ، ١٩ / ٢٩

(٥) وفيات الأعيان ٤ / ٢٥٦ ، وشذرات الذهب ٤ / ١٢٠ ، ونبية الرواة ٢٨٥

ومعجم الأدباء ١٩ / ١٣٢

العرب . وكان أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه . وأكثرت أسماؤه وإطلاعا على كتبها ، وبه ختم فضلاءهم^(١) . من هؤلاء الأمير شمس الدولة أبو الهيثم مقلد بن عطية البكري ، ختم نظم الملك ، فقد أرسل إليه هذه الأبيات :

هذا أدب فاضل مثل الدراري دُرَّة
زنجشريُّ فاضل أنجب زنجشره
كالبحر إن لم أره فقد أتاني خبره
فرد عليه الزنجشري بقوله :

شعره أنظر شعبي طرفاً فاعتلى منه نبات الجسد
كيف لا يستأسد التبت إذا بات بسقياً بنوء الأسد^(٢)

ومنهج منتجب ملك أبو جعفر محمد أحد كبراء دولة السلطان السجوقى
سجور ، فقد بعث إليه رسالة وقصيدة وهو في مكة ، من قصيدته قوله^(٣) :

إليك يهزنى الحب المطاعُ ويسكرنى لرويتك الزناعُ
فهل لك يا شقيق النفس علم بما أنباتُ عنه وإطلاع
وأنت لكل منقبٍ معانٍ ومن در العزمك ارتضاع
والا كنت جاز الله غنارت تبيريك الأماكن والبتاع
تصير عظام الدنيا فيضحي له في كل ناحية شعاع

(١) إنباء الرواة ٣/ ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٢) إنباء الرواة ٣/ ٢٧١ .

(٣) إنباء الرواة ٣/ ٢٧٢ .

الفصل الرابع

مؤلفاته

نشأ في خوارزم ، وهي إقليم إسلامي كان جيرانه يظلمون إلى امتلاكه ،
 وبدون أن يبدل أهل دينهم ، فهو يقول : « إن خوارزم أقر من تغور
 الإسلام ، قد اكتشف أهل الترك ، وأطاعت به قبائل الترك ، فعزوا أهل
 معهم وأثم ، والقتال بينهم قائم ، قد أحاصروا في ذلك نياتهم ، وأحاصوا
 عن طوبى بهم ، وقد تكفل الله بنصرهم في عامة الأوقات ، ومعهم الغلبة في
 كافة الوقعات ، ثم حصنه الله ببحرهم ، بواد تيسر المعبر ، بعيد المسالك ، عزيز
 الماء ، كبير الممالك ، فلا يتوغل في غل إلا حائط مهيجه ، ولا سلك منافذ
 سالك إلا كن على رأس من سلامته » (١) .

وفد كان هذا أثر عميق في حماسة السكان وحماسة الزمخشري للإسلام ،
 فهم يعارضون على دينهم أن يسه أذى أو عدوان ، وهم أضافوا للدفاع عنه ،
 ولهذا جرد الزمخشري قلمه للكتابة في ميدان اللغة العربية والشريعة الإسلامية .

وكانت النهضة العلمية والأدبية التي بلغت أوجها في القرن الرابع ما تزال
 قوية الدفع ، بعيدة الآثار ، وكانت الدول التي انفصلت من الحكم العربي
 كالدولة السامانية والدولة السلجوقية والدولة الخوارزمية تجد في الأرواح

العلمي والأدبي حياة لها وقوة وشهرة بحسن الاحتواء بين الناس ، فقررت إليها العمل ، وشجعت على التأليف والتأليف كلما سبق في تصوير الحياة الثقافية .

وكان الزمخشري منذ صباه مشغولاً بالدرس والبحث ، وقد امتزج بالعلوم العربية والإسلامية امتزاجاً شغل فيه ، وامتلك فيه وكان أعزب لاتصرفه عن التأليف شواغل الآباء بالأسرة والأبناء .

لهذا كله فرغ فاعلم ، فأنهضت عليه صحائب العلم ، وفتح الثقافة جهده ، فجلالات عليه الثقافة بأوفر نصيب ، وحبس على التأليف نشاطه فكثرت مؤلفاته وتبوعت ، وحللت كثير منها إلى اليوم .

ويتضح من كلامه أنه كان يختص مؤلفاته بإعزازه وحبه ، حتى لقد اتخذ منها أبناء البررة . واستعاض بها عن النسل ، وقضوا على البنين والبنات . لأنها مبرأة من العقوق والمشاكمة ، فقال (١) :

كَيْفَ فَاظْلَمَ بَنَاتُ فُكْرِي	حَتَّاهُمُ أُمَّةُ الدِّرَاسَةِ (٢)
أَبْنَاءُ صَدَقِي لَمْ نَفُوسُ	وَصُفِّينَ بِالْفَضْلِ وَالنَّفَاسِ
ثُجَّاءُ غَرَضِي مَحْصَنُوهُ	فِي كَنْفِ الصَّوْنِ وَالْحَرَامِ
بَرٌّ صَرِيحٌ بِلَا عَقُوقِ	خَلَقَ صَحِيحٌ بِلَا شَكَاةِ
مَا نَبَلُ قَلْبِي كَنْسَلِ صَلْبِي	مَنْ قَاسَ رُودًا لَهُ قِيَاسَهُ
كَمْ بَيْنَ ذِي مَسَالِكٍ طَهْوٍ	وَسَالِكٍ تَسْلُكِ الْخَسَاسِ
مَنْ جَاسَ أَبْنَاءَهُ فَإِنَّ	طُؤْلَاهُ الْبَيْنِ مَسَامِ

(١) ديوان الزمخشري ٢٦ .

(٢) يريد أن أهمم الثقافة هي الدراسة .

وقد ذكر مؤلفاته أكثر الذين ترجموا له^(١)، وسأذكرها مسلوطة في مجموعات، متناسقة ثم أعرض لها بالتفصيل فيما بعد :

(١) في العلوم الدينية ورجالها

١ — الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .
طبع أول مرة بالطبعة البهية المصرية بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ في مجلدين ،
وبهامك كتب (الانتصاف من الكشف) لناصر الدين أحمد
ابن محمد بن منصور الإسكندري المالكي المشهور بابن المنيرة ثم طبع بعد ذلك

٢ — رموس المسائل (في الفقه) غير معروف .

٣ — معجم الحدود (في الفقه) غير معروف .

٤ — المنهاج (في الأصول) غير معروف .

٥ — ضالة الفاشد والرائض في علم الفرائض . غير معروف .

٦ — مختصر الموافقة بين أهل البيت والصعابة . (الأصل لأبي سعيد
الرازي إسماعيل . غير معروف) .

٧ — شقائق النعمان في حقائق النعمان (في مناقب أبي حنيفة) . غير
معروف .

٨ — شائق النعي (أو النعي) من كلام الشافعي . غير معروف .

(١) وفيات الأعيان ٢٥٥/١ ، ومعجم الأدباء ١٣٥/١٥ ، وهدى الذهب ١١٥/١
وفيه الرواة ٣٨٨ ، ووفاء الوفاة ٢٦٠ ، ولسان الزمان ٤١٦ ، وتاريخ آداب اللغة العربية
لجرجي زيدان ٤٨/٣ .

٩ — رسالة في حكمة الشهادة ، وأخرى في نص العشرة ، ذكرهما جرجي زيدان ، وقال إنهما مخطوطان في برلين .

(٢) في اللغة

١٠ — أساس البلاغة

طبع في مجلدين مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م .

١١ — الفائق في غريب الحديث .

طبع في حيدر آباد في مجلدين سنة ١٣١٤ . وطبع في ثلاثة مجلدات بمطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، بتحقيق الأستاذين علي المجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم من سنة ١٣٦٤ هـ - ١٣٦٧ هـ (١٩٤٤ - ١٩٤٨ م) .

١٢ — الجبال والأمكنة والمياه .

طبع في لندن سنة ١٨٨٥ م في مجلد واحد عند صفحائه ١٦٩ . مضافاً إليها فهرس في ٣٢ صفحة وترجمة إلى اللاتينية في ٣١ صفحة .

١٣ — أسجب العجب في شرح لامية العرب .

طبع الطبعة الأولى بمطبعة الجوائب بالقسطنطينية وطبع الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ في ٦٦ صفحة من القطع المتوسط .

١٤ — شرح مقامات الزمخشري .

طبع الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٣١٢ هـ ، والطبعة الثانية بمطبعة النوفلي بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ في ٢٣٨ صفحة من القطع المتوسط .

١٥ — المستقصى في أمثال العرب .

يحتوي على ٢٤٦١ مثلاً ، طبع الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدير الهند سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ م في مجلدين كبيرين .

١٦ — خواهر اللغة ، غير معروف .

وجاء في أسماء مؤلفاته كتاب الأسماء ، وأرجح أنه جزء من مقدمة الأدب ، لأن القسم الأول في الأنباء ، والقسم الرابع في تصريف الأسماء .

١٧ — مشابه أسامي الرواة . غير معروف . ولعله المقصود بقول ابن حجر العسقلاني رأيت له مصنفا في المشبه في مجلد واحد وفيه فوائد جلية .

١٨ — صميم العربية . غير معروف .

١٩ — معجم عربي فارسي . نشره فخر شتابن . ليبرز سنة ١٨٤٣^(١) .

(٣) في النجوم

٢٠ — المفضل .

ترجم إلى الألمانية وطبع سنة ١٨٧٣ ، وطبع في كورستان سنة ١٨٧٩ م ، وطبع مع شرح موفق الدين بعيش بن علي بن بعيش في نيساب سنة ١٨٨٢ م ، وبإدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة في عشرة أجزاء .

٢١ — النموذج .

وهو مقتضب من المفضل . طبع أول مرة بطبعة الجوالب بالقسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ في ٢٣ صفحة ملحقاً بكتاب (لزجة الطرف في علم الصرف) لأبي الفضل أحمد بن محمد ليداني . وبعده كتاب (قواعد الإعراب) لجمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن هشام ، وطبع بقصر سنة ١٢٩٨ هـ .

٢٢ — شرح أبيات كتاب منبويه .

غير معروف . وليس شرحاً لكتاب منبويه كما في بعض المراجع ، لأن الزمخشري نفسه ذكر اسم كتابه كذلك^(٢) .

٢٣ — الحاجة بالمسائل النحوية أو الأحاجي النحوية .

(١) تاريخ الأدب في إيران ٤٥٩ .

(٢) ديوان الزمخشري ٢٣ .

مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٢٨ ش نحو ١١٦٠ مجاميع . وعرف في ٢٧ ورقة في مخطوطة الشنقيطي و ٢٥ في المجاميع .

وهذا الكتاب أنماز وماتل نحويفة بقصد بها المعاينة والأفأكيه .

٢٤ — مقدمة الأدب .

أكثره في النجوى ، طبع القسم الأول والثاني منه في مجلد واحد في مطبعة ليبسيك سنة ١٨٤٣ م وطبع الباقي سنة ١٨٥٠ م ، ودار الكتب القسم الثاني والثالث والرابع والخامس في مخطوط ٢٧٢ لغة في ٢٢٠ ورقة (٥٥٠ صفحة) وبين سطور القسمين الأول والثاني ترجمة فارسية للكتاب .

٢٥ — نكت الأعراب في غريب الإعراب (في غريب إعراب القرآن) غير معروف .

٢٦ — الأمل في النجوى . غير معروف .

٢٧ — المفرد والمركب أو المؤلف . غير معروف .

٢٨ — شرح بعض مشكلات المفصل . غير معروف .

(٤) في العروض

٢٩ — القسطاس . ذكره خرجي زيدان أنه مخطوط في برلين وليدن .

(٥) في الأدب

٣٠ — نوايع الكلم .

حكم قصار متواليه ، طبعت الطبعة الأولى مصر سنة ١٣٣٧ هـ (١٩١٤ م) في ٥٠ صفحة من القطع الصغير ، وطبعت طبعة أخرى مصر سنة ١٩٢٧ م وطبعت في باريس مع ترجمة إلى الفرنسية سنة ١٨٧٦ م بتحقيق من كاريير مينارد ، وطبعت في إستانبول في بيروت .

٣١ — مقدمات الزمخشري .

تتمون مقامة في التصحيح والإرشاد ، موجهة كلها إلى نفسه ، ولكل منها عنوان . وقد شرحها بتمامه ، وطبعت مع ترجمته هذا ، رقم ١٤ في مؤلفاته [

٣٢ — أطواق الذهب .

ثمة مقالة في التواعظ والنصائح والحكم ومكارم الأخلاق ، كل منها في بضعة أسطر ، وأبست معنوقه ترجم إلى الألمانية ، وطبع مع الأصل في فيينا سنة ١٨٣٥ م وفي سنجارت سنة ١٨٦٣ م ، وترجم إلى الفرنسية وطبع في باريس سنة ١٨٧٦ م . وطبع شرح الشيخ يوسف أفندي الأسير ، الطبعة الثالثة ببغروت سنة ١٣١٤ هـ في ١١٢ صفحة من القطع المتوسط ، وطبع بشرح النجاشي يوسف خان بن اعتصام الملك بعنوان (قلائد الأدب في شرح أطواق الذهب) بطبعة المدين بصرى في ١٥٤ صفحة من القطع المتوسط سنة ١٣٢١ هـ

٣٣ — ديوان الزمخشري .

مخطوط بدار الكتب رقم ٢٩ = أدب في ١١٩ ورقة (٢٣٨ صفحة) من القطع الكبير .

٣٤ — القصيدة البعوضية وأخرى في مسائل الغزالي . مخطوط في ترين .

٣٥ — ربيع الأبرار ونصوص الأخيار .

مختارات شتى من الأدب والتاريخ والعلم ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٥ = أدب في ٤٠٢ ورقة (٨٠٤ صفحة) ، وله مختصرات كثيرة ، وطبع بالقاهرة .

٣٦ — النصائح الصغار والبوالغ الكبير .

ذكر بعض مؤرخى الزمخشري أن له كتابين أحدهما النصائح الكبير ،
وقال جرجى زيدان إنه مطبوع بالقاهرة ، والآخر النصائح الصغار ،
وقال جرجى زيدان إنه مخطوط فى برلين وفى الصحف البريطانية .

والكى وجدت الكتاب بهذا الاسم (النصائح الصغار والبوالغ
الكبير) مخطوطاً بدار الكتب بالقاهرة رقم ١٣٥٧٨ من معنوايق
الكلم ، فى ١٦ ورقة ، وفى نهاية الكتاب فصل به ستة حكمة للإمام
على بن أبى طالب .

٣٧ — نزهة المستأبس . مخطوط فى أيا صوفيا

٣٨ — ديوان الرسائل . غير معروف

٣٩ — ديوان خطب . غير معروف

٤٠ — ديوان التمثيل . غير معروف

٤١ — تسلية الضريح . غير معروف

٤٢ — رسالة الأسرار . غير معروف

٤٣ — الرسالة الناصحة . غير معروف

٤٤ — سوائر الأمتال . غير معروف

٤٥ — رسالة المسامة . غير معروف

(٦)

٤٦ — عقول السكل . غير معروف

٤٧ — كتاب الأجناس . غير معروف

وربما كان الكتابان الأخيران فى المنطق .

الفصل الخامس

معالم شخصيته

نطلق الشخصية على مجموعة الصفات الجسمية والعقائدية والخلقية التي يتصف بها الإنسان ، سواء أكانت حسنة أم قبيحة .

وكثيرا ما يتميز إنسان من غيرد بالطابع العام لهذه الصفات .

وهذه الشخصية لها مصدران : الفطرة ، والتربية ، فهي إذن موهوبة ومكتسبة ، ولكن الفطرية أقوى .

وليس معنى هذا أن بعض من أثر التربية ، لأنها لو اعتدنا على الهبات الفطرية وحدها لصرنا ضحايا الظروف ، ولفقدت التربية آثارها في بناء العضد . من رجال العلم والأدب والدين والفن .

ولهذه الشخصية عناصر أساسية تقوم عليها : منها الذكاء ، والجاذبية ، والشاركة الوجدانية ، والشجاعة ، والحكمة ، والتفاؤل ، والتواضع ، وقوة اليأس ، والثقة بالنفس والاعتماد عليها ، واعتدال المزاج ، والمظهر العام للجسم وحسن الهمد (١) .

فهل نستطيع تصور الرجل على حقيقته ، ونكشف عن معالم شخصيته ، فيقبن منها الحمود وغير الحمود ؟ لأنه إنسان تعاقب قوته ضعفه آت ، وبغالب ضعفه قوته آت آخر ، ولأنه من الخطأ أن يشكف مؤرخ لشخص أن بضئ

عليه هالة من الجلال والكمال ، فهذا اعترافه عيب تعاطي عنه ، أو تلمس لعدوانه قائما على الفعل ومجاداة الحق ، فإن هذا نهج متحيز ينكوه البحث العلمي المتصف .

فلنتقل الآن إلى إبراز المعالم العامة التي يعرفها من شخصية الزحشري .

(١) صفاته الجسدية

لم أجد فيما كتب عنه شيئا يثبت إلى صفاته الجسدية من قرب ولا من بعد ، لأن كتاب التراجم القديما ، كما هو كثيرا ما يتجاوزون هذه الأوصاف ، إذ كانت في نظرهم غير وثيقة الصلة بالشخصية التي يترجمون لها .

والشيء الوحيد الذي عرّض له كثير من مؤرخيه أنه كان أعرج يشي في رجل من خشب ، لأن رجلا قطعت في سفرة من أسفاره كما سيجي .

ولعل قصد منه بقوله « كما رأيت من أعرج » في درج العالي أعرج ، ومن صريح القدم ، ليس له في الأخير قدم ^(١) .

(٢) شغفه بالثقافة

كان الزحشري ذكيا وشاعريا بالثقافة ، نبشّر تخالفا يستقبل واحد حتى لقد أعجب أستاذه أبو مضر بذلك وجده ، فتمهده برعايته وتوجيهه ، وساعده بماله مؤملا أن يخلقه .

وكانت بيته الخاصة والعامة مذكية لهذا الشغف . فدرس في زمخشري أول ما درس ، ثم شخص إلى بخاري ليكمل من مناهلها ، ثم رار بغداد والشام ومكة .

(١) نوابغ الكلام ١٤ أعرج الثانية : أرى أنه مد .

وسمع من بعض العلماء ، وقرأ كثيراً من الكتب ، وبلغ من كفاه بالثقافة أنه وهو في السادسة والستين - كما ذكر القفطي ^(١) - قرأ بعض كتب اللغة على أبي منصور الجواليقي مستجيزاً لها .

ومن السهل أن نعرف من أسماء أساندهم من مؤلفاته أنه درس اللغة والنحو ، والعروض ، والأدب ، والملاحة ، والتفسير ، والقراءات ، والحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والمنطق ، دراسة للتفوق المتعمق ، ولهذا اعتمد بدراساته ومؤلفاته ، واقتصر بها في قوله ^(٢) :

تراني في علم المنزل عالماً	وما أنا في علم الأحاديث راسماً
فلسفة البيضاء في مناجيح	ويبقى كتاب الله في المعارف
وما أنا من علم الديانات عاطلاً	فأحسن حتى لم يزل لي شافلاً
وما للغات العرب ينلي مقوم	أبي كل نذب متقن أن يخالفها
ولي يستفيد النحو من أن يسوسه	كسبي لم يجد لها الدائمون حصاصاً
وعلم المعاني والبيان كلاهما	أزف إلى الخطاب منه وصايا
وعلم القوافي والأعاريف شاهد	بفسحة خطوى فيه إذ كنت راحلاً
أحرمت في الآداب أصلاً لها ومن	رأى مشرفيات جعدن المشارفا
ودوان منظومي يربك بدائعاً	وديان منشوري يربك طرائفا

ويظهر من مؤلفاته أنه لم يستوعب أكثر ثقافة عصره ، فحسب ، بل ساهم في حقولها بشجرات شبيهات الثمرات ، وقد سبقت هذه المؤلفات التي نستطيع منها تقسيم ثقافته إلى عدة مناح : فإحاطة دينية تتمثل في تفسيره (الكشاف) بما

(١) إنباء الرواة ٣/ ٢٧٠ .

(٢) ديوان الينحسري ٧٨ .

تضمن من مسائل شتى منها علم الكلام ، والفقه ، ونشمل في مؤلفاته التسعة ، وجانب لغوي تمثل مؤلفاته العشرة ، واتجاه أدبي يتضح في كتيبه السبعة عشر ، وإحاطة بالنحو تنبئ عنها تسعة كتب ، ومساهمة في العروض بكتاب واحد ، وكتابان لم يصلنا إلينا ، ولم نستطع معرفة موضوعهما . لعلمهما أو اقل أحدهما في المطلق .

على أنه كان يقن اللغة الفارسية ، فقد ألف معجما بالفارسية والعربية طبع في ليزج سنة ١٨٤٣ م كما أن القسم الأول والثاني من كتابه (مقدمة الأدب) وهما في الأسماء والأفعال باللغة العربية واللغة الفارسية

وهذه الكتب السبعة والأربعون التي منها الكبير ومنها الصغير خير شاهد بالصدق على أن الزمخشري كان متنوع الثقافة ، وأنه وهب الدين والعلم واللغة والأدب جهوده وحياته ، هبة البازل الكف الراغب في مضاعفة البذل والسخاء .

على أنه لم يكن مثل بعض المؤاين جماعا للمعارف ، لاجهد له إلا التنسيق أو الاختيار ، بل كان حر الفكر ، وكان صاحب كثير من الآراء المبتكرة . كما سيتجلى من تحليل كتيبه .

وكان إلى ذكائه وسعة اطلاعه قوى الحجة ، تدبرا على استنباط المعاني ، بارعا في الجدل ، حتى لقد طبق نفسه ونأوى بالقرآن الكريم على مذهب المعتزلة تطبيقا لم يسبق إليه على هذه الصورة الكاملة ، ولم يحى بعده من صنع صنعه .

(٣) اغتراله

كانت حوزم — كما سبق — تتوج بالاعتزال ، وتعج بالمعتزلة . وقد ولد الزمخشري بها ، ونشأ في ربوعها ، ودرس دراسته الأولى على علماءها ، وكان

« أبو مضر » أحب استأذنه إلى قلبه ، وأعظمهم تأثيراً في عقله ، وهو معتزلي كما تقدم .

وكان الرنخشري بطبعه كفاً بحرية الرأي ، ميالاً إلى عطف الفكر وتقليب وجهات النظر ، وإلى المناقشة والجدال ، فهو يقول (١) :

« لا نقتنع بالرواية عن فلان وفلان ، وامنش في دينك تحت راية السلطان (٢) ،
فما الأسد المحتجب في عرينه أغز من الرجل المحتج على قرينه ، وما العنز الجرباء
تحت الشمال الباهل أذل من النمل بين يدي صاحب الدليل ، وجامع الروايات
الحوية ، ولا حجة عنده مقوية ، أو قرظ طهره بالحطب ، واعتقل زنده بلا سبب .
لم أر فرساً دحان مثل الحق والبرهان ، لله درهما متخاصمين ، ولا غديهما
متناصرين . من شد يدني بفروهما فقد اعتز بعروهما ، ومن زل عنهما فهو من
الدلة أذل ، ومن القلة أقل » (٣) .

لهذا كان الرنخشري بالاعتزال ، وناجح عنه ، وعليق على مذهب المعتزلة
تأويله للقرآن الكريم — كاسيجي — وكان يجد راحة نفس في إعلان مذهبه ،
حتى نقل عنه أنه إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول قال لمن يأخذ له
الإذن : قل له : أبو القاسم المعتزلي بالباب (٤) .

وذكر ابن خلكان أن الرنخشري لما كتب التفسير قال في افتتاح الخطبة
« الحمد لله الذي خلق القرآن » فقيل له : إن تركته على هذه الهيئة حجرة الناس ،
ولم يرغب فيه أحد ، فغضب بقوله : « الحمد لله الذي جعل القرآن » لأن جعل

(١) أملاوي الذهب ٧١ .

(٢) السلطان : المراد العلي .

(٣) فلائذ الأدب في شرح أطواق الذهب ٧١ .

(٤) وفيات الأعيان ٢٥٥/٢ ، وشذرات الذهب ١٢٠/٤ .

حدد للعبارة معنى خلق . ورأيت كثيراً من النسخ فيها « الحمد لله الذى أنزل القرآن » وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف ^(١) .

والنسخ المطبوعة تبدأ بهذا التعبير الذى ذكر ابن حبان أنه من إصلاح الناس « الحمد لله الذى أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً ، وزيادته بحسب المصالح منجهاً ، وجعله بالتحميد مفتتحاً ، وبالأستعاذة مختتماً » ^(٢) .

وأرجح أن هذه دعوى لا صحة لها ، لأن الرخصى لم يكن ليفر من التعبير بأنزل وهو يعلم أن القرآن الكريم يرد هذا التعبير فى كثير من سورته ، مثل قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات » ^(٣) . وقوله : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمت ما لم تكن تعلم » ^(٤) . وقوله : « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس » ^(٥) .

وقد عني الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط هذه الدعوى فقال فيها كتبه على خطبة الكشف : قال بعض الطلبة ، وأجبت بعض المعتنين بالكشف فى تعليق له عليه : إنه كان فى الأصل كتب (خلق) مكان (أنزل) ، وأخيراً غيره المصنف أو غيره حذراً عن الشناعة الواضحة .

وهذا قول ساقط جداً ، وقد عرضته على أستاذى فأنكره غاية الإنكار ، وأشار إلى أن هذا القول يتعزل عن الصواب لوجهين :

(١) وثبات الأعيان ٢٥٥/٤ .

(٢) الكشف ٤/١ .

(٣) سورة العنكبوت : ٧ .

(٤) سورة النساء ١١٣ .

(٥) سورة الأنعام ٩١ .

أحدنا : أن لم نحشري لم يكن أهلاً لأن تقوته اللطائف المذكورة في أنزل
وفي نزل في مفتوح كلامه ، ووضع كلمة خالية من ذلك .

والثاني : أنه لم يكن يألف من انجائه إلى الاعتزال ، وإنما كان يفتخر
بذلك ، وأيضاً أتى عقبيه بما هو صريح في المعنى - إذ قال : أنشأ كتاباً ساطعاً
بنيانه^(١) - ولم يبال بأنه قبيح .

وقد رأيت النسخة التي بخط يده بتدقيق السلام مختبئة في تربة الإمام أبي
حنيفة ، خالية من أثر كشط وإصلاح^(٢) .

(٤) عزة نفسه

لقد كان إلى تقواه وتواضعه إلى النفس ، يألف من الضيم ، ويؤثر الفرية
على الإقامة في وطنه إن لم يقبوا المسكن الملائق به ، فيرحل إلى حيث يستمتع
بالسكريم ، ويشعر بالاعتزاز .

وقد سبق في حياته أنه مدح نظام الملك وشكا إليه ، ونوه بعلمه وأدبه ،
وجعلها قرابة وشيجة بينه وبين الوزير الكبير ، ولم يكتف بهذا ، بل عرض
بتقصير الوزير في رغبته ، وحتم القصيدة بالاعتداد المقرون بتحدى نظام الملك
أن يجد له نظيراً في جميع من يرى ، ثم هدده بالرحيل عن خوارزم كلها إذا لم
يسمعه بما يريد ، وولاه على أنه ضيع آماله ، على حين أن من هم دونه ظفروا
بما لم يظفروا به :

وما حق مني أن يكون مضيقاً وقد عظمتم عند الوزير وسائلي

(١) في التقدمة : أنشأ كتاباً ساطعاً بنيانه ، فاطماً برعائه .

(٢) كشف الظنون ٣١٥/٢ .

وأعظمها إلى نيب رصابه إذا عرّضت أنساب هدى القماش
فكل أمرى آفاته عدد الحصى وهات نظيرى فى جميع الخافى
لئن كان أمرى فى خوارزم ما أرى فإن رحالى فى ظهور الرواحل^(١)

فما صوح أمده اغتزم ارحيل من خوارزم على كره منه : لأن البلد الذى
يكفل له الكرامة والتقدير خير له من وطنه الجاحد :

حَبَّ بلاد الله شرقاً ومغرباً إلى التى فيها غديت ولیداً
ولكن تولّى بالكرامة غيرها وهذى أرى فيها الهوان عتيداً^(٢)

ولم يلبث بعد تطوافه بخراسان وأصفهان أن مرض مرضاً سماه ناهكاً ومنذراه
فعاذه الله أنه إن برى فلن يتصل بساطان ولا يتابع من أتباع سلطان ، وأن
يهب العلم والتأليف جهده ووقته .

وهنا قد يخطر هذا السؤال : كيف سولت الخمشرى نفسه أن يتضح
السلطين والوزراء ويشكو حالته ، ويجهر بمطالبه ؟

وجواب ذلك أنه — كما صور حاله — فقير ، وهو إلى فقره عالم أدب ذكى .
غاب عليه فى شبابه الطموح إلى الشهرة ، والبروز إلى الثراء ، والتطلع إلى الجاه ،
وكان يرى أنه أجدر بالرعاية من كسعين بهم الدولة ، وتكل إليهم شئونها ، أو
تدبيرهم وترعاهم بوسائل شتى ، وبخاصة قبل أن تتقدم به السن ، ويقف عليه
الزهد فى مباحج الحياة .

ولقد رأى النال فى عصره بأيدي السلطين والمنهزين ، وفى حوزة الذين

(١) ديوان الخمشرى ٩٥ .

(٢) الديوان ٣٧ .

وأنهم لخط بالنصب والسلطان ، ورأى الجاه حكمة لمقرين إلى الحكم ،
والتزلفين إلى ذوي الجاه ،

وما من شك في أنه كان يوازن بين شقائه وسعادتهم ، وبين علمه وجهل
كثير منهم ، وبين كفايته وعجز الآخرين .

وهذه التوارثات شوقته إلى المال وإلى الجاه ، فطامع في هبات السلاطين
والوزراء على عادة كثير من العلماء والأدباء في ذلك العصر وفيما قبله وبعده .

وستأتي في دراسة شعره موانة بينه وبين بعض الشعراء في الطلب الصريح ،
على أن عزيمته كانت تتجلى في مداخله وشكواه ، فلا يفتأ بنوه بعامه ،
وأيديهم بكفايته ، ويعتمد نفسه صاحب جهل يستحق التقدير ، وصاحب حق على
الدولة بل على أن تقوم به وتزده .

وبما ليعزز هذا ما سبق في التعريف بنظام تلك وزارة السلاجقة من حذب
على العلماء ، وتشجيع للأكفاء .

ويبدو لي أن الزمخشري شبه سلفه أبي حيان التوحيدي (المتوفى سنة ٥١٨هـ)
في أن كليهما سبق عصره بما أسماه اليوم (منحة التفرغ) ، وهي فكرة كانت
بعيدة عن الأذهان في عصرهما ، ولم تعرف إلا منذ سنوات .

ذلك أن الدولة تكفل اليوم لكثير من أصحاب النواصب أرواقهم زمناً
معيناً ، ليقروا لعمل أدبي أو فني أو علمي ، لأنه ليس أثقل للشغف بالإنتاج
من زحمة الوقت بالعمل لكسب الرزق .

والدولة إذ تحتضن اليوم أناساً بمنحة التفرغ لا تنوحى إلا ما يعود على الوطن
كله بالخيرات ، لأن هؤلاء التفرغين لا يختصون فرداً أو جماعة بما يعود به
قرائحهم من ثروات .

(٥) بين الطموح والقناعة

١ - ما زال الزنجشیری إلى الخامسة والأربعين من عمره ، توافيا إلى المنصب ، مشافعا إلى لذل ، متعلقا بالشهرة ، يعتقد أن علمه وأدبه وكفايته هي الوسائل إلى خلفه بما يأمل .

وأغلب الظن أن مراد هذا إلى المناصب التي علاؤوها بين علماء العصر وأدبائه ، فكل منهم يُرعى بما قال من جاه وأحز من منصب ، وإلى أن الزنجشیری كان في هذه السن يستجيب لأمله ولا يكبحها ، وكان يبغي من الوظيفة والمال والجاه العلمانية التي تكفل له التفرغ إلى العلم والأدب ، إذ كان فقيرا أرعاه جماله أستاذه أبو مضر ، كما تحدث هو بذلك ^(١) . وطنا شكنا التفرغ في قصائده ، وكاشف به نظام المالك مكشفة المعتد بنفسه وعلمه الذي لا يجد في التفرغ عابا ، لأنه ليس من صنعه ، كقوليه لنظام المالك ^(٢) :

غنى من الأدب لكنني إذا نظرت فما في الكف غير الأنامل
وقوله ^(٣) :

أشكو الزمان ولا أرى لي مشكيا	من يرى شمس ورقه حالي
يا حسرت من لي بصقة راح	في متجرجر والفضل رأس المال
يا ويح أهل العلم كيف تأخروا	والسبق كل سبق للجهال
في ذمة الأيام لي دين متى	استأخذه لأقبت طول مطال
فإلى إلهي المشككي وبصنعه	درب الأمم منوطه آتالي

(١) الديوان ٩١

(٢) الديوان ٩٤

(٣) الديوان ٩٥

وكثيراً ما نود بعمه وقضيه في مدائمه وشكواه قبل أن يتخطى الخليفة
والأربعين من عمره ، كقوله في قصيدة مدح بها نظام الملك ^(١) :

ومما شجاني أرب غمر مناقبي تغنى بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي وسارت مير الثورات رسائلي
ولي في دقيق النحو والنقد منطق إذا قلته لم أبق قولاً تقال
وقوله لجير الدولة ^(٢) :

فمن مبلغ عني الوزير بأني كفيل بغادر من شاه ورايح
فليت رجائي ألقبت بنفسه فأرتع في معاليه غير نازح
ويقدح زلفاً وارهاً من مناقبي إذا صدقت كل الزناد لقادح
وفي شرح أبيات الكتاب ^(٣) لبعض ما
وأثودجاً ^(٤) ألفدت منه بضمه
ولعله اقتدى في غره بالمتنبى حيث يقول ^(٥) :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مقرداً
وحيث يقول ^(٦) :

أنا الذي نظر الأعوس إلى أدبي وأسمعت كلاني من به تميم
أنام من جفوني عن تواردها ويسهر الخلق جرها ويحتشم

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٢٣

(٣) بقصد شرحه الكتاب مدح به

(٤) بقصد كتابه الأعرادج في النحو

(٥) ديوان المتنبى ١/١٩٢

(٦) ديوان المتنبى ٢/٢٦١

والمرحومى بقرن ثلثه هذا بسخرته من الحياة ، التى لم تنوله ما أولت
سواء ، وسخطه على الزمن الذى كثر عليه ، وسخا على الذين هم دونه فضلا
وعاماً وكفاية ، كقوله (١) :

حاجلى على تحدى على فضالى	إدا أنا لم أرفع على كل جاهل ؛
من المين ذو نقص يصيب فضالى	أخو الفضل محقوف ب تلك الفضائل
كذا الدهر كسوهاه فى الخلى جندها	وكم جيد حسناء الثقلى عطل
فيا ليتنى أصبحت مستغنياً ولم	أكن خورزم ورأس الأفاضل
ويا ليتنى مرض صديق وسخط	عدوى وأنى فى فهاهسة باقل
فليست بفضلى بالغاً ولو انى	كفست بإباد أو كحبان وائل

وفى هذه المرحلة من حياته كان يُقرع معاصره ، ويقسو على مواظبه ،
ويصفهم بالذم والغبى ، كقوله فى مدح أحمد بن محمد بن على (٢) :

لولاك وابن الفضل لم ألت فاطمة	فى بلدة جارت على أمشالى
فى أرض خورزم كريم واحد	ودع اللسام فيهم غديد رمال
وإذا وجدت الربيع أضمح أهلاً	بسوى الكرام فذاك ربع نخالى

وقوله فى مدح نظام الملك (٣) :

لئن كان أهرى فى حوارزم ما أرى	فمن رحالى فى ظهور الرواحل
-------------------------------	---------------------------

وقوله فى قصيدة لصدر الملك الوزير (٤) يدافع عن نفسه ويبرر رجليه من خوارزم :

وترحلتا ليس اعترايا وإما	إفتمها فى النافعين اعترايا
--------------------------	----------------------------

(١) الديوان ٩٤

(٢) الديوان ٦٥

(٣) الديوان ٩٤

(٤) الديوان ١٢

وانستطيع أن تكشف عن نفسه بعد ذلك أنه كان يهتس إلى الله .
 وفرع الصيت ، ووصفه بالتفوق في اللغة والنحو والبلاغة والعروض والشعر
 والنثر والعلوم الشرعية ، مثل قوله في مقامة العمل ^(٩) :

يا أيها القاسم لا تسمع لقولهم : فضل مبین ، وأدب متین ، واسم في
 تمهارة بهما مشهور ، وصيت في إقامتهما جدير ، وفني طينان ^(١٠) من الناقص
 والرفائل ، ريان من المناقب والفضائل ، إن ذكرنا من اللغة خلت من
 أحلامه ^(١١) ، أو قينسها ^(١٢) فانسأ أفراسه ، أو النحو فهو سيوية وكنائه ،
 يعلق عند تراجمه وأبوابه ، فن مساجله ومساويه ^(١٣) ، ومنزله ومعانيه ، ومن
 بغوص على معان كعابيه ، أو نقد الكلام فالتفتة إليه كأنهم التقه ^(١٤) ، وقد
 عاث فيه الذئب الأعقد ^(١٥) ، أو العروض طان بجذمتها ^(١٦) ، وحلالع أنجدها ،
 أو التوافي فإبداعه فيها بقطعات ثمرات الغراب ^(١٧) ، وإغرابه فيها بنحو القرب
 في وجود أهل الإغراب ، أو الشعر فزياده ^(١٨) وحسانه ، وإحسانه كما دجج
 العروض نيسانه ^(١٩) ، أو النثر . . . أو معرفة الكتابة والخط فقد لجج ^(٢٠)

(١) المقامات ٩٨ .

(٢) طينان من الناقص : مجاز عن خلوه منها ونزاهته .

(٣) فارس من فرسانه من قولهم لا مرف يركوب الخيل العاود له هو من أحاسن الخيل
 شبه في أبنائه على متن الفرس بالجلس الذي يجلس به .

(٤) أراء خيانت اللغة علم الاشتغال ، ويسمى علم القفاييم والألفية علم التصريف الذي
 هو أدنى شئ من النحو وأعمهما ، ولا يمكن حقه أن يقدم ، لأن علم قوافي الكلام مقدم على
 علم أصولها .

(٥) المساجل : المازي في نسبي من السجل وهو الدلو ، الساق : مثله من السارية .

(٦) التقيّد : جنس قبيح من الغم .

(٧) الأعقد : المتأخر الدائب .

(٨) يقال للدليل المظهر هو أن يجدها وهو من يجد بالسهل إذا فهم به .

(٩) ثمر الغراب مثل في الطيب المتبق لأنه لا يأكل من الثمر إلا أعلاه وآتيه .

(١٠) زياد : النافعة الذبيات .

(١١) نيسانه : المراد الربيع .

(١٢) لجج : خاض اللج .

وترك الناس على الشط ، أو حفظ ما يحضر به فضيلاً بفيض وحر لا يفيض ،
وليس بغيران كعود النبع من ثمر علوم الشرع » .

٢ — لكن الزمخشري يشي ، أو قاربه اليأس ، في الوقت الذي مرض
فيه مرضاً ظله قاضياً سنة ٥١٢ هـ ، فبحر بما لم يكن يبصر به من قبل ، وعلم
أن المنصب حيلة الخامل ، وأن المال ظل زائل ، فقدم على ما أفتق من عمره
في طلبهما ، وقصر على الإلتجاع العلمي والأدبي جهوده ، وجعله وسيلة وغاية .

وحينئذ بدأت مرحلة القناعة والرضا ، وجعل الزمخشري يرد نصائح هي
أقرب ما يكون إلى الزهد والتصوف ، حتى لقد سمي بعض مقدماته مقامة
القناعة ، وسمى أخرى مقامة الزهد ، وسمى ثالثاً مقامة العزلة ، وسمى رابعاً
مقامة الخمول ، وفي هذه المقامة يقول ^(١) : « وأبأ القاسم ، وأسقى على
ما أمضيت من عمرك ، في حباب أن يشاد بكرك ، ويشار إليك بأصابع بني
عصرك ، عانيت على ذلك طويلاً ، فما أغنيت عنك فتيلاً ^(٢) . وما أدراك
يا غافل ما الكامل ؟ الكامل هو العامل الخامل ، الذي هو عند الناس
مكور ، وهو عند الله مذكور » .

وقال في مقدمته : « اللهم إني أحمذك ... فككت من ورق التمتع عتقي »
ومنت ، بخل إساري وعتقي ، ورقيتني إلى رتبة القناعة وهي الرتبة العليا ، وزهدتني
في الخرص على زخارف الدنيا »

وقال : ^(٣) « آثر الخمول على النباهة ، وأسحب الستر على الوجهة ، تعش
أنجي من أخطار الخن ، وأدأني من إضمار الإحن ، وإن ذا الشرف محسود »

(١) مقدمات الزمخشري ١٧١ .

(٢) القليل : ما في شق النواة من الشعرة .

(٣) فلاذ الأدب في شرح أمثاق الذهب ٢١ ، وأطواق الذهب ١٤ .

أو حاسد ، محقود عليه أو حافد . وذلك لأنه يتقلب تحتها الأحشاء ، ويصعل
الله فيها ما يشاء »

وقال في مقامة القناعة^(١) :

« يا أيها القاسم انقع^(٢) من القناعة^(٣) لا من القنوع ، تسفن عن كل معطاء
ومندوع ، لا تخفق أديم وجهك إلا عند من خافه وحقق ، ولا تسفرق إلا من
رزقه وإن شاء رزقت . القناعة مملكة تحتمها كل مملكة ، لا سبيل عليها للمملكة ،
لا يتوقع صاحبها أن يفقر بعد غنائه ، ولا يقع النقاد في كبره وعظمته » .

(٦) تدينه

هذا العلامة البصير بعظمة الإسلام ، الخبير بخصائصه ، الغيور على حماه ،
انسارع إلى إحباط ما قد بوجه إليه من أباطيل السكينة والشبهات ، لم يكن
يصدر في هذا كله عن علمه وحده ، ولا عن عقله وحده ، بل كان يتخذ عدته من
علمه وفكره ووجدانه العميق وتدينه الراسخ ، حتى إن بعض مؤرخيه لم يجدوا
في تدينه مفعراً إلا الاعتزال ، فقال ابن حجر العسقلاني إنه صالح لكنه داعية
إلى الاعتزال^(٤) .

ولاشك أن يتيه العلامة ويشتبه الخاصة كل لها أثر عظيم في هذا الدين
فأما البيئة العامة فتمثلها مدارس الحديث الكثيرة التي أنشأها نظام الملك ،

(١) المقامات ٥٨ .

(٢) انقع يكون أمراً من قنع فنع بمعنى رضى رضى وزناً ومعنى ويكون من قنع فنع
بمعنى سأل يسأل وزناً ومعنى .

(٣) القناعة : الرضى بالنسب .

(٤) لسان الميزان ٤/٦ .

ومشيت بحذاء التي كان يمسرها القراء والفقهاء وأهل الخير والصلاح ، وكان نظام
الملك إذا دخل عليه الإمام أبو القاسم القشيري والإمام أبو العباس الجويني يقوم
لها ، ويجلس في مكانه كما هو ، وإذا دخل عليه أبو علي الفارسي يقوم إليه
ويجلس في مكانه ، ويجلس بين يديه . فقبل له في ذلك ، فقال : إن هذين
وأما لهما إذا دخلوا عليّ يقولون لي : أنت كذا وكذا يتنون على بما ليس في ،
فيزيدني كلامهم عجب ونسبا ، وهذا الشيخ يذكرني عيوب نفسي وما أنا فيه
من الغل ، فتكسر نفسي لذلك ، وأرجع عن كثير مما أنا فيه ^(١) .

وأما البيضة الخاصة فإن الزحشري ثمره طيبة من شجرة طيبة ، فقد ساهم
والداه في تربية عاطفته الدينية ، إذ كان أبوه عالما ورعا صواما قواما حريصا
على مكارم الأخلاق ، وقد أشاد الزحشري بهذا ، ويتفوق أبيه للأدب في قوله
يرثه ^(٢) :

فقدت اتصالاً فاضت مآثره	العلم والأدب المشهور والورع
أحد طابع صفات مناسبة	ماء السحابة ما في بعضها طبع
لم يأل ما عاش جنداً في نقاه يرى	أن الحريص على دنياه منقطع
صام النهار وفام الليل وهو شج	من خشية الله كاني اللون منقطع
قريب عهد بوخط الشيب عارضه	إثر الشباب ووقف الليل خضع
من البرودة في غياه المنع	صدرا وإن لم يكن في المال منقطع

لم يذق الحر ، ولم يذق البرد ، ولا أحد من أسرته ، والناس شهود على
ذلك ، قال في وصف الحر ^(٣) :

(١) السكامل لابن الأثير ١٠/٢٦ ، ٧١ ، وتاريخ آل سلجوق ٥٤ .

(٢) ديوان الزحشري ٧٢ .

(٣) ديوان الزحشري ٨٥ .

هات التي ظلمها شجرت بشمس ضحا لو عارضتها أعظمها بإشراق
أستغفر الله أني قد نسيتُ بها ولم أكن لحياها بذوق
ولم ينقها أني كلا ولا أحد من أسرتي ، وانفق الناس مصداق

كذلك كانت أدمه شديده رحمة القاب ، بلغ من تأنها وعظمها على العصفور
أن غضبت من إسهاء واحتاجت فدعت عليه دعوة خطيرة نفست بها عن موجتها ،
فهو بمص حدثا من أحداثه في صباه فيقول ^(١) : كنت في صباه أمسكت
عصفورا ، وربخته بحيط في رجله ، فأفلت من يدي ، فأدركته وقد دخل في حرق ،
فجذبتة ، فأقطعت رجله في الحيط ، فتألمت والدمى لذلك ، وقالت : قطع الله رجلك
كأن قطعت رجله . فلما وصلت إلى من الطلبة رحلت إلى بخاري لطلب العلم ،
فسقطت من الدابة ، فانسكرت رجلي ، وأصابني ألم أوجب قطعها .

ويظهر أن البرد الشديد أثر في الكسرة فاصطوره إلى قطع رجله ، لأن النتائج
والبرد — كما يقول ابن خالكان — كثيرا ما يؤثر في الأطراف في تلك البلاد ،
فتسقط ، خصوصا في سوارزم ، فإنها في غاية البرد ، ولقد شاهدت خلقا كثيرا ممن
سقطت أطرافهم بهذا السبب ، فلا يستبعد من لا يعرفه ^(٢) .

وعن مظاهر تدينه المتصلة بقطع رجله أنه عرا قطعها إلى دعاء والدته ، فقد
سأله الإماماني الفقيه الحنفي المتكلم عن السبب فقال : دعاء والدته ^(٣) .

ويذكر ابن خالكان أنه لما سقطت رجله أشهد في محضر خلقا كثيرا
من اطاعوا على حقيقة ذلك ، خوفا من أن يظن من لم يعلم الحقيقة أنها قطعت
لريبة ، ثم أخذ رجلا من خشب .

(١) وفات الأعيان ٤/٧٥٥ ، ومعجم الأديب ١٩/١٢٧ .

(٢) وفات الأعيان ٥/٢٥٥ .

(٣) وفات الأعيان ٥/١٥٥ ، ومعجم الأديب ١٩/١٢٧ . وشارحات الوفاة ٤/١١٨ .

بدفع من هذا التدين حجج مرات ، واعتزم أن يقيم مكة لأبيض فيها حولا ،
فراغته الشوق إلى وطنه غادرها تلفت إليها عينه ، حتى تولدت معالها
صفت قلبه ، ثم لم يلبث أن اشتاق إليها أشد الشوق ، ورحل إليها أعظم الرحيل ،
وفرح نفسه على فرها ، فخرج إليها مرة ثانية ، وأقام بها سنوات ، وسعى نفسه في
هذه المرة جار الله :

أما الجار جار الله مكة مركزى ومصر أبوة دى وموقداً أطنى
فمن باقى فى بعض الثورات وحده وأم القرى ملقى رحلى ومنشأ
ومن كان فى بعض الحارب براكمه فلكمها البيت الحرم محرابى

ولا يخفى كتاب من كتبه من دلائل تقواه ، وحسنه على الطاعة والعبادة
نفسه وسواه ، وكأنه بحكمة ونوعية التى تهذب الأخلاق وتسمو النفوس .

لهذا قال فى مقدمة المقامات ^(١) : « وأنا أقدم قبل الخوض فى ذلك تفهيمك
على ألا تطاع هذه النصائح الاستقيا فسكرت إلى معانيها ، فخصرت ذهنك لأوامرها
وبواعيها ، حتى يكون اقتضائك منها فى أخلاقك وأفعالك أوفر من استمندان
لبذلها وبراعتها . فقد علمت بعبء ما يهلب النفس ، ويظهر القلب » .
ثم قال : « عاهد نفسك ألا يدرس من العلوم إلا ما هو مهيب بدارحه إلى
نفسى ، رادع له عن متابعة الهوى ، ويهدى عليه فى علوم القراءات والحديث
وأخبار الشريعة ، من ^(٢) لحرف منه أنه يقصد بارتياحه وجه الله تعالى ، ويرى
به العرض أراجع إلى الدين ، صامياً صفحا عن بطنه ليلجده أهية لمباهة ، وآلة
للمناجاة ، ووسيلة إلى الخطوة عند الخاضعين فى غمرات الدنيا ، والتسليم بين
ظهورانيهم بالفاضل والتائب بالمأوع » .

(١) مقدمة التوحى ٨

(٢) من لحرف : معجم الحرف ، ودرس : معجم الحرف ، وقولان :

(٦ - ٧ - التوحى)

وخاطب نفسه هؤلاء ^(١) : « يا أيها القاسم ، العمر قصير ، وإلى الله المصير ، فما هذا التقصير ؟ إن زلزلت الأرض قد أضللت ، وشيطان الهوى قد استراحت ^(٢) ، ألا إن الأحصى بك أن تلوذ بركن الأقوى ، ولا بركن ألقى من ركن التقوى » .

وهي نفسه في مقامة العمل عن الاعتزاز بالثناء عليه ، ووصفه بالبراعة في العلوم والآداب ، وعقب على هذا بأن الآداب هو الداعية إلى القصائد ، للبرأ من العيوب ، والعاقلة هو الذي يتقى من أخطائه أن يكون عند الله رجيها ، لأن العلم بلا عمل كالقوس بلا وتر : « لعمر الله ليس بآديب ولا أديب ، كل مغرب وحافظ غريب . الآديب من أخذ نفسه بآداب الله فبذلها . ونفع أخلاقه من العقد الثمانية فشد بها . والآديب الفضل من لم يكن له أرب ولا وتر ، إلا أن يكون له عقد الله فصل وخطر ، ماغنا ، من قرى علمه وعمله قد فتر ، إن علم بلا عمل كالقوس بلا وتر ، حاملها حيران من ربك في العاية ، لا يهتدى وإن كان ابن يقين ^(٣) إلى وجه الرماية . . . والعلم أن العلم إنما يتعلم ، لأنه إلى العمل سلم . كما أن العمل إلى ما عند الله ذريعة ، ولولاها ما علم علم ولا شرعت شريعة » ^(٤) .

وقال في مقدمة (أطوار الذهب) وهي موعظة أشاعرة في مكة :

« أسألك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها ما وجب للجوار ، من حق الدمام والدأمار ، لأنها واجدت في حرمك المطهر ، وولدت في حجر بيتك المنائر » .

وذكر يوسف الإشباني شارحها أنه كان يحرق بيت الله ، فهذا فرع من

(١) المقامات ٥

(٢) استراحت : جرت إلى الزوال .

(٣) ابن يقين : اسمه عمرو بن يقين من عاد خربت به العربية النبل في جودة الرمي .

(٤) المقامات ١٠١

الطوائف أثبت مقالة ، ثم يقوم ويطوف ويشتي ، مقالة ، وما زال على ذلك إلى أن بلغت مئة كاملة ^(١) .

وذكر ابن خلكان ^(٢) أنه جمع من بعض فضلاء حلب أن الرخصي أشهد هذه الآيات ، وأوصى أن يكتب على لوح قبره ، وهي الآيات التي أشهد بها عند تفسير قوله تعالى : « إِنْ لَمْ يَنْصَرِفْ أَنْ يُصْرَبْ مِنْهَا مِائَةُ مِائَةٍ » ^(٣) :

يَا مَنْ يَرَى مِلَّةَ الْبَعِوضِ جَنَاحَهَا فِي ظِلْفَةِ الْبَيْلِ الْهَبِيبِ الْأَنْبَلِ
وَيَرَى عُرُوقَ رِيَاطِهَا فِي نَحْرِهَا وَالنَّخْ فِي مَالِكِ الْعِظَامِ النَّحْلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ قَرَّطَانِهِ بَمَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

وعلى إحدى من تذييلاته : « أَخَذْتُ مِنْهُ دَسُورًا لَا يُتَعَدَّى » ، وأجزم بمماصرته ، وأثر الوحدة على مخالطتهم ، لأنهم أهل غيبة وانحراف عن الدين وتعاون على الآثام .

قال في مقابلة العزلة ^(٤) : « قَالَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، فَإِنَّهُمْ خَالِغُ الشُّرُورِ وَالْآثَامِ ، حَوَارِثُ غَوَارٍ ، وَرِقَاقُ نِقَارٍ » ^(٥) . ووافقهم نفاق ، سنان بالنسبهم الأغراض ، كما ترشق بسهامهم الأغراض . تجمع القدوة كبارهم فلا يتواصون بالصبر ، بل يتناصون على الصدر ^(٦) .

إِنْ آتَاكَ جَدَدُ الْوَحْشَةِ ، وَإِنْ جَالَسُوكَ وَدَدَتِ الْوَحْدَةُ ، بِنَا أَتَتْ فِي

(١) ثلاث الادب في شرح أطوار القصب ٩ .

(٢) وفیات الأعيان ٢٥٩/٢ .

(٣) سورة البقرة ٢٦ .

(٤) المقامات ٧٢ .

(٥) اتقاهم : منافقهم الكلام - نقار : منافقة ينقر بعضهم بعضا بالقصب . وفي نوايع الكلام (لن يسود النقار ما اسود القار) .

(٦) يتناصون : يأخذ بعضهم بناصية بعض على مدبر المجلس .

حوائك وانفرادك ، مكبا على أخراك^(١) وأوراك . . . إذ فوجئت
بملاقاة^(٢) بعضهم ، من الذين أحدثك الله بعضهم ، فصرخ بينك وبين ما كنت
فيه آمدا . ورواك . فمور من تلك الأول بأعداد ، ملقيا أسباب الفتن بينه
وبنى أقدانه . محمدا والآداب والنسب وراء استنائه ، لا يدفع في صدره من حياء
دافع ، ولا يزعجه من دين حتى وأزع .

فإذا أنت بأكل لحم أخيه بالقيصة والثوب . وبلغ في دمه الحرام ولوغ
الكلب . وأصبوب^(٣) ونصعد في طريق قرؤنه ويقوم ويقعد في قرع صراوته^(٤) ،
ويخلط ذلك باستهزائه مقتابع . واستغراب مندافع . لم يملك حينئذ عنده ، ولم
يسقط عن استهزائه^(٥) .

فإن لم تقبل عليه عوجها وصفك بالكبرياء ، وإن لم ترضه سمعت منك
إلى الأبد . وإن أعطينته من نفسك ما يريد . فكلا كذا والشيطان للرد :

الإِنْسُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْإِنْسِ وَالْأُنْسُ أَنْ تَفْأَى عَنِ الْإِنْسِ
يَسْلِبُهُمْ نُسْ . ولكلها على ذئاب منهم طلس^(٥)

(٧) تواضعه

وهو مع إلهه وعزة نفسه متواضع ، لطيف للعساة ، خفيف للخطاة .

- (١) الحزب : الورد يقال : قرأت حزبي عن القرآن .
- (٢) الملاقاة : المواجهة وقال البحراؤى ثاقبه : لأزعمه ولم يبارعه .
- (٣) الروة : المجرة الصلبة ، والمراد هنا الأمل .
- (٤) الحنان : جمع حان .
- (٥) طلس : جمع طلس وهو الذئب في لونه غيرة إلى سواد .

فدع إلى بغداد في طريقه إلى مكة ثلثي مرة ، فرأى كثير من الناس يشكرونه
ولدهاج منه ، وكان فيهم الشريف أبو السعادات عبد الله بن الشجري ، فلما جلس
إليه بهرته ثم بحثرى علما وأخلاقا ، فأنشد ابن الشجري ميمناً :

كانت مسألة الركبان تحيرني عن أحمد بن دؤاد أطيّب الخبر
حتى التقيتُ فلا والله ما سمعتُ أدنى بأحسن مما قد رأى بصرى
وأنشده أيضاً :

وأستكر الأخبارَ قبل لقاء هذا التقيتُ صمراً الخيرَ الخيرُ
ثم أخذ يثني عليه . فمما فرغ من كلامه شكر ثم بحثرى له ، وعظمه ، ونصاعته .
وقال ابن زيد الخيل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبصر بالثني
رفع صوته بالشهادتين ، فقال له النبي : يا زيد الخيل ، كل رجل وصف لي وحده
حون الصفة إلا أنت ، فإني فوق ما وصفت ، وكذلك سيدنا الشريف . ثم
دعاه وأثنى عليه ^(١) .

وكتب إليه الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السلفي من الإسكندرية - وهو
مجاور مكة - يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته ، فرد جوابه بما لا يشفي الغليل .
فلما كان العام التالي كتب إليه أيضاً مع الحجاج استجازه أخرى اقترح فيها مقصوده ،
وقال في آخرها : ولا خروج - آدم الله رفيقه - إلى المرجعة ، فالسافة بعيدة ،
وقد كاتمه في السنة الماضية فلم يحب بنا يشفي الغليل ، وله في ذلك الأجر الجزيل .
فرد عليه ثم بحثرى رداً مخالفاً لما تواضع والسأمة من الغرور ومن التعالي
والتعالم ، صور فيه نفسه بين العلماء صغير القدر ، ضحل المعرفة ، وذكر أن حفظه
من الرواية يزول ، ونصيبه من الرواية قليل ، واتصل من لقاء الناس عليه ، وعلى

أنه انترا من فيه بالقاهر الله وه. ثم انفس في المذبح ، لأنهم ربما أعجبوا بصحة
السمعون . وترفعه عن حطام الدنيا ومذاسنها ، وحتم الرسالة بتوكيده أنه صادق
فيما يقول :

من رسالته قوام : مامثل مع أعلام العلاء ، إلا كتل الشهاب^(١) مع مصابيح
السماء ، وأجسام^(٢) الصقر^(٣) مع الزهام^(٤) ، ومع النوادي القاصرة للقيعان والآكام ،
والشكوك^(٥) الخلف مع خيل السباق ، والبغات^(٦) مع الطير العناق .

وه ، المنقلب بالعلامة . إلا شبه الرقم بالعلامة . والعلم مدينة أحد بابها
الدراية ، والساني الرواية ، وأنا في كلا البابين ذو بضاعة مزجاة^(٧) ، ظل فيهما
أقلص من ظل حضاة .

أما الرواية فندية الميلاء ، فرقة الإسناد ، لم تسند إلى علماء نحارير^(٨) ،
ولا إلى أعلام مشاهير .

وأما الدراية فتمدد^(٩) لا يبلغ أفواها ، وجرى^(١٠) ما بيل شفاها .
ثم قال : لا يعرفكم قول فلان في ولاقول فلان . وعدد جماعة من الشعراء
والقضاة مدحوه بمخاطيع من الشعر ، وأوردها كلها .

(١) الشهاب : كوكب حتى في بذات بعض الصنوي .

(٢) الجهام : السحاب لا ماء فيه .

(٣) الصقر : الخاف .

(٤) الزهام : جمع رهمة وهي الماء الضيقة الدائم .

(٥) الشكوك : آخر خيل الخلية .

(٦) البغات : أخف الطير .

(٧) مزجاة : قايمة .

(٨) نحارير : جمع نحير وهو الخادق القبان الحير .

(٩) التمد : الماء القليل .

(١٠) جرى : قليل .

ثم قال : فإن كانت الحقاير منهم بالظاهر الموهبة ، وجهل بالباطن المشوكة ، ولعل
الذي غرهم من مآرأوا من حسن التصح لمسلمين ، وتبليغ الشفقة على المستفيدين ،
وقطع المطامع عنهم ، وإزالة المآرئ والصنائع عليهم ، وعزة النفس ، والرب ، بها
عن السالف الذنوب ، والإقبال على خواتمى ، والإعراف عما لا يعينى ، تجلت
في عيونهم ، وغلظوا قلوبهم ، ونسبوا إلى مآلست منه في قبيل ولا ذبير^(١) .

وما أنا فيها أقول مهاضم لنفسى . كما قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى في
قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « ولست بخيركم » إن المؤمن
ليعتنق نفسه ، وإعنا صدقت القاضى عني ، وعن كنهه روايتي وذرايتي ، ومن لقيت
وأخذت عنه ، وما بلغ علمي وقصدي ففعل ، وأعلمته طمئع أمرى ، وأفضيت
إليه بحقيقة سرى ، وأفقت إليه بحجري ونجوى^(٢) . وأعلمته نجوى
وعجري^(٣) . وقال ابن خلكان : ما أعلم هل أجازوه بعد ذلك أولا^(٤) .

وقال في مقامه العمل يخاطب نفسه : « نعم يا أبا القاسم إن سمعتم
يقولون : ما أنا أكثر فصلت فقل إن فضولى أكثر ، وما أغزر أدبك فقل
إن قلبه أدنى أخزر »^(٥) .

ولم يلبس أن يشوب بخلق التواضع في استنباطه بعض الأخلاق من نفسه

(١) لأن ما يعرف قبلا من دبر أى ما يعرف انداء المقابلة من المصارفة أو ما يعرف
من يغفل عليه من يصير عنه أو ما يعرف نسب الله من نسب أبيه (قاموس المحيط مادة قيل) .
وأصل من قيل الخلق إذا مسح اليد على اليسار عموماً فهو قبيل وإذا مسحها عليها مستعلاً فهو
دبر (أساس البلاغة مادة قيل) .

(٢) المراد أحاطته على عيوبه . وأصل العجز العروق المنقصة الباشة ، والبحر ما يعقد
منها على البطن خاصة (أساس البلاغة مادة بحر) .

(٣) التجم ما نجم من النبات على غير ساق .

(٤) وفيات الأعيان ٢٥٦/٤ ومعجم الأدباء ١٩/١٣٢

(٥) مقامات الركنى ١٠١

قوله تعالى : وقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين» (١) .

قال في الآية دليل على تعرف العلم بواسطة محاميه وتقديم خدمته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم ، وأجرل القسم ، وأن من أوتيته فقد أوتي فضلا عن كثير من عند الله ، كما قال تعالى : «رفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» (٢) .

وسأجدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورتة الأنبياء ، إلا أن الله انهم لهم في الشرف والمنزلة ، لأنهم القوام بما بعثوا من أجله .

وفيها أنه يلزمهم هذه النعمة الفاضلة لولزم ، منها أن يخصوا الله على ما أوتوا من فضلهم على غيرهم ، وفيها التذكير بالتواضع ، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليهم ، وما أحسن قول عمر : كل الناس أهله من عمر (٣) .

(٨) حبه للعرب والعربية

كانت العصبية الجنسية قد بلغت أشدها في ذلك العصر الذي عاش فيه الزعمري . وكان كثير من الأعاجم قد انهضوا ضعف الخلافة العباسية ، وخرقوا العرب ، وغيروا دويلات غير عربية ، لجعلوا يتعاونوا على العرب . وينتقصون من قدرهم ، ويتهمون على تاريخهم ، وأخلاقهم ، ويحاولون أن يحسوا انتمائهم القومية ، واستعصوا بها عن العربية .

(١) سورة البقر ١٢٠

(٢) سورة الحديد ١١

(٣) السكشاف ٢/٣٩

والسكن المختصرى العالم لغوى الأديب وقف فى تيار الشعوبية بصله
ما استطاع ، لأنه كان حاصل ما بين العروبة والإسلام ، وبصل ما بين اللغة العربية
والثقافة الإسلامية ، قال فى مقدمة كتابه (المفضل) :

« الله أحمد على أن جعلنى من علماء العربية ، وجهانى على العصب لعرب
والعصبية ، وأبى لى أن أفرّد عن صلب أبنائهم وأمتهم ، وأضوى إلى تيف
الشعوبية وأحاز ، وعصمنى من مذهبه الذى لم أجد عليهم إلا الرشق^(١) ، أسنة
اللاعتين ، والرشق^(٢) بأسنة الطاعنين .

ولعل الذين يعضون من العربية ومضعون من قدرها ، ويريدون أن يخفصوا
مافى الله من منازلهال حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه فى عجم خلقه ، والسكن
فى عرب لا يمدون عن الشعوبية مبادئ الحق الأبايح ، وزيفاً عن سوانحهم ،
ثم سفهم وعجب من دعواهم وهم لا يدركون إلا بالعربية « والذى يقضى
منه العجب حال هؤلاء فى قلة إنصافهم ، وجرط جورهم واعتسافهم ، وذلك أنهم
لا يحدون عما من العلوم الإسلامية قضبها وكلامها وحسب تفسيرها وأخبارها
إلا وافقتاره إلى العربية كدائن لا يدفع ، ومكشوف لا يتقف «^(٣) .

وقد جهر بتفضيل العرب فى قوله :^(١)

العرب تبع صلب المعاجم ، والقرب مثل للأعاجم^(٥) .

وفى قوله :^(٦)

فرقت بين الرطب والعجم^(٧) ، هو الفرق بين العرب والعجم .

(١) الرشق : الإصابة بالمكروه . المتيق : سرعة الملل .

(٢) شرح المفضل ١/ ٣١-١٦ .

(٣) نوايح الكلام ٧ .

(٤) التبع : شجر صلب تتخذ منه القسي . القرب : شجر ضعيف رخو .

(٥) نوايح الكلام ٣٨ . (٦) العجم : نواة القرم .

وفتح بالعرب وأخلاقهم ، وسخر بالشعوبية في قوله ^(١) :

وقل هل فشا في الأرض غير آدمهم لسان فشو الضوء واليوم شمس ؟
به عجاج في أمصارها كل منبر وطلعت به في الخافقين المدارس
على ظهرها لم يخلق الله أمة تناسبهم في خصلة أو تلباس
تقاس بين الناس حتى إذا انتهى إلى العرب القياس طاح التقاس
أجل رسول منهم وبسنتهم أجل كتاب غنمهم بامفاس
وقل للشعوبين إن حديثكم أصابيل من شيطانكم ووساوس
لكم مذهب فسل بغر بخله أصاب حقي لا الرجال الأكاس

وردد في كثير من كتبه إمعانه باللغة العربية وإشارته إليها ، وثناءه على بلغاتها ، فقال في مقدمة كتابه (الفائق في غريب الحديث) إنها أفصح اللغات ، وبلاغتها أتم البلاغات ، وأتى على عدنان وأبنائه ، وقحطان وأحياته ، وعلى شعرائهم وخطباءهم الذين سحروا الناس ببلاغتهم .

وقال في كتابه (مقدمة الأدب) : « الحمد لله الذي فضل على جميع الألسنة لسان العرب ، كما فضل الكتاب المنزل به على جميع الكتب » .

لهذا كان براون محققا في قوله ^(٢) : إن الزخسري من أقوى المعارضين لمذهب الشعوبية ، وهو المذهب الذي بفضل المعجم على العرب في كل شيء .

(١) ديوان الزخسري ٦١

(٢) تاريخ الأدب في إيران ٤٥٩

(٥) قسوته على مخالفيه

كان للباحثين محققون في مذهبه أشهر ثلاث طوائف، قوله مع كل مناهي وقت.
أما الأولون فهم الشافعية والمالكية والحنابلة، لأنه كان حنفى المذهب^(١)،
وقد باهى بحقيقته في قوله^(٢) :

وَأَسْتَدُ دِينِي وَاعْتِقَادِي وَمَذْهَبِي إِلَى حَقِّهِ أَذْهَابُهُمْ وَحُجَّتُهُمْ
حَقِيقَةُ أَدْيَانِهِمْ حَقِيقَةُ مَذَاهِبِهِمْ لَا يَتَّبِعُونَ لِرِجَالِنَا
وَقَالَ^(٣) : رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْعُلَمَاءِ الْخَاشِعِينَ مِنْ اللَّهِ وَحَسَابِهِ ، جَمَعُوا إِلَى اللَّهِ
الْحَنِيفِيِّ الْعِلْمَ الْحَنِيفِي .

ولكنه على الرغم مما كان بين أتباع هذه المذاهب من خصومة في كثير
من الأوقات والجهات لم يتعصب للحنفية ، ولم يخرج محققهم ، بل كان يورد
الآراء المختلفة بغير تعليق تارة ، وبترجيح مذهب على آخر تارة ، وقد يختار
مذهب الشافعية ، كما نجد في تفسيره الآية الكريمة : « وَلَسْتُ نُوَلِّكَ عَنِ الْخَيْضِ
قُلٌّ هُوَ آذَى فَاسْتَرْوُوا النِّسَاءَ فِي الْخَيْضِ وَلَا تَقْرُوهُنَّ حَتَّى يَبْطُغْنَ^(٤) » وكذا في
تفسيره الآية الكريمة : « وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ قَرِيضَةً فَانْصَفُوا مَا فَرَضْتُمْ^(٥) » .

وأما الفريق الثاني فهم السنية ، وقد قسا عليهم مرات ، وسلفه آراءهم ،
وضعف دينهم . ومن الإنصاف أن نذكر أن أهل السنة طائفا خاصا والمعزلة .

(١) تاريخ أبي القدا ١٦/٣

(٢) ديوان الأدب ٧٨

(٣) أموات المذهب ٥٢

(٤) سورة البقرة ٢٢٢ والكشاف ١٠٣/١

(٥) سورة البقرة ٢٣٧ والكشاف ١١٤/١

وحرضوا عليهم . وكفروهم ، ولا شك أن المختبر كان يعلم هذا ، وكان يحد من السنة المعاصرة له تفكرا ومخاصمة ، فقيمهم على ما بقوته به .

من قوته على السنة ما ذكره عند تفسير قوله تعالى : لا شريك لله إلا الله لا اله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله إلا هو العزيز الحكيم ^(١) « فقال : « العزيز الحكيم » صفتان مقررتان ، وصف لله ذاته من التوحيدة والعمل . فإن قلت : ما المراد بأولى العلم الذين عظمهم هذا التعظيم . حيث جمعهم معه ومع الملائكة في الشهادة على وحدانيته وعدله ؟ قلت . هم الذين يشعرون وحدانيته وعدله بالحجج الساطعة ، والبراهين القاطعة ، وهم علماء العدل والتوحيد — يقصد المعزلة — .

وقوله (إن الدين عند الله الإسلام) جملة مسألة مؤكدة للعصاة الأولى . لأن قوته (لا اله إلا هو) توحيد ، وقوله (قائما بالقسط) تعديل ، فإذا أروفه قوله (إن الدين عند الله الإسلام) فقد أذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد . وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده في شيء من الدين . وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدي إليه كإجادة الرقبة ، أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور ، لم يسكن على دين الله الذي هو الإسلام .

وقد عقب ابن النير على هذا بما يثابته في القسوة والتجريح ^(٢) .

وأما الفريق الثالث فهم المتصوفة ، ولا عجب في محاسنتهم . لأن بين المعزلة والمتصوفة اختلافات جسيما .

ذلك أن المتصوفة زعموا بالجبر مراحاة ، فقد روى عن أبي عبد الله أحمد ابن يحيى الجلال : قوته : لا من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ

(١) سورة آل عمران ١٨ — ١٩

(٢) السكيات وهاشم ١٣٧/١

على الترائس في أول موافقتها فهو عابد ، ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحد لا يرى إلا واحدا^(١) ، على حين أن المعتزلة يذهبون بالحرية والاختيار .

والتصوفة غالوا في تدبير النبي عليه الصلاة والسلام مفالات لم يعرفها المسلمون الأولون ، ولم يقرها المعتزلة .

والتصوفة يعتقدون في الولاية والأولياء اعتقادا خاصا ، فالأولياء في نظرهم أنواع وطبقات^(٢) ، وهم كرامات^(٣) ، أما المعتزلة فلا يعترفون بالولاية على هذا النحو ، لأن المسلمين الطائعين في نظرهم أولياء الله وأحبابه .

وقد اشتهر بعض التصوفة في القرنين الرابع والخامس معاشره مخاضين ، ورهقة النساء ، وصحبة الأحداث ، وإيثار العزوبة ، على الرغم من أن أكثر التصوفة التمساء كانوا متزوجين^(٤) ، وفي هذا يقول الحنوري في القرن الخامس : إن شيوخ التصوفة متفقون على أن العزوبة هي اللاتمة بالتصوف ، تتكون نفوسهم خالية من الشاغل ، وطلبهم مبرأة من الشهوات والنسبة ، وأساس التصوف هو العزوبة ، أما الزواج فغيرهم^(٥) .

والتصوفة يخدمون وجدانهم وإفهامهم وسيلة المعرفة ، على حين أن المعتزلة يخدمون ومبادئهم ما يفهمونه من القرآن والسنة وما يستنبطون منهما عقولهم .

والتصوفة يؤمنون بنفوسهم وأرواحهم خائضهم ، والفتنة والمغزلة يختصون بالعناية أعماهم وظواهرهم .

(١) الرسالة الشيعية ، ٢٠ .

(٢) طبقات "شافعية" لمسي ٢/٢٣٧ وكشف الحجب .

(٣) الرسالة الشيعية . باب الكرامات .

(٤) الرسالة القشيرية ٣٢ .

والتصوفة يسمون بحب الإلهي غير متعطين برغبة في ثواب أو رغبة من عقاب ، ولكن المشاكسين والفقهاء يعتمدون على العبادات ، أملا في الثواب وخوفا من العقاب .

وقد سلفه الرحمتري التصوفة ، فمن أسفهم لهم وسعده بهم ماذا كره في تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من وراءكم منكم عن دونه فسوف يأتي الله بقوم بينهم خبيرون ، أشرأر على المؤمنين ، أشرأر على الكافرين ، يخافون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » (١) . فقال : بحجة العباد لهم طاعته وإتقاء سرمدته ، وألا يفعلوا ما يوجب سخطه وعقابه ، وبحجة الله لعباده أن يطيعهم أحسن الثواب على طاعتهم ، ويعتصمهم ، ويرضى عليهم ، ويرضى عنهم ، وأما ما يعتقده أهل الناس وأعداء العلم وأهل الهدى ، وأسوأهم طريقة . وإن كانت طريقتهم عند أمثالهم من الجهلة والسفهاء تنافا . وهم الفرقة المنتهية للتدنية من الصوف - يقصد التصوفة - وما يدبوق به من محبة والعشق . والتفنى على كواصمهم خراسا لله : وفي مراقصهم عطفها لله . آيات العزلة تقوله في الرزدان الذين يسمونهم شهداء ، وصحة لهم التي أين منها صحة مما هي عند ذلك الظهور ، فتعاني الله منه عوا كيدا . ومن كلماتهم : كما أنه بذاته عظيم كذلك يعمون داه ، فإن الماء ، أحمة إلى الذات دون النعموت والصفات . ومنها : الحظ شرط أن تاحته سكرات الحجة ، فإن لم يكن كذلك ، لم تكن فيه حقيقة (٢) .

وشاق ابن كثير بقوله : لا شك أن تفسير محبة العبد لله بطاعته على خلاف الظاهر . وهو من الحجاز الذي يسمى في الدسبب باسم السبب ، والحجاز الذي لا يعقل إليه عن الحقيقة إلا بعد سملرها . فليست حقيقة الحجة الله لينظر أنه ثابتة

العبد متعلقة بالله تعالى أم لا ؟ إذ المحبة لغة من التصف بها إلى أمر لائق ، والصفات المحبوبة منقسمة إلى مدرك بالحق ككثرة الذوق في المفهوم . وهذه النظر
وإلى لغة مدرك بالحق ككثرة الجاه والرياسة والعلم ، ثم تنفردت المحبة بحسب تنفرد البواعث عليها وليس مفهوم كل ولا أجل من العبود الحق ، فاللغة الحاصلة في معرفته تعالى ومعرفته جلالة تكون أعمام ، والمحبة تبعته عليها تكون أمكن ، وإذا حصلت هذه المحبة بعثت إلى الطاعات والوفائات .

ومعنى هذا أن محبة العبد لربه ممكنة بل واقعة من كل مؤمن ، فهي من لوازم الإيمان وشروطه ، والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم ، وإذا كان كذلك وجب تسمية محبة العبد لله بمعناها الحقيقية لغة ، وكانت الطاعات تاليف عنها والمقار لها . الأخرى إلى الأخرى التي سأل عن السابعة فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : ما أعددت لها كبري محلي . ولكن حب الله ورسوله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنت مع من أحببت ، فهذا الحديث يخلق بأن المفهوم من المحبة غير الأعمال والبرام الطاعات ، لأن الأعرابي نالها ، وأثبت الحب ، وأقره النبي على ذلك .

ثم إذا ثبت إجماع محبة العبد لله تعالى على حقيقتها لغة ، فالمحبة في اللغة إذا أكلت سميت عشقا ، فمن أكلت محبة لله تعالى ظهرت آثارها عليه . من استيعبت الأوقات في ذكره وطاعته ، فلا يتبع أن لسي محبة عشقا ، وإذا العشق ليس إلا المحبة المانعة . وما أردت بهذا الفصل إلا تحليص الحق والانتصاف لأحباب الله عز وجل من الزمخشري ، فإنه خاط في كلامه اللث بالمدح ، فأخلق القول بالمدح القامش في التصوف من غير أن ينصري ، ونسب إليهم ما لا يجدوا تركه ، ولا يعد في اليهائم فضلا عن خواص البشر .

ولا يلزم من تسمي علاقة بهذا الاسم غيبين له من أهله ، ثم لو تكلمهم ما قبل عنهم لما بدا في حال المدح به حقيقة ، أن يؤخذ الصالح بالطائع ، ولا نور وازرة وزر أخرى .

كما أن علماء الدين قد اتسبوا إليهم قوم سمو أنفسهم أهل العدل والنوحية ثم خلعوا الرقعة فحصدوا صفات الله تعالى وقصاه وقدره . وظنوا : إن الأمر أثبت ، وجعلنا أنفسهم شريكاً في الخلفات . فلا يسوع إذ أن قدح في علم أصول الدين مطلقاً ، لأسمه قد اتسبوا إليهم من لا حيلة لهم في غيره من التسمي بنعيمهم ، ولا يكلف الله قسماً إلا يسعها .

ولا شك أن في الناس من أنكر تصور محبة العبد لله إلا بمعنى طامته له لا غير ، وهو الذي اندرز إليه الزحشرى . قال العزالي : والخبيرون لله يقولون لمن أنكر عليهم ذلك : « إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم » (١١) .

ومن سحرته بهم قواه في نفس الآية السحرية : « هو الذي يريكم الرقعة خوفاً وطعناً ، ويثبتي » السحاب الثقيل ، ويشرح الرعدة بحمده والملائكة من حيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء (١٢) . قال : ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين لمعاري ، ومن يدع المتصوفة أن الرعد صفقات للملائكة ، والبرق زفريات أفتدبهم ، والمطر كؤوسهم (١٣) .

(١٠) عزوبته

عاش الزحشرى أعزب كما عاش بعض سابقيه من العلماء والأدباء ، مثل محمد ابن جرير الطبري (١٤) ، وأبو حيان التوحيدى (١٥) ، وإذا كان سابقوه لم يذروا إيتريه العزوبة ، ولم يعلوا لها ، فإنه قد بررها ، وعاش لها ، ولكن تعذيبه لم يرس .

(١) حامى الكشاف ١/ ٢٠١

(٢) سورة الرعد ١٣

(٣) الكشاف ١/ ٤٦

(٤) الطبري الطبري ٤٩

(٥) أبو حيان التوحيدى للوأنب ١٨٥

فهو مرة يشفق على الآباء الذين يجهلون في تربية أبنائهم ، مؤمنين لهم الخير والعلاء ، ومثوقين إلى أن يسمعوهم ، وقر أعينهم ، ولكن هؤلاء الأبناء يصيرون أذنة ، لا يحققون شيئا مما أملا آبائهم . وهو لهذا آثر العزوبة التي شبهها بالرهبة في المسيحية ، وارتضاها لنفسه ، واستراح إليها ، فقال ^(١) :

تصفحت أولاد الرجال فلم أجد أصادف من لا يفضح الأم والأب
رأيت أنا بشي اتربية ابنه ويسمى لكي يدعى مكيساً ولمنحها
أراد به النش الأغر فما درى أوليه حجراً أم بقية منكما
أخو شقوة ما زال مركب طفله فأصبح ذاك الطفل للناس مركبا
لذلك تركت النسل واخترت سيرة مسيحية أحسن بذلك مديها

ولا شك أن هذه محاولة للتبرير ، ولكنها أبعد ما تكون عن الإقناع ، وأرجح أنه هو نفسه لم يكن مقتنعا بها ، ولعله سابق مساق المغالطة والمجادلة ، لأن الأبوة والأمومة ميل في الفطرة أصيل ، ولأن أكثر الأبناء لا ينطبق عليهم تأويله .

ثم إن الإسلام لا يرتضى هذه الرهبة من قادر على الزواج .

والعجب أنه دافع عن العزوبة مرة أخرى ^(٢) بأن الابن إذا ارتكب جرماً فاضحا كانت فضيحة الأب أشنع ، وإذا كان الأبناء محمية للضرر فإن ترك النسل أصوب ، وأدعى إلى الطمأنينة وسلامة العرض :

كانكم لم تسمعوا أن من له عيال شقي دهره ليس فلاح
قميح تنلى والبنون كما أرى جنود فساد ليس في الألف مصباح
إذا ارتكب الإبن الخاليع فضيحة فذاك نعمر الله للأب أفصح

(١) الديوان ٨

(٢) الديوان ٢٦

وكل صنيع ليس للنفع جالسا وجرت وجود الضر فارتك أروح^(١)
وقد سبق في مؤلفاته أنه يتبعها وامتزجت بها نفسه ، فأثرها على الأبناء ، وهو
يسكر هذا ، ويشفع إلى مؤلفاته تلاميذه وقراء كتبه ، ورواذه في قوله^(٢) :

وحسبي تعانيني وحسبي روايتها بنين بهم سقت إلى مطالبي
إذا الأب لم يأمن من ابن عقوقه ولا أن يعق الابن بعض النواب
فاني منهم آمن وعليهم وأقلبهم أرجوهم للعوقب
وهو في مرة ثلاثة تهيب الحياة الزوجية ، ويقرنها بالسباحة في البحر
الباني ، فيقول^(٣) : ما أدرى أيهما أشقى : أمن يعوم في الأمواج ، أم من يقوم
على الأزواج ؟

(١) أروح : أكثر راحة

(٢) الديوان ٨

(٣) نوازع الكلام ٣٦

الفصل السادس

في رَحَابِ التفسيرِ والتأويلِ

لمحة إلى التفسير قبل التفسير

التفسير الإلمانية والتوضيح، وهو التأويل بمعنى واحد في رأى، وفي رأى آخر أن التفسير كشف المراد عن المشكل، والتأويل رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر

١ - عاش المسلمون دحاً من الزمن متخرجين من تفسير القرآن الكريم بأرائهم، مكثفين بالقل على الرسول صلى الله عليه وسلم، أو بالأخذ عن الصحابة، أو بفهم ما تحياه اللغة ويقتضيه التعبير وروح الشريعة.

فلما تقدم الزمن، وتقدمت الثقافة، وتطور التفكير، واحتدم الخلاف السياسي والمذهبي خطا المفسرون من طور الاعتماد على النقل إلى طور الاجتهاد والاعتماد على العقل، فلم يتخرجوا من تفسير القرآن حسب آرائهم؛ لأنهم رأوا في التخرج عدولاً عن التفكير والنظر واستنباط الأحكام، ولوصح ما ذهب إليه المخرجون لم يستطع أحد أن يستنبط شيئاً، بل لم يفهم كثيراً مما تضمنه كتاب الله.

ورأى هؤلاء أن الحديث الذي ينهى عن التفسير بالرأى - على فرض صحته - مراد به الرأى الذى لا يعتمد على أصل ثابت، ولا يستند إلى روح الشريعة، بل يذهب مع الهوى، ولهذا اجتهد كثير من العلماء في تفسير القرآن الكريم، واعتمدوا على آرائهم، لأنهم مستكملون للعدة التي يجب أن تتوفر

المفسر . وجعل التفسير منذ القرن الثاني يتأثر باتجاهات المفسرين ، وبصياغة
بثقافتهم .

فالنحاة — كالزجاج والواحدي وأبي حبان — يهتمون بالمسائل النحوية
وتخرجهماء ويعربون القرآن إعراباً يساعد على تفسيره ، ويعنون بالمشكلات
النحوية في مثل قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا في ربهم » وقوله
تعالى : « إن هذان لساحران » .

والغويون — كأبي عبيدة وقطرب — يؤلفون كتباً في غريب القرآن ،
ويهتمون بالمشكلات اللغوية .

وهؤلاء وأولئك لم يكتفوا بمعاني القرآن .

وآخرون اتجهوا إلى المجازات في نحو قوله تعالى : « فبشرهم بعباد أليم »
والفقهاء عتقوا آيات الأحكام ، وألفوا كتباً مثل كتاب أحكام القرآن
على مذهب مالك ، وكتاب أحكام القرآن على مذهب أهل العراق لأبي بكر
الرازي ، وكتاب أحكام القرآن للشافعي .

وللمشتغلون بالعلوم العقلية حشدوا آراء الفلاسفة والحكماء في تفسير بعض
الآيات ، مثل الفخر الرازي ، والمتصوفة ألّفوا تفسيرهم بأمرهم كآبى عربي الأندلسي .
وعطاء الكلام أولوا بعض الآيات تعريزاً للذهبيهم ، مثل الزمخشري (١) .

٣ — وكان لا بد لمفسر أن يكون موهوباً وعلمياً باللغة والنحو والصرف
والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والقرائن والأمور وأسباب النزول
والناسخ والمنسوخ والحديث والفقه .

وبذلك الزمخشري أن المفسر يجب أن يكون على معرفة بالمعجم كلها .

(١) ضحا الإسلام ١٤٦/٢ والطبري ٩٩ — ١٠٧ لدوان .

وأن يكون حصيفاً فائدة لما يقرأ ولما يسمع ، وأن يحرص بحفظ النصوص
الطبيعة ، ويقتل النظر في الأساليب « ثم إن أسرار العلوم بما يفسر القرائح ،
وأنهضها بما يبرر الأبواب القوارح ، من غرائب نكت باطن مسلكها ،
ومستودعات أسرار يلقى سالكيها ، علم التفسير الذي لا يتم لغاظه وإجالة النظر
فيه كل ذو علم — كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن — فالفقيه وإن برز على
الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والتكلم وإن برز أهل الدين في صناعة الكلام ،
وحافظ القصص والأخبار وإن كان من أئمة القرئية أحفظ ، والواعظ وإن كان
من أئمة البصري أو عظماء ، والنحوي وإن كان أئمة من سيبويه ، والغوي
وإن ملك اللغات بقوة آحيته ، لا يتصدى منهم أحد لسبوك تلك الطرائق ،
ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد رجع في علمين مختصين
بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتعمل في التفسير
عنها الزمعة ، ويعتد على تتبع مضاميرها في معرفة الحقائق حجة الله ، وحرص
على شريطاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون أخذاً من سائر العلوم بحفظ ،
جامعاً بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع
وما نوزع إليه ، ورد ورد عليه ، فإرساء في علم الإعراب ، مقدماً في جملة
الكتب ، وكان مع ذلك مستمر الطليعة منقادها ، مشتعل القرينة وفادها ،
يقظان النفس ، دراً كما للمحة وإن لطف شأنها ، متنبها على الرمة وإن خفي
مكانها ، لا كرا جاسياً ، ولا غيظاً جافياً ، متصرفاً في إدارة بأساليب النظم والفن ،
قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويترصف ، طاملاً دفع إلى
مضايقة ، ووقع في مداخضة ومزلة » (١) .

ويكرر التنبيه على التذوق والخبرة بعلم المعاني والبيان ، ويعمل لهذا بأن

القرآن معجز بنظمه لا بالصرفه ، فالنظم هو أم إعجازه . والقانون الذى وقع عليه التجدى ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر (١) .

ويبدو من كلامه هذا أنه تأثر بما ردهه عبد القاهر الجرجاني فى كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز . واطمأن إلى ما دعا إليه الجرجاني من أن الحكم بالجمال لا قيمة له إذا لم يؤيد بالكشف عن سر هذا الجمال « إن من الآفة من دعى أن لاسبيل إلى معرفة العلة فى قليل ما تعرف الزية فى كثيره ، وأن ليس إلا أن نعلم أن هذا التقديم وهذا التنكير أو هذا العطف أو هذا الفصل حسن . وأن له موقعا من النفس وحظا من القول . فإما أن تعلم : لم كان كذلك ؟ وما السبب ؟ فما لاسبيل إليه ، ولا مطلع فى الاطلاع عليه ، فهو يتوانيه والكل فيه فى حكم من قال ذلك .

واعلم أنه ليس إذا لم يمكن معرفة الكل وجب ترك النظر فى الكل ، وأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه وإن قل ، فتجعله شاهدا فيما لم تعرف أخرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك ، وتأخذها عن الفهم والتفهم ، وتعودها الكل والتوانى .

قال الجاحظ : وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس ، وله فطرة شديدة وخبرة مرة ، فمن أضر ذلك قواهم : لم يدع الأول للآخر شيئا . فتوان علماء كل عصر مذحرت هذه الحكمة فى أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عن قبلهم رأيت العلم مختلا .

واعلم أن العلم إنما هو معدن ، فكأنه لا يمكنك أن ترى ألف وافر — حمل — قد أخرجت من معدن يثر أن تعذب فيه ، وأن تأخذ ما تجد ولو كقدر نومة — أو لومة — كذلك ينبغى أن يكون ذلك فى طلب العلم (٢) .

(١) الكشف ٢٤/٢

(٢) دلائل الإعجاز ٢٢٦

« إني إن تعلم في شيء من الصناعات علماً أثر فيه وأجلى حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب ، ويفصل بين الإساءة والإحسان ، بل حتى تفاضل بين الإحسان والإحسان ، وتعرف طبقات الحسنيين .

وإذا كان هذا هكذا علمت أنه لا يكفي في علم القضاة أن ينصب طائفة ، وأن نصفها وصفا مجازاً ، وتقول فيها قولاً مرسلًا . بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتفصل اليد على الخصائص التي تميز في نظم الكلم ، وتعدها واحدة واحدة ، وسميها شيئاً شيئاً ، وتكون معرفتك معرفة الشئ الخافى الذي يعلم علم كل حيط من الأرض بهم الذي في الديباج ، كل قطعة من القطع المنجورة في الباب المقطع ، وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البدع^(١) . وقد طبق الجرجاني نظريته في كتابيه اللذائل والأسرار على كثير من الآيات قرآنية والنصوص الأدبية .

ثم جاء الزمخشري فعنى بالكشف عن الإعجاز الكامن في نظم القرآن الكريم ٣ — عن بعض سابقه بالتفسير اللغوي البلاغي ، مثل أبي عبيدة معه بن النبي (المتوفى سنة ٢١١ هـ) ولكن جهده بتضاد إذا قيس بجهد الزمخشري . ٤ — وسبقه إلى التأويل على مذهب المعتزلة كثير من علماءهم ، وإن لم يصل إلينا من إنتاجهم إلا القليل ، فقد أقبلوا على تفسير القرآن الكريم وتأويله إقبالاً ، فظهر منهم عشرات منذ ألف وأصل بن عطاء (المتوفى سنة ١٣١ هـ) كتابه معاني القرآن^(٢) وألف قطرب — محمد بن السقندر — (٢٠٦ هـ) خمسة كتب في الدراسات القرآنية هي : معاني القرآن ، والرد على المنحدين في مشابهة القرآن ، وإعراب القرآن ، ومتشابه القرآن ، ومجاز القرآن^(٣) . وتابع مفسروهم كافي

(١) المرجع السابق ٣٠

(٢) معجم الأدباء ١٩ ٢٤٧

(٣) معجم الأدباء ١٩ / ٥٣

بشر عبد الرحمن الأصم (٢٤٠)^(١) وأبو علي محمد الجبائي (٣٠٣)^(٢) وأبو القاسم عبد الله البلخي السلمي (٣١٩)^(٣) وأبو هاشم عبد السلام الجبائي (٣٢١)^(٤) وأبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني (٣٢٢)^(٥) وأبو الحسن علي الرماني (٣٨٤)^(٦) وأبو القاسم عبيد الله الأسدي (٣٨٧)^(٧).

ثم جاء القاضي عبد الجبار (٤١٥) فآلف كتابه (تزييد القرآن عن المضاعف) ، وبعده الشريف المرتضى (٤٣٦) فتناول كثيرا من آراء المعتزلة ، وطلب الآيات القرآنية عليها في أماليه (غرر الفرائد ودرر القلائد) وهي مطبوعة ، وبعدهما أبو يوسف القزويني (٤٨٣) الذي ألف تفسيراً كبيراً بث فيه آراء المعتزلة ، وورجعه بعتقدهاتهم ، وهو ضخم في ثلاثمائة مجلد ، منها سبعة مجلدات في الفتاوى وحدها^(٨).

وليس أدل على كثرة مفسري المعتزلة من أن الذين بين واصل بن عطاء وأبي يوسف القزويني أكثر من ثلاثين معزانياً ، لهم في التفسير وما يتصل به مؤلفات تبلغ نحو المئة ، ولكن أكثرها مفقود^(٩).

ومن حق القاضي عبد الجبار على من يدرس الزمخشري أن يدرس آراءه ،

(١) الفهرست ٥١

(٢) طبقات المفسرين ٢٣ والفهرست ٥٠

(٣) الفهرست ٥١

(٤) طبقات المفسرين ٣٣

(٥) الفهرست ٥٠ وبنية الوعاة ٢٣

(٦) طبقات المفسرين ٢٤

(٧) طبقات المفسرين ١٩

(٨) طبقات المفسرين ١٨

(٩) لقد آراءهم ومؤلفاتهم في الفهرست لآلئ التذرع وطبقات المفسرين وبنية الوعاة المصنوع وأبناء الرواة لألفظي ومجمع الأدباء لآلئ التذرع والمنية والأمل للمرتضى ووفيات الأعيان لآلئ خلكان وكشف الظنون لحاجي خليفة .

لأن بينها وبين تفسير الزمخشري كثيراً من الشابه في الفكرة وفي الطريقة ،
والكن كتابنا هذا لا يتسع للدراسة المفصلة ، فلنم بها المأمة سريعة .

أما القاضي عبد الجبار فهو قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد
ابن عبد الجبار الهمداني الأسد باذي الشافعي ، كان في عصره شيخ المعتزلة ، وقد
استدعاه الصاحب بن عباد إلى الري وولاه قضاءها ، وبقى بها يدرس إلى أن
مات ، وكان الصاحب يفتي عليه ، وروى عنه أنه أعلم أهل الأرض .

وله مؤلفات كثيرة في علم الكلام والأصول والفقه والتفسير^(١) .
وأما كتابه (تزييه القرآن عن المطاعين)^(٢) فيس تفسيراً كان لا يستوعب القرآن
كله ، لأن مؤلفه لم يقصد إلى هذا ، بل قصد إلى الآيات المشابهة لبعضها بعضاً
الناس في فهمها وفي تأويلها ، ويكشف عما وراءها ، متبعاً بناء الكتاب على المسائل
التي تعنيه من كل سورة ، سواء أكانت راجعة إلى الأسلوب أم إلى العقيدة .
فيقول مثلاً في تفسير قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه »^(٣) .

مسألة : متى قيل : لذا قال تعالى (ذلك الكتاب) ولم يقل هذا الكتاب؟
فجوابنا : أنه عز وجل وعد رسوله أنزل كتاب عليه لا يمحوه لاء ، فلما
أنزل ذلك قال (ذلك الكتاب) والمراد ما وعدك ، ولو قال هذا الكتاب
لم يفد هذا الغائب^(٤) .

مسألة : فلو : ما معنى لا ريب فيه ؟ وقد علمنا أن خلقاً يكون في ذلك ،
فكيف يصح ذلك ؟ وإن أراد لا ريب فيه عندي وعند من يعلم فلا فائدة في ذلك .

(١) شذرات الذهب ٣ / ٢٠٢ و طبقات الفهرين ١٦٠ .

(٢) مغنوع في مجله واحد

(٣) سورة البقرة ٢

(٤) ذكر الزمخشري رأيين في استعمال (ذلك) هنا ، أحدهما ما ذكره عبد الجبار

فجوابنا : أن المراد أنه حق يجب ألا يرتاب فيه ، وهذا كما بين المرء الشيء
لخصمه ، فيحسن منه بعد البيان أن يقول : هذا كالشمس واضح ، وهذا لا يشك
فيه أحد ، وهذا كما يقال عند إظهار الشهادتين إن ذلك حق وصدق ، وإن
كان في الناس من يكذب بذلك ^(١) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم
غشاوة » ، ولهم عذاب عظيم ^(٢) .

مسألة : قالوا : فقد قال تعالى (ختم ...) وهذا يدل على أنه منعمهم من
الإيمان ، ومذهبكم بخلافه ، وكيف تأويل الآية ؟ .

وجوابنا : أن العلماء في ذلك جوازين : أحدهما أنه شبه حالهم بحال المنوع
الذي على بصره غشاوة ، من حيث أراح كل عليهم فلم يقبلوا ، كما قد تعين الواحد
الحق ، فتوضعه ، فإذا لم يقبل صحيح أن تقول حمار طبع الله على قلبه ، وربما تقول
إنه ميت ، وقد قال فعلى للرسول : « إنك لاتسمع بالوقى ^(٣) » وكانوا أحياء ،
فلما لم يقبلوا شبههم بالوقى ، وهو كقول الشاعر .

لقد أسمعتم لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تُنادي

وبين ذلك أنه تعالى ذمهم ، ولو كان هو المانع لهم لاذمهم ، وأنه ذكر
في جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم ، وذلك لو كان ثابتاً لم يؤثر في كونهم
عقلاء مكابرين .

والجواب الثاني : أن الختم علامة يفعلها تعالى في قلوبهم ، لتعرف الملائكة
كفرهم ، وأنهم لا يؤمنون ، فتجتمع على ذمهم ، ويكون ذلك إلفافهم ، ولطفنا لمن

(١) تنزيه القرآن عن الطاعن ٦ وفي الكشاف ما يشبه هذا ١ / ١٥

(٢) سورة البقرة ٧

(٣) سورة النمل ٨٠

يعرف ذلك من الكفار أو بطله ، فيسكون أقرب إلى أن يفلح عن الكفر .
وهذا جواب الحسن رحمه الله ، ولهذا قال تعالى « ولهم عذاب عظيم » ^(١) .

ونبى وقوع رؤية الخلق لله فى الآخرة ، فيقول فى تفسير قوله تعالى :
« وجود يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة » ^(٢) : ربما قيل إنه أقوى دليل على أن
الله تعالى يرى فى الآخرة

وجوابنا : أن من تعلق بذلك إن كان من يقول بأن الله تعالى جسم ، فإنما
لا تنازعه فى أن يرى . بل فى أن يصافح ويعانق ويلمس ، تعالى الله عن ذلك ،
وإنما نكلمه فى أنه ليس بجسم .

وإن كان من ينفى التشبيه عن الله فلا بد من أن يعترف بأن النظر إلى
الله تعالى لا يصح ، لأن النظر هو تغليب العين الصحيحة نحو الشيء طلباً لرؤيته ،
وذلك لا يصح إلا فى الأجسام .

فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه وهو الثواب (يريد : إلى ثواب
ربها ناظرة) كقولته تعالى : « وأسأل القرية » ^(٣) فإننا تأولناه على أهل القرية
لصحة المسألة منهم ^(٤) .

وعلى مثل هذا النهج يسير القاضى عبد الجبار فى تأييد آراء المعتزلة والدفاع
عنها ، مقدر على التذكير وبالتعميل البلاغى . وحمل الكلام فى كثير من الآيات
على التشبيه والجاز .

(١) تنزيه القرآن عن المصاعن ٩ وفى الكشف حجة أوجه فى هذه الآية والكشاف
٢١/٢ .

(٢) سورة القيامة ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) سورة يوسف ٨٢ .

(٤) تنزيه القرآن عن المصاعن ٣٥٨ وفى الكشف (٢ / ٤٠٩) أن النهى وجوه

يؤيد إلى نعمة الله وكرامته راجية

الكشاف

الباعث على تأليفه

١ — السبب الأول في تأليفه أن جماعة من المعترزة كانوا يرجعون إليه في تفسير بعض الآيات، فيبرز راعهم حقائقها، فيفيضون في الاستحسان والتعجب، ويستطعمون شوقها إلى مصنف أضربوا من ذلك، ثم اجتمعوا إليه مقترحين أن ينلى عليهم الكشاف (أو الكشاف) عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، فاستمعهم، فأبوا إلا المراجعة، والاستشفاع بغيراء الذين وعاهاء العدل والتوحيد، فأنلى عليهم مسألة في فواتح السور، وطائفة من الكلام في حقائق سورة البقرة، في كلام مبسوط كثير السؤال والجواب.

٢ — فلما توجه إلى مكة وجد في البلاد التي اجتازها شوقا إلى ما أملاه على بعض المعترزة، وحرصا على اقتباسه، فمترك نشاطه إلى إكماله.

٣ — وحيثما بلغ مكة وجد أميرها أبا الحسن علي بن حمزة بن عثمان أشد الناس شوقا إلى هذا التفسير، حتى إنه كان يحدث نفسه في مدة غياب الرمحشري عن الحجاز — مع كثرة مشاغله — بالوفادة عليه بخوارزم.

وحيثما لم يجد الرمحشري بدا من الشروع بتفسير القرآن كله، وهو يختم حديثه عن هذا بقوله: «فقلت قد ضاقت على المستعني الخيل، وتقيت به العليل، ورأيتني قد أخذت من السن، وتعتق السن، وياهرت العشر التي سميتها العرب حقائق الرقاب^(١)، فأخذت في طريقة أخضر من الأولى، مع ضحان الكثير من القوائد، والفحص عن السمائر».

ووفق الله وسدد ، فقرغت منه في مقدار سنة خلافة أبي بكر الصديق .
وكان يقدر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة ^(١) .

وإذ كان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٢٨ هـ نجاء الكعبة في جناح داره السليمانية التي على باب أحياء الموسومة بـ مدرسة العلامة ^(٢) ، وقد ألفه في سنتين ، فإن الذي يفهم من هذا أنه بدأ يؤلفه سنة ٥٢٦ هـ ، وهو في التاسعة والحسين أو في أول الستين من عمره ، قبل أن يؤلف أساس البلاغة ، بدليل ما ذكره في مده (حفر) بالأساس .

بعض من نقل عنهم

قرأ الزمخشري تفاسير سابقة من معتزلة وغير معتزلة ، ونقل عن هؤلاء وهؤلاء . فمن نقل عنهم القاضي عبد الجبار كما سبق ، ومجاهد (المتوفى سنة ٤١٠ هـ) كما نجد في تفسيره لقوله تعالى : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » ^(٣) .

فقال : إن المعنى اعبدوني ، والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن ، ويدل عليه قوله تعالى : « إن الذين يشككون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » ^(٤) ، والاحتجاج بالإثابة ، وفي تفسير مجاهد : اعبدوني أنبكم ^(٥) .

ومنهج عمرو بن عبيد المعتزلي (١٩٤ هـ) فهو ينقل عنه كثيراً ، وكتابه لم يصل إلينا ، كما نجد في تفسيره تلاية السكريّة « فلما رأها تمثر كأنها جان ولى مدبراً » ^(٦) فإنه قال : قرأ الحسن جان على لغة من يجد في الحرب من النقاء

(١) مقدمه ١ / ٦

(٢) نسخة الكشف بخط المؤلف ٢ / ٧٠

(٣) سورة غافر ٦٠

(٤) نكبة الآية السابقة

(٥) الكشف ٢ / ٣٢٠ ونقل عنه أيضاً في ٢ / ٦٥

(٦) سورة النمل ١٠

ساكنين ، فيقول شأبة ودأبة ، ومنها قراءة حمز بن عبيد « ولا الضالين »^(١)
ومنها أبو بكر الأصم المعتزلى (٥٣٥) وتفسيره لم يصل إلينا .

ومنها الزجاج (٣١١) ، كما في تفسيره لقوله تعالى : « هيهات هيهات
لما تعدون »^(٢) فإنه عقب بقوله : فإن قلت « لما تعدون » هو المستبعد ،
ومن حقه أن يرتفع هيهات كما ارتفع في قول الشاعر : هيهات هيهات العقيق
وأهله ، فما هذه اللام ؟

قلت : قال الزجاج في تفسيره : البعد لما تعدون ، أو بعد لما تعدون ،
فيمى نون ، فنزل منزلة المصدر ، وفيه وجه آخر وهو أن تكون اللام لبيان
المستبعد ما هو بعد التصويبات بكلمة الاستبعاد ، كما جاءت اللام في (هيت لك)^(٣)
ليبيان التوبيخ به^(٤) . كذلك نقل عنه بفرقة بين الشروق والإشراق ، لأن
الزجاج ذكر في كتابه (معاني القرآن) عند تفسير قوله تعالى « يا سحرنا الجبال
معاً يسبحن بالعشي والإشراق »^(٥) أن الإشراق طلوع الشمس وإنسانتها ،
يقال شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت ، وقيل إنهما
يعنى واحد .

وقال الزمخشري في الإشراق هو حين تشرق الشمس أى الضحى ، ويصفو
شعاعها ، وهو وقت الضحى ، وأما شروقها فطلوعها ، يقال شرقت ونسا
تشرق^(٦) .

(١) الكشاف ٢ / ١٣٨

(٢) سورة المؤمن ٣٦

(٣) سورة يوسف ٢٣

(٤) الكشاف ٢ / ٧٤

(٥) سورة مر ١٨

(٦) الكشاف ٢ / ٢٧٨

وقال مثل هذا في أساس البلاغة^(١)

ومهم الرماني العتري (٣٨٤ هـ) صاحب التفسير الذي لم يبق منه إلا جزء
 عم . فقد نقل ما ذكره في تفسير قوله تعالى : « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه »
 أن المرء هنا هو الكافر ، لقوله تعالى « إنا أنذرناكم عذابا قريبا ، يوم ينظر
 المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتني كنت آريا » والكافر ظاهر وضع
 موضع التفسير لزيادة الدم ، وقيل المرء عام ، وخصص منه الكافر ، وعن قتادة
 هو المؤمن^(٢) .

ومنهم عبد الله بن درستويه ، فقد نقل من كتابه (الكتاب المنصم في
 الخط والحجاء)^(٣) .

وكذلك نقل من غير هؤلاء ، مثل سيوريه^(٤) (صاحب الكتاب) ، وأبو
 علي مؤلف (الحجة)^(٥) ، والجاحظ فقد أحال إلى كتاب (الحيوان) لعروة غرائز
 الإنسان^(٦) ، والواقدي فقد نقل عنه تعيين الخديبية بأسماء طرف الحرم على تسعة
 أميال من مكة^(٧) .

على أننا نجد في تفسيره تريدا لأسماء من القراء والبلغويين والفتاة والفقهاء
 والمفسرين ، مثل الحسن بن علي ، وعبد الله بن عباس ، وقاتدة ، وعلي بن الحسين .
 وعبد الله بن عمرو وعروة بن الزبير ، وسعد بن المسيب ، ومقاتل ، ومجاهد ، وعكرمة
 وعائشة ، وأبي ذر ، والثوري ، وسفيان بن عيينة ، والصحاح ، وسعيد بن جبيرة ، والشعبي

(١) مادة شرق

(٢) سورة النبأ ٤٠ . وتفسير جز عم للرماني ورقة ٢٨ والكشاف ٢ / ٥٢٠

(٣) الكشاف ١ / ١٢

(٤) الكشاف ١ / ١٢

(٥) الكشاف ١ / ١٠

(٦) الكشاف ٢ / ١٤٢

(٧) الكشاف ١ / ٩٣

وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب، وأبي هريرة، وأبي حنيفة،
وسعيد بن جبيرة، والشافعي، وإبراهيم النخعي، وسيدنا محمد بن مسعود، والأوزاعي،
والزهري، والزجاج، والكشاف، وأبي عبيدة، وابن سيرين .

وقد حفل الكشف بكثير من المسائل والفضايا، جديرة بأن يفرد لكل
منها بحث خاص، لأنها تناول آراء المعتزلة، ومسائل كثيرة في اللغة والنحو
والبلاغة، وتخصيص بعض الآراء والتعليل لبعضها، وهذه كلتيها كل منها .

أولاً - في خضم الاعتزال

لمحة إلى المعتزلة

المعتزلة فرقة دينية نشأت في العراق، ثم داعت آراؤها بالعراق وما حوله .
وعلى في نشأتها اعتماد لفرقة المرجئة، لأن الفرقتين تشابهان في التوقف
عن الحكم على كلا الحزبين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين، وفي وصف
موتسكب الكبيرة بأنه ليس كافراً، وفي القول بحرية العبد واختياره، إذ أن
بعض المرجئة مثل معبد الجهنى وعيلان الدمشقي والجعد بن درهم سبقوا المعتزلة
إلى القول بالحرية والاختيار، ودان بهذا الرأي وأصل من عظم وعمر بن
عبيد، وهما المؤسسان لفرقة المعتزلة .

ثم إنهما في حضورهما متأثرة بالثقافات الأجنبية ولا سيما الفلسفة اليونانية،
إذ كانت ذات سلطان على الفكر الراقى في الشرق منذ زمن بعيد قبل أن يستعمل
الإسلام، ولخاصة فلسفة أفلاطون (٢٠٥ - ٢٧٠ م وهو الذي يطلق العرب
على فلسفة مذهب الإسكندرانيين، ويسميه الشهرستاني الشيخ اليوناني، وقد

وقد تنوع مذهبه وتفرع بالإسكندرية والشام وأثينا، ثم ازدادت الفلاسفة اليونانية انتشاراً ونفوذاً منذ عهد كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) لأن جوستينيان ناسر المسيحية، وأغلق مدارس الفلاسفة في أثينا، واضطهد الفلاسفة، ففر بعضهم إلى فارس، حيث رحب بهم كسرى أنوشروان، وأسس لهم مدرسة فلسفية بجنديسابور، فعمدوا بها الفلسفة والرياضة والطب ومنطق أرسطو^(١)، ثم تنصر بعضهم، وصبح نصرانيته بفلسفته.

وفي هذا الوقت ألف بولس برسا المسيحي مختصراً لمنطق أرسطو باللغة السريانية، ليقراء كسرى « عرض فيه الآراء المختلفة الخاصة بالله والعالم على هذا النحو : لقد وجد من يعتقدون في إله واحد، ويدعي آخرون أنه ليس بواحد، ويقول آخرون إن له صفات متعددة، وينفي آخرون عنه الصفات، وبعضهم يقول إنه قادر على كل شيء، وبعضهم يقول إن قدرته لا تشمل كل شيء، وبعضهم يقول إنه خلق الدنيا وكل ما فيها، وآخرون يقولون إنه ليس خالق كل شيء، وهناك من يقول إن العالم محدث، وآخرون يقولون إنه عالم قديم. » وقد عقب (كاسارتي) على هذا بأن المؤلف وصف الآراء الشائعة في صلب الديانة الإيرانية نفسها في الوقت الذي عاشت فيه^(٢).

وكان السريان يساهمون في نشر الأفلاطونية الحديثة بالعراق وما حوله، إذ كانت لهم مراكز عظيمة بالرها ونصيبين وحران وجنديسابور، وكانوا يرجعون من اليونانية إلى السريانية، ثم ترجعوا من السريانية إلى العربية، واستمر جهدهم هذا من القرن الرابع إلى العاشر الميلادي^(٣).

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٨ - ٢١ دي بور

(٢) إيران في عهد الساسانيين ١١ : كزيتسين

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام ١٩ دي بور

ومن أشهر رجالهم (ابن ديسان إيلام ديسان المتوفى سنة ٢٢٢ م) الذي كان ينسكركم بأجسامهم ، ويمتدحونهم (٢٠ - ٩٠ هـ / ٦٤٠ - ٧٠٨ م) الذي أباح رجال الدين أن يعلموا أبناء المسلمين . ومعنى هذا أن بعض المسلمين كانوا يشاققون إلى دراسة الفلسفة على أساندة من السريان ، وأن هؤلاء كانوا يترددون في تعليمهم ولا يقبلون عليه .

وكانت طوائف النصارى في الأقاليم التي فتحها المسلمون تتجادل في طبيعة المسيح ، وتتجادل في رجوعه ، وتختلف في البعث أ بكون بالأجسام والأرواح معاً أم بالأرواح وحدها ؟ وتتنازع في صفات الله تعالى أهى ذاته أمزائدة على ذاته ؟ وتختلف في أعمال الناس أجبرية أم اختيارية ؟ وفي خضم هذا الجدل كانت الفلسفة اليونانية تروج ، ويمتدحونها المجادلون ، إذ كان كثير من رجال المسيحية فلاسفة أو دارسين للفلسفة مثل الأب أوغسطينوس (٢٥٤ - ٣٤٠ م) وكانت الإسكندرية ملاذ النصارىة للفلسفة أو الفلسفة النصرانية .

ثم احتدم الجدل بين المسلمين والنصارى ، فألف يحيى الدمشقي النصراني (توفي سنة ١٣٦ هـ / ٧٤٨ م) رسالة في الرد على المسلمين تجرى على هذا النهج : إذا قال لك العربى كذا فأجبه بكذا .

وأغلب الظن أن كثيراً من آرائه في هذا الحوار ، وفي مذهبه في القضاء والقدر ، وحرية الإرادة ، قد تسربت إلى المسلمين ، لأن بعض مناقشاته كانت تدور في مجالس الخليفة .

وكان من أثر هذا كله أن تطور الفكر العربى ، فظهرت أوان جديدة من الثقافة يمزج بعضها بعضاً ، وكانت يتابع هذه الثقافة عربية وإسلامية ودخيلة ، وصار بعض المسلمين الذين حلوا ألوية التفكير على صلتها وشبه وثيقة بهذه الثقافات ، واستعانوا بها في مجادلاتهم لليهود والنصارى وغيرهم ، وكان المعنزة أقدر المسلمين على هذه المجادلات ، لأنهم في طبيعة الدارسين

الفلسفة وللعلوم المختلفة ، شغفًا بالعرف ، ورغبة في الإحاطة بما بعلمه خصوصهم ،
وليستطيعوا محاجتهم ومناظرتهم ، وليؤيدوا أصول الإسلام بأدلة ليست من
القرآن والحديث يضطر أعداء الإسلام إلى التسليم بها .

هذا قال الجاحظ^(١) : « لا يكون التكلم جامعًا لأفكار الكلام ،
متمكنًا في الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين
في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما » .

وذكر القرظي أن المأمون بعث إلى بلاد الروم من عربوا له كتب الفلاسفة ،
فقرأها المعتزلة ، وأقبلوا على تصحيحها والنظر فيها ، فاشتد ساعدهم بها^(٢) .

وجاء في وصف المرتضى لواصل بن عطاء أنه ليس أحد أعلم بكلام الشيعة
ومارقة الخوارج والذهرية والرجئة وسائر المخالفين ورد عليهم من واصل^(٣) ،
وقوله إن جعفر البرمكي ذكر أرسططاليس فقال النظام قد قصت عليه كتابه ، فقال
جعفر : كيف وأنت لا تحسن أن تقرأ فقال أيما أحب إليك ؟ أن أقرأ من أوله
إلى آخره أم من آخره إلى أوله ؟ ثم اندفع يذكر منه شيئًا فشيئًا ، وينقضة عليه ،
فمجب منه جعفر^(٤) .

وذكر الشهرستاني عند قول المعتزلة بنفي الصفات القديمة أن هذه المقالة
كانت في مبدأ الأمر غير نصيجة ، وكان واصل بن عطاء يذهب إلى أن من
أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين ، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة
كتب الفلاسفة ، وأنهى نظرهم إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالمًا قادرًا ،
ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان ، أو حالان ، وقال أبو الحسن البصري إلى ردهما

(١) الحيوان ٢/١٤٤

(٢) الخطاط ٤/١٨٣

(٣) اللبنة والأمل ١٨

(٤) للمرجع السابق ٢١

إلى صفة واحدة وهي العالمية ، وذلك عين مذهب القلاصف (١).

ومعنى هذا أن تيارات عدة من النصرانية الفلسفة ، ومن الفلسفة النصرانية ، ومن اليهودية وغيرها تسربت إلى المسلمين الباحثين ، وإلى المسلمين الذين يدافعون عن الإسلام ، أو عن رأى من الآراء المذهبية .

وهذا فى رأى كرونر هو التعليل الذى يجب أن يفسر به التشابه البين الذى يلاحظه فى مظاهر المسيحية البين لطية والتعاليم الإسلامية .

إن البحث فى كنهه الله وحضاته هو أول شئ ، له المقام الأول فى مؤلفات آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين المسلمين ، وهؤلاء المسلمون سفلوا أنفسهم إلى حد كبير بالأبحاث التى تدور حول القضاء والقدر والإرادة ، متلهم فى هذا مثل آباء الكنيسة الشرقية . ثم بفعل فون كرونر رأيه بعد ذلك فى الصلات والمشاهمات التى بين الكنيسة الشرقية والإغريقية فى الشام وبين المرجئة والقدرية (٢).

أما فى العراق فإن التشابه قوى بين آراء المعتزلة التى غرس الحسن البصرى غراسها الأول وبين آراء النساطرة الدينية الناطرة بالفلسفة الإغريقية ، وهذا يقول دى بور : « هناك دلائل متفرقة على أن حطافة من المسلمين الأولين الذين قالوا بالاختيار تتلمذوا لأساتذة مسيحيين » (٣).

وقد يبرز هذا ما قبل من أن أول من تكلم فى القدر نصراني من العراق أسلمه ، ثم عاد إلى نصرانيته ، وأخذ عنه مريد الجوهنى وشيخان الدمشقي القندري ، ومما من المرجئة (٤).

(١) الملل النحل ١ / ٥٩

(٢) الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ٦٦ فون كرونر .

(٣) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ٤٩ دى بور

(٤) شرح العيون ١٦٦ لا بن نيابة وضحيج مسلم كتاب الإيمان

ويروى أن الجعد بن درهم أول من تكلم في خلق القرآن بدمشق ، ثم طلب
 فهرب حتى نزل الكوفة ، فتعلم منه الجهم بن صفوان ، ويقال إن الجعد أخذ
 آراءه عن أبيان بن سحمان ، وأبان كان تلميذا طائوت ، وطائوت كان تلميذا لحقمة
 لبند بن الأعصم اليهودي ، وكان طائوت يقول بخلق التوراة وكان زنديقا^(١) ،
 وهو أول من صنف في ذلك ، ثم أظهر الجعد بن درهم هذه الآراء ، فقتله خالد
 القسري بالكوفة في عهد هشام بن عبد الملك ، كما قتل في عهده غيلان الدمشقي
 لأنه كان قدريا^(٢) ، وقد كان الجعد من المرجئة وهم - كما سبق - أصل المعتزلة .
 ثم طلمت المعتزلة مثل أبي الهذيل العلاف والنظام ومعتز بن عباد والجاحظ
 كتب الفلاسفة في زمن المأمون ، واستخرجوا منها ما خاططوه بأوضاع الشرع ،
 وتسميت مباحثهم ، وتنوعت آرائهم ، فسميت بحوثهم بعلم الكلام^(٣) .
 وقد أكد دي بور أن مذاهب المتكلمين تأثرت بموايل مسيحية أباغ التأثير ،
 فتأثرت العقائد الإسلامية في تسكونها بمذاهب النكانية واليعاقبة في دمشق ،
 كما تأثرت في البصرة وبغداد بالمذاهب النطورية والغنوسية ، ولم يخلص إلينا
 إلا القليل من الآثار المكتوبة المتعلقة بتلك الحركة في أوائل نشاطها ، غير أننا
 لا نخطئ الصواب إذا قلنا إن اختلاط المسلمين بالمسيحيين وتأثيرهم العلم عنهم في
 المدارس كان له عظيم الأثر في ذلك .

ونحن نجد بين مذاهب المتكلمين الأولى في الإسلام وبين العقائد المسيحية
 شجها قويا لا يستطيع أحد معه أن ينكر أن بينهم اتصالا مباشرا ، وأول مسألة
 قام حولها الجدل بين علماء المسلمين هي مسألة الاختيار ، وكان المسيحيون الشرقيون
 يكادون جميعا يقولون بالاختيار^(٤) .

(١) ابن الأثير ٧ / ٢٦

(٢) سرح الميرون ١٦٨ وابن الأثير ٥ / ١٩٦

(٣) الفرق بين الفرق ١٠٩ وقد العلم والعلماء ١٠٢

(٤) تاريخ الفلسفة في الإسلام ٤٨

ولكن المعتزلة مع هذا كما كانوا يستنبطون أصول آرائهم إلى التي عليه الصلاة والسلام ، لأنهم يستقون من واصل بن عطاء ومن عمرو بن عبيد . وهذا أحدنا عن محمد بن علي بن أبي طالب وابنه أبي عايشة عبد الله ، وقد أخذ محمد عن أبيه علي ، وأخذ علي عن رسول الله ، ويقولون إن محمد بن علي هو الذي روى واصل بن عطاء وعطاء وخرجه كما رووا أخباراً شتى تعزز مذهبهم . منسوبة إلى أبي بكر وعمر وعثمان والحسن وابن عباس (١) .

كما أنهم أولوا الآيات القرآنية تأويلاً يوافق مذهبهم ، ويؤيدهم في الرد على مخالفيهم ، وفي نقض الشبه التي أثارها خصوم الإسلام ، لأن القرآن هو القانون الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل (٢) .

أما دفاع المعتزلة عن الإسلام فقد بدأ من عهد مبكر ، منذ روى واصل بن عطاء على مخالفي مذهبهم ، وهو في الثلاثين من عمره ، وذكر عمرو الباهلي أنه قرأ الجزء الأول من كتاب ألف مسألة في الرد على المانوية من تأليف واصل ، وأحصى في ذلك الجزء أيضاً ثمانين مسألة ، وذكر مناقشات أبي الخليل العلاف مع الحسن والثوبية وغيرهم طويلة مفصلة ، ويقال إنه أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف رجل (٣) .

وللجاحظ في هذا الميدان بلاء عظيم ، فقد رسالة في الرد على النصاري (٤) ، وله كتاب في الرد على الرافضة (٥) ، وله ردود ومناقشات شتى في كتاب-

(١) النية والأمل ٤

(٢) الكشاف ١ / ٤٨٨

(٣) النية والأمل ٢١

(٤) ضمن مجموعة (الثلاث رسائل الجاحظ) شرحها يوشع فinkel

(٥) ذكره الجاحظ في رسالة بيان مذاهب الشيعة ١٨١ من مجموعة رسائل الجاحظ

الحيوان ، كرده على الجحوس في إنكار عذاب النار^(١) ، ورده على زرادشت في تحريف أصحابه بالنبرد والتلج^(٢) ، وإبطاله لإنكار الدهرية ملك سليمان ومملكة سبأ^(٣) .

وللمعتزلة بعامتهم جهد عظيم في بعض آراء الرافضة ، يمثل في المناظرة تارة ، وفي تأليف المسائل والكتب تارة ، كما فعل ابن النطاط في كتابه الانتصار .

أصول المعتزلة وكيف أيدها

للمعتزلة أصول فام عليها مذهبهم^(١) ، وقد أيدها الزرخشري بكل ما استطاع من فكر وبيان ، وأوّل الآيات القرآنية بما ينفق مع هذه الأصول ويؤكددها .

(١) التوحيد

للمؤمنون جميعاً موحدون ، لا يشركون مع الله أحداً ، ولكن المعتزلة وصلوا بتوحيدهم إلى حد التفاسف ، وبنوا عليه أموراً لم يكن أحد من المسلمين يعرض لها .

فقد وجدوا في القرآن الكريم آيات تنزه الله عن المشابهة ، وآيات تدلّ ظاهراً على التجسيم ، ورأوا آيات تدلّ على أنه تعالى ليس في جهة أو مكان . وآيات يفهم من ظاهرها الجهة والمكان .

(١) الحيوان ٥ / ٦٩

(٢) الحيوان ٥ / ٦٨

(٣) الحيوان ٥ / ٨٥

(٤) النية والأمل ٦ والمال والتعل ١ / ٤٩

وكان كثير من المسلمين يبرهون الله عن الماتلة ، ويسكون عن الكلام في الآيات التي يدل ظاهرها على الماتلة ، مؤثرين البعد عن التأويل .

أما المعتزلة فلم يرضوا هذا الماتلة ، وجمعوا يؤولون الآيات التي يفهم من ظاهرها التجسيم أو الحلول في جهة أو مكان تأويلات يتفق وتقر به الله سبحانه عن المشابهة ، حتى روى أن النظام ناجى ربه بقوله وهو يحتضر : اللهم إن كنت تعلم أني لم أقصر في نصر توحيدك ، ولم أعتقد مذهباً من المذاهب العظيمة — يريد الفلسفية — إلا لأشد به التوحيد ، فما كان منها يخالف التوحيد فأنا منه بريء ، اللهم فإن كنت تعلم أني كما وصفت غافقراً في ذنوبي ، وسهياً على سكرة الموت ^(١) .

وينوا على هذا التوحيد كثيراً من المعتقدات .

١ — فنفخوا عن الله الصفات المستقلة القديمة ، وقالوا إنه عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته ، وليست الحياة والقدرة والعلم صفات غير ذاته ، بل هي صفات قديمة ومعان قائمة به ، لأنها لو شاركته في القدم لكان هو أحسن الوصف لشاركته في الألوهية ، وهو سبحانه منزّه عن التشيّل ، لأنه القديم الأزلي وما سواه محدث ، فلا يصح أن تكون له صفات أزلية منفصلة عنه ، لأن القول بها تعدد .

ولهذا سموا أنفسهم أهل التوحيد ^(٢) .

ويتصل بالتوحيد رد الصفات كلها إلى كونه علماً قادراً ، والحكم بأنهما صفتان ذاتيتان أو اعتباران للذات القديمة أو حالان ^(٣) .

(١) الانتصار للخط ١

(٢) الملل والنحل ١ / ٤٩

(٣) الملل والنحل ١ / ٥٩

وذكر الشهرستاني من آراء أبي الهذيل العلاف — وهو من شيوخ المعتزلة — أنه انفرد عن أصحابه بقواعد منها أن الباري تعالى عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، قادر بقدرته ، وقدرته ذاته ، حي بحياة ، وحياته ذاته .

وعقب الشهرستاني بقوله : إنما انتمس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه ، وإنما الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته ، بل هي ذاته ثم قال : وإذا أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وحدها للذات ، فهي بعينها أظالم النصارى أو أحوال أبي هاشم^(١) .
٢ — ونفوا التشبيه عن الله سبحانه نقياً تماماً من كل وجهة ، مكاناً وجهة وصورة وجسماً وتبديراً وانتقالاً وتغيراً ، وأوجبوا تأويل الآيات التشبيهية ، وسماها هذا توحيداً^(٢) .

وقد حرص الرمخسرى على تأويل الآيات وفق هذه العقيدة فلم يدع شبهة يتعلق بها إلا مخاضاً .

فقال في تفسير قوله تعالى : « ولما جاء موسى ليقاتلنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظرك إياك » قال ابن ترائى^(٣) :

كلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك ، وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح ، وروى أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة .

وعلى ابن القيم بقوله^(٤) : هذا تصريح منه بخلق الكلام ، كما هو معتقد المعتزلة .

(١) لئال والنحل ١ / ٥٣ يريد أن أبا هاشم قل إن العلم والقدرة حلال للذات الإلهية .

(٢) لئال والنحل ١ / ٤٩

(٣) سورة الأعراف ١٤٣

(٤) سيأتي التعريف به في قيمة الكتاب وأثره

والذي يخص هذه الآية من وجوه ترد عليه أنها سبقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء الله له وتخصيصه إياه بتكليمه ، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها : « إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ » فهو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف والأصوات في بعض الأجرام واستماع موسى لذلك لكان كل أحد يساوي موسى عليه السلام في ذلك ، بل كان آحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أثر بهذه المزية وأحق بالتخصيص من موسى ، لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاها خلقا في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت مرتبتهم أظهر وخصوصيتهم أوفر ، ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تميز موسى بهذه المزية ، فلا يخلل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها ، وكما أحرمنا من العقول أن يرى ذات الباري وإن لم يكن جسما ، فكذلك نجيز أن يُسمع كلامه وإن لم يكن حرفا ولا صوتا^(١).

وقال في تفسير قوله تعالى : « ثم جعلناكم فِئًا في الأرض لننظر كيف تعملون^(٢) » : أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكتكم ، لننظر أتعلمون خيرا أم شرا فنمهلكم على حسب عملكم .

فإن قلت : كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى التقابل ؟

قلت : هو مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشئ موجودا أشبه بنظر الناظر وعيان العاين في تحققه .

(١) الكشاف وهاشمه ١ / ٣٤٥

(٢) سورة براء ١٤

وعلق ابن المنير بقوله :

كنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى ، فضم
إلى ذلك إنكار رؤية الله ، واجمع بين هاتين الزعمتين عقيدة طائفة من القدرية
يقولون إن الله لا يرى ولا يرى ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا^(١) .
وقال في تفسير قوله تعالى « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها » وذروا الذين
يأيدون في أسمائه ، سيجزون ما كانوا يبتغون^(٢) » :

الله أحسن الأسماء ، لأنها تدل على معان حسنة من تجيد وتقديس وغير ذلك ،
فسموه بتلك الأسماء ، وتركوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها
فسموه بغير الأسماء الحسنى ، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه ، أو يأبوا
تسميته ببعض أسمائه الحسنى .

ويجوز أن يراد والله الأوصاف الحسنى ، وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان
والإتقان شبه الخلق ، فصفاها ، وذروا الذين يحدون أوصافه ، فيصفونه بمشينة
القبائح وخلق النجاش والذكر وما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها .

وعقب ابن المنير على هذا بقوله :

لا بدع حسو العقائد الفاسدة في غير موضع ، فإن يكن المراد الأوصاف
فالحسنى منها وصف الله بعموم القدرة والانفراد بالخلقوات حتى لا يشرك معه
عباده في خلق أفعالهم ، ويعظم الله تعالى بأنه لا يبأن عما يفعل ، وأن كل قضائه
عدل ، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوجهه الخلق مصلحة بعقولهم ، وأن وعده
الحق وقوله الحق ، وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها ، إلى غير ذلك من
أوصافه^(٣)

(١) الكشف وعامته ١ / ١١٦

(٢) - سورة الأعراف ١٨٠

(٣) الكشف وعامته ١ / ٣٥٨

وقال في تفسير قوله تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون^(١) : «نهبهم على عظمتهم وجلالته شأنه على طريقة التخييل، فقال «والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه».

والغرض من هذا الكلام إذا أخذه ككهو يحملته ومجموعه تصور عظمتهم، والتوقيف على كنهه جلالة لا غير، من غير ذهب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حكم ما روى أن جبريل جاء إلى رسول الله فقال: يا أيها الناس إن الله يسلك السموات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهرهن فيقول أنا الملك. فضحكت رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً لما قال، ثم قرأ تصديقاً له «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ» وإنما ضحكك أفصح العرب وتعجب، لأنه لم يفهم منه إلا ما لا يفهمه إلا علماء البيان من غير تصور يدراك ولا إصبع ولا هر ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزيادة والخلوص التي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التي تنحدر فيها الأفهام والأذهان ولا تسكنها الأوهام هيئة عليه هو أن لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا بإجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل، ولا ترى بها في علم البيان أدق ولا أرق ولا أنظف من هذا الباب، ولا أنفع وأعمق على تعاطي تأويل المستعجمات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإن أكثره تخيلات قدرات فيها الأقدام قديماً، وما أتى الزالون إلا من قلة عاشبتهم بالبحث والتفسير، حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم

كلها مفتقرة إليه وعيال عايد ، إذ لا يحمل عقدها الموربة ، ولا يملك قبورها
المنكوبة إلا هو .

و كم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيغ وسيم
الخلف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة ، لأن من أتول ليس من هذا العلم في
غير ولا خير ، ولا يعرف قبيلة من دينه .

وعقب على هذا ابن التبر فقل :

إنما عني بما أجراه هنا من لفظ التخييل التشييل ، وإنما العبارة موهمة
منكرة في هذا المقام ، لا تليق به بوجه من الوجوه ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » ^(٢) :

لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك مما يرادف الملك جعلوه
كناية عن الملك ، فقالوا استوى فلان على العرش ، يريدون ملكه وإن لم يقعد على
السرير البتة ، وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ومساواته ملك في مؤداه وإن
كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر ، ونحوه قولك يد فلان مبسوطة ،
ويد فلان مغولة ، بمعنى أن مجراد أو بخيل ، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قامت ،
حتى إن من لم يسط يده قط بالتوال ، أو لم تكن له يد ، قيل فيه يده مبسوطة ،
لمساواته عندهم قولهم هو جواد . وفي قول الله عز وجل : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ
اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ » ^(٣) « أَيْ هُوَ بَخِيلٌ » بل يده مبسوطة ^(٤) « أَيْ هُوَ جَوَادٌ مِنْ
غَيْرِ تَصَوُّرٍ بِذَوْلَاغِلٍ وَلَا بَسْطٍ ، وَالْتَفِيرُ بِالْفِعْمَةِ ، وَالْمَحَلُّ لِلتَّغْيَةِ مِنْ ضَيْقٍ

(١) الكتاب وحاشه ٢ / ٣٠٥

(٢) سورة طه ٥

(٣) سورة المائدة ٦٤

(٤) سورة المائدة ٦٤

المعطين ، واليعد عن علم البيان - ميرة أغوام ^(١) .

ولم يعلق ابن المنير على هذا بشئ .

وقال في تفسير قوله تعالى : « إِن الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ^(٢) :

أكد المبايعة على طريق التخييل فقال (يد الله فوق أيديهم) يريد أن يد رسول الله التي تعبر أيدي المبايعين هي يد الله ، والله تعالى منزّه عن الجوارح ، وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى تقرير عقد الشاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى : « مَنْ يَطْعَمْ الرَّسُولَ فَقَدْ اطْعَمَ اللَّهَ » ^(٣) . والمراد ببيعة الرضوان ^(٤) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ^(٥) : القرب هنا مجاز ، والمراد قرب علمه منه ، وأنه يتعلق بمعلومته منه ومن أحواله تعلقا لا يخفى عليه شئ من خفياته ، فكان ذاته قريبة منه ، كما يقال الله في كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة ^(٦) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَبَشَىٰ جَهَنَّمَ بَلَدُكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ^(٧) : وجه ربك : ذاته ، والوجه يعبر به عن الجلالة والذات ، ومساكين مكة يقولون : أَيْنَ وَجْهِ عَرَبِيٍّ كَرِيمٍ يَنْقُلُنِي مِنَ الْهَوَانِ .

(١) الكشف ٢٠/٢

(٢) سورة الفتح ١٠

(٣) سورة النساء ٨٠

(٤) الكشف ٢٨٣/٢

(٥) سورة ق ١٦

(٦) الكشف ٢٠٢/٢

(٧) سورة الرحمن ٢٧

وقرأ عبد الله (ذی الجلال) على صفة ربك، ومعناه: الذي يُجسّدُ الموجدون
عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم، أو الذي يقال له ما أجلك وأكرمك، أو من
عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده.

وعلق ابن المنير بقوله:

المعتزلة يشكرون الصفات الإلهية التي دل عليها العقل، فكيف بالصفات
السمعية؟ على أن من الأشعرية من حمل الوجه واليد والعين على نحو ما ذكر،
ولم ير أنها صفات سمعية^(١).

٣ — وأنكروا رؤية العباد لله بأبصارهم في الآخرة^(٢)، لأن الجسمية إذا
انقضت انقضت الجهة، وإذا انقضت الجهة انقضت الرؤية، وبهذا أولوا الآيات
والأحاديث، ونفوا بعض الأحاديث، لأنها أخبار آحاد.

وللمختشري في نفي الرؤية حديث طويل، منه ما ذكره عند تفسير قوله
تعالى: «وإلهاء موسى وكهده ربه»، قال رب أرني أنظر إليك، قال إن تراني
ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلّى ربه
للجبل جملة ذلك، وخر موسى صريعاً، فلما أفاق قال: سبحانك تبت إليك
وأنا أول المؤمنين^(٣).

أرني نفسك أنظر إليك، والرؤية عين النظر، فكيف قال أرني أنظر إليك؟
أي اجعلني متمكناً من رؤيتك بأن تجعلني لي فأنظر إليك وأراك.

وإذا كانت الطلّبة هي الرؤية لا النظر الذي لا إدراك معه، قال تعالى
(لن تراني) ولم يقل لن تنظر إلي.

(١) الكشف وحاشه ٢/٢٥٠

(٢) المثل والنحن ١/٤٩

(٣) سورة الأعراف ١٤٣

فإن قلت : كيف طلب موسى عليه السلام ذلك ، وهو من أعلم الناس بالله وصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وبمعاليه عن الرؤية التي هي إدرائت ببعض الخواص ، وذلك إنما يصح فيما كان في جبة ، وما ليس بجسم ولا عرض فحال أن يكون في جبة ، ومنع الجبرة إحالته في القول غير لازم ، لأنها ليست بأول مكبرتهم وإرتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد جاء في السورة نفسها : « واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجعة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبلي وإياي ، أهلكنا بما فعل السفهاء منا » إن هي إلا فلتتك حصل بها من تشاء ، وتهدى من تشاء ، أنت ولينا ، فاعقر لنا وارحنا وأنت خير العاقرين » ^(١) فتبرأ من فعلهم ، ودعاهم سفهاء وضلالاً ؟

قلت : ما كان طلب الرؤية إلا ليبيكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً وتبرأ من فعلهم ، وليلقمهم الحجر ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكر عليهم وأعلمهم الخطأ ، ونههم على الحق ، فنجوا وتنادوا في لججهم ، وقتلوا الأبد ، وإن تؤمن لك حتى رأى الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستعانة ذلك ، ليتبينوا ، وبتراح عنهم ما دخلهم من الشبهة ، فلذلك قال رب أرني أنظر إليك ، وإذا كان في هذا الرذجر لموسى عما طلب ، وإنكار عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى كانوا هم أولى بالإنكار .

وجاء النفي بـ « إننا كيد النفي في المستقبل كقوله تعالى « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلصوا ذنباً ، ولما اجتمعوا له » ^(٢) ، فقوله « لا تدركه الأبصار » ^(٣) » نفي الرؤية فيما يستقبل ، (وإن تراني) كيد وبيان ، لأن النفي مضاف لصفاته ، فإن قلت : كيف اتصل الإدراك في قوله (ولكن انظر إلى الجبل) بما قبله ؟

(١) سورة الأعراف ١٥٥

(٢) سورة الحج ٢١

(٣) سورة الأنعام ١٠٣

فأت : فصل به على معنى أن النظر إلى محال فلا طلبه ، ولكن طلبت
بغير آخر ، وهو أن تنظر إلى الجبل الذي أرجف بك وعن طلبت الرؤية لأجابه
كيف أفعل ، وهو كيف أجعله ذلك بسبب طلبت الرؤية ، لتعظيم ما أقدمت عليه
بما أراك من عظم أمره ، في عر وعلا حقق عند طلبت الرؤية ما فعله عند أسبه
الولد إليه في قوله : « وتخي الجبال هذا أن ذنوا بالرحمن ولها »
وقد خلق وجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار الجبل مكانه حين
يدكه ويسويه بالأرض

وهذا كلام مدمج بمعه في بعض وارد على أسلوب عجيب ونقط يدع
ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النجار بكلمة الاستدراك ، ثم كيف بين
الوعيد بالرجفة الكلمة سبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية ،
أعني قوله « فإن استقر مكانه فسوف تراه » فلما تجلى ربه للجبل ، وظهر له
القدرة ، ونصدي له أمره وإرادته ، جعله مذكم كدوخر موسى مفشي عليه من هول
ما رأى ، فلما أفاق من ضعفه قال : سبحات أنزهك عما لا يجوز عليك من الرؤية
وغيرها ، أي من طلب الرؤية ، وأنا أول المؤمنين بأنك أنت بمرئي ولا بدرك
بشيء من الخواص .

فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية ، وكيف أرجف الجبل
بما فيها ، وجعل ذلك ، وكيف أحققه ، ولم يخل كلمة موسى من تقيان ذلك
مبالغة في إعظام الأمر ، وكيف سبح ربه ملتجئ إليه ، وتاب من إجراء تلك
الكلمة على لسانه ، وقال أنا أول المؤمنين .

ثم تعجب من التسمين بالإسلام لتسمين بأهل السنة والجماعة كيف

أحمدوا هذه العطية منكم ، ولا يغربك استمرهم بالسكفة^(١) ، فإنه من منضوبات أشياخهم ، والقول ما قال بعض العدلية فيهم :

لجاعة نضوا هواهم سنة وجاعة حمر نعصرى موكدة
ولقد شبهوه بخلقه ونحوقوا شمع الورى ففسدوا بالبلابة^(٢)
ولم يرتض أهل السنة هذا الرأى ، فردوا عليه .

قال أبو زكريا يحيى بن عاصم - من تلمذ - فى رده على هذين البيتين :

قل للذى تسمى الهداة أولى النهى نحر الآن سائب الخدى والمعروف
فقدما يُجَجِّجُ الاعتال جهالة ويروقه زور الضلال وزخرفه
سوقت ذم جماعة سنية قد أحرزوا من كل فضل أشرفه
هم شيعة الحق الذى ما بعده إلا مهابدى فى الضلالة مشبهه

وقال القاضي أبو حفص بن عمر فى هذا أيضاً :

أجهلهم صفة الإله وفعله ونسبهم لغیره بالزخرفه
وأودهم تزييه فافهم فى الشرك والإلحاد ولأمر السنة
خاتمهم سنن النبى وصحبه وتبعوه فى الزيف أهل الفاسقة^(٣)

وعلق ابن القيم شوله :

ما أهد ما اضطرب كلامه فى هذه الآية ، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة ، ويشين سكفة وجد الغرالة . عيها ، قد تبين الصبح لدى عيني ، فالحق أبلغ لا يمازجه ريب إلا عند ذى رين .

(١) السكفة : يريد أنهم يقولون إن الله يرى بلا كيفية

(٢) السكفة : ٣٤٦

(٣) الرحلة القروية : ٢٠

أما حظ العقول من إجازة رؤية الله تعالى فهو خوفة علم الكلام ، وأخصر وجه في إجازة ذلك أن الوجود مصحح الرؤية ، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستلزم مصححا ، وقد شمل الجواز والطهر ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححا سوى الوجود ، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجودة .

وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة فأمرو وهي مثله عرض المعطلة ، فعميت أبصارهم حتى أنكروا موجودا إلا في جهة ، ومن اتبع الأوهام انفسق مبهمة الضلال وهم ، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرمى لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف ، ولا خلاف أنه سبحانه يعرّفنا لا في جهة ، فكذلك يرى لا في جهة ، فخلق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه . فعلمه بجواز ذلك على الله تعالى .

والقدرة يحرمهم الطمع حتى يروموا أن يجعلا موسى عليه السلام كان على مستندهم ، وما هم حينئذ إلا من آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيبا .

وأما قول موسى : « تُبَيِّنْ لَنَا بِمَا فَعَلَ الشَّيْطَانُ مِنَّا ۚ » تبيّنوا من أفعالهم ، وتبينها لهم وتضليلا لأبصارهم ، فلا راحة للقدرة في الاستشهاد به على إسكار موسى لجواز الرؤية ، فإن الذي كان الإهلاك بسببه إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين .

ثم إن كان السبب طلبهم الرؤية فليس لأنها غير جائزة على الله ، ولكن لأن الله تعالى أخبر أنها لا تنفع في دار الدنيا ، وانغير صدق ، وذلك بعد سؤال موسى الرؤية ، فما سألوا وقد سمعوا انغير بعدم وقوعها كان طلبهم خلاف

للعلم تكذبا فخير ، فمن تم منهم موسى ونبرا من طلب ما أخبر الله أنه لا يقع .

ولو كان سؤالهم عن الرواية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها فإنما سئلهم موسى عليه السلام لا قتراحهم على الله هذه الآية الخاصة وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا ان تؤمن لك حتى نرى الله جبهة ، ألا ترى أن قولهم : « ان تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينوعا »^(١) إنما سألوا فيه جانبا ، ومع ذلك قرعوا به لا قتراحهم على الله مالا يتوقف وجوب الإيمان عليه .

فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر المشركي بعين الهوى ، وعمايته عن دليل الهدى . وأما زعمه أن موسى طلب الرواية لهم ، فإنه مردود بأنه لو كان طلب الرواية لهم حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أبتنوا أنها ممنوعة لكان طلبها عبثا غير مفيد ، لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم إنما أن يكونوا مؤمنين بموسى أو كفارا به فإن كانوا مؤمنين به فلنخاره بإيم بأن الله تعالى لا يرى ولا يحور عليه ذلك كلف في حصول القصود من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يريه ذاته على علم بأن ذلك محال ، وإن كانوا كفارا بموسى فلا يحصل الغرض من ذلك أيضا ، لأن الله إذا منعه مستواه فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى أنه منعه ذلك ، وهم كفار بموسى ، فكيف يقدمهم غيره عن الله بأنه متناع ذلك ؟

فهذا أوضح مصداق لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرواية لنفسه اعتقادا بخوارها ، فأخبر الله أن ذلك لا يقع في الدنيا وإن كان جانبا .

أما قوله إن (لن) تؤكد النفي فإنها كذلك ، ولكن استنباطه مستغلة الرواية حال الباري عز وجل ، واستشهاد على أنها شعير باستحالة النفي عنها

عقلا ، مردود بكثير من الآيات ، كقوله تعالى : « قل إن تخرجوا معي أبداً ^(١) » فذلك لا يحيل خروجهم عقلا ، وقوله : « إن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ^(٢) » و : « إن تقهقروا ^(٣) » فهذه كلها جازات عقلا ، لولا أن الخبر منع من وقوعها ، فالرؤية كذلك .

وأما قوله إن الله حقق عند طالب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه ، فإنه مفرغ على المعتقد الصائب بطلانه ، وليس له في هذا الفصل وخيفة إلا تنبع الشبهة لامتناع الرؤية تلقفها من كل فج .

والحق أن ذلك الجبل إنما كان لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء ، ولا يستقر الدنيا من إظهار شيء من ملكوت السماء ، وهذا هو المآل من السلف في هذه الآية ، ومعناه عند أبي الحسن (الأعمري) رحمه الله فعل فعلا جاء تخيلا ، وكان الغضب إنما لأنهم طابوا رؤية جسمه في جهنم ، وإما لأنهم كسروا الخبر بأنه لا يرى في الدنيا ، وإما لأنهم كفروا بالافتراح أو بالجموع .

وأما قوله إن الله تعالى خلق وجود الرؤية على وجود ما لا يكون من استقرار الجبل ، فإنه من حيل القدرية في إحاطة الرؤية ، يقولون قد علمها الله على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكمه ، والعلق على الخلق محال . وهذه حيلة باطنية ، فمن العلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار ، وذلك ممكن وجوه ، وعلق العلم لا يغير المعلوم ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس ، وحيثما يتوجه دليلا لأهل السنة فنقول إن استقرار الجبل ممكن .

(١) سورة النوبة ٨٣

(٢) سورة مود ٣٦

(٣) سورة الفتح ١٥

وقد سبق عليه وقوع الرؤية ، والمعلق على الممكن ممكن ، والمتميزة يعتقدون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدورا ، ونحن نقول مقدورا ، ولكن الشبهة لم تتعلق بإيجاده .

وأما نوبة موسى وتبيحه فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا .

ثم حتم رده بأنه مضطر إلى أن ينافح عن أصحاب سنة ، رسول الله كنافح حسان بن ثابت أعداء رسول الله ، وذكر هذه الآيات المناقضة لنتيئة الرخصى :

وجماعة كفرا برؤية ربهم حقا ، وزعموا أن الله ماله خلقه

والتقوا عذلية قلنا أجل عدلوا بربهم فحسبهم منة

وتلقوا الناجين كلا إنهم إن لم يكفوا في لقى فعلى شفة^(١)

وقال في تفسير قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » وهو يدرك الأبصار ،

وهو اللطيف الخبير^(٢) البصر هو الجوهر النظيف الذي ركبته الله في حاسة

النظر ، يدرك البصرات ، فالعنى أن الأبصار لا تتعلق به ، ولا تدركه ، لأنه

متعال أن يكون مبصرا في ذاته ، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا

أو تبعا كالأجسام والبهائم ، وهو للصف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر

اللطيفة التي لا يدرك مدرك ، وهو ينطق عن أن تدركه الأبصار ، الخبير بكل

لطيف ، فهو يدرك الأبصار^(٣) .

وعاق ابن المنير على هذا بقوله :

يريد الرخصى من الإدراك الإحاطة ، ومنه « حتى إذا أدركته

(١) هامش الكتاب ١/٣٤٦

(٢) سورة الأنام ١٠٣

(٣) الكتاب ١/٣٠٥

المرق^(١) أى أحاط به ، و « إنا لم نكن »^(٢) أى لم نحاط به ، فلتنبى إذا
عن الأبصار إحاطتها به عز وجل ، لا مجرد الرؤية . ثم إما أن يقتصر على أن
الآية لا تدل على مخالفتها أو تزيد فنقول : يدل لما أن تخصيص الإحاطة بالنبي
يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك وأقله مجرد الرؤية ، كما أن
نقول لا تحيط به الأفهام وإن كانت المعرفة بمجرد ما حاصلته لكل مؤمن ،
فالإحاطة لاقتل متفية كفى الإحاطة لبعض ومادون الإحاطة من المعرفة للعقل
والرؤية للحس ثابت غير منفي .

وبذلك ذكر المفسرى على إحاطة الرؤية عقلا وليلا ولا شبهة ، فيحتاج إلى القدر
فيه ، ثم معارضته بأدلة الطوار ، ولكنه يقتصر على استبعاد أن يكون المرئى
لا فى جهة ، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود لا فى جهة ، إذ
أباه الوهم بعدد ما جميعا ، والالتفات إلى العقل يبطل هذا الوهم ويغيرها معا^(٣) .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وَجُودٌ يَوْمَ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَظَرَةٌ »^(٤) :
تنظر إلى ربها خاصة ، واختصاصهم بالنظر إليه محال ، فوجب جماعه على
معنى يصح معه الاختصاص ، والذي يصح معه أن يكون من قول الناس أنا
إلى فلان ، أنظر ما يصنع فى ، تريد معنى التوقع والرجاء . ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدنى نعماً
والعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا فى
الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه^(٥) .

(١) سورة يونس ٩٠

(٢) سورة الشعراء ٦١

(٣) هامش الكشف ٣٠٥/١

(٤) سورة القيامة ٢٢

(٥) الكشف ٥٠٩/٢

٤ - والتفتي فمهم للصفات الأزلية ومنها الكلام أن يدعوا بأن القرآن كلام الله خالفه بعد أن لم يكن ، حتى لا يشاركه شيء في القدم ^(١) . وقد اعتقد الخليفة المؤمن هذا الرأي ، وحل الناس على أن يدعوا له ، وعذب كثيرون من العلماء مثل أحمد بن حنبل ، ووجه كتابا إلى إسحاق بن إبراهيم سنة ٢١٨ هـ بأمره فيه أن يحتج القضية في خلق القرآن ، يقر منهم على منصفه من يوفق أي الخليفة ، ثم أأمرهم بقبول شهادة من يدين به ، ورفض شهادة من لا يدين به ^(٢) .

ومازال الخلاف بين المعتزلة والسنة محمدا حتى ظهر الأشعري (المتوفى سنة ٣٣٠ هـ) فذهب إلى أن كلام الله خلق إلهي كقولهم في الإنسان ، فسمى الإنسان متكلما باعتبارين : أحدهما بالصوت والآخر بكلام النفس الذي ليس بصوت ولا يحرف ، وهو المعنى القائم بالنفس المعبر عنه بالألفاظ . وانتقل من هذا إلى أن كلام الله يخلق بهذين الإلهيين ، المعنى النفسي وهو القائم بالله ، وهو الأول القديم وهو لا يتغير بتغير العبارات ، وهذا هو الذي يطلق عليه كلام الله حقيقة ، أما القرآن . بمعنى المقروء المكتوب فهو كما يقول المعتزلة حادث مخلوق ^(٣) .

ثم جاء الزمخشري فدافع عن عقيدة المعتزلة ، فقال في تفسير قوله تعالى : « قل اجتمعوا إلى الله والحق على أن أتوا بما قال هذا القرآن لا أتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ^(٤) .

والعجب من النواصب ومن زعمهم أن القرآن قديم ، مع اعترافهم بأنه معجز ، وإنما يكون المعجز حيث تكون القدرة فيقال لله قادر على خلق الأجسام

(١) اللؤلؤ والنحل ١/٩٩

(٢) تاريخ الخلفاء ١٠/٢٤٨

(٣) مخي الإسلام ٢٢/٣ - ٤١

(٤) سورة الإسراء ٨٨

والعباد عاجزون عنه ، وأما الخيال الذي لا محال فيه ، القدرة ولا مدخل لها فيه
كشأن القديم ، فلا يقال للخال قد عجز عنه ، ولا هو معجزة ، ولو قيل ذلك
جاز وصف الله بالعجز ، لأنه لا يوصف بالقدرة على الخال ، إلا أن يكابروا
فيقولوا هو قادر على الخال ، فإن رأس ما هم الكابرة وقلب الخفايا .
وعلق ابن المنير بقوله :

ما يدلك على جحد الزمخشري عن سنن الإصناف أنه تدّس على الضعفاء
في مثل هذه المسألة التي طبقت الأرض ظهوراً وشبهوا ، ومع ذلك يرمى لنفسه
أن يتجاهل عن معتقد القوم ، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات
صفة قديمة دائمة بذات الباري تعالى يطلق عليها قرآن ويطلق أيضاً على أدائها
وهي هذه السمات الفصيحة والآي الكريمة قرآن ، وأن المعجز عندهم
الدليل لا المدلول ، لكنهم يشعرون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين :
أحدهما أنه إطلاق موهوم ، والثاني أن السلب الصالح كقولهم عنه ، فانتفوا
آثارهم ، واعتصموا بأمرهم ، وكمن معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام
غيره بما لا يجوز اعتقاده ، فلا ربط بين الاعتقاد والإطلاق ، ولا كرامة
لمعتقد ذلك والتعنّت بالرأيه ^(١) .

(٢) العدل

من الأصول المهمة للمعاصرة وصف الله تعالى بالعدل ، كما وصفوه بالوحداية ،
ولهذا سموا أنفسهم أهل العدل والتوحيد .
وإذا كان المعاصرة قد سموا أنفسهم فيها يتصل بالتوحيد فهم قد اعتصموا
فيها يتصل بالعدل ، وشققوا منه عدة مباحث :

١ — فائدة سبحانه وتعالى عادل ، والنظم مني عنه ، قال تعالى : « وما يهلكنا من الظالمين »^(١) وقال تعالى : « فما كان الله ليظلمهم » ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »^(٢) .

٢ — وهو سبحانه يريد لعباده خير ما يكون .

٣ — ولا يريد الشر ولا يأمر به .

وذلك أن يريد الخير خيراً ، ويريد الشر شراً ، فلو كانت إرادة الله متعلقة بكل ما في العالم من خير وشر لكان الخير والشر مرادين له ، فيكون المريد موصوفاً بالخيرية وبالشرية ، وذلك محال على الله .

ولهذا قلوا إن الله أراد ما كان من الأحوال خيراً أن يكون ، وما كان شراً ألا يكون ، وما لم يكن خيراً ولا شراً فهو تعالى لا يريد ولا يكرهه ، ومعنى هذا أن الله يريد لنا أمراً من الطاعات أن يكون ، فهو يريد منا الصلاة والزكاة ، ولا يريد منا المعاصي ، وأما المباحات فلا يريدنا ولا يكرهها .

وأما غير المعترلة فيعتقدون أن الله يريد لجميع ما كان . خير يريد ما لم يكن ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وينبئ على هذا أن كفر الكفار وعصيان العصاة لم يرده الله في رأي المعترلة ، وأراده في رأي غيرهم .

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى « إن شر الناس الذين اتبعوا عند الله الضم البكم » الذين لا يعقلون . ولم يعلم الله فيهم خيراً لا شراً ، ولو أسمعهم لتوئزوا وهم معرضون »^(٣) .

(١) سورة فصلت ٤٠ .

(٢) سورة الروم ٩ .

(٣) سورة الأنفال ٢٤ .

إن شر من يذب على الأرض أو إن شر البهائم الذين هم سمي عن الحق لا عقوبته . ولو علم الله في هؤلاء الصم البكم انقطاعاً باللفظ للفظ بهم حتى لا يسموا سماعاً لصدقين . ولو اظف بهم لما دفع فيهم اللطف : فذلك منعهم بإطافه : أو ولو لطف بهم وحملوا الارادتوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا .

وعاقب ابن المنير بقوله :

إطلاق القول بأن الله تعالى بلطف بالعبد فلا يرفع لفظه مردود ، فإن اللطف هو إهداء الخليل والإطاف به ، واسمه اللطيف من ذلك ، فإذا أسمى الخليل إلى العبد بأن أسماه إسماع لطف به فذلك الغاية المرجوة . ومعنى اللطف به على هذا أن يخلق في قلبه قبول الحق وحبس الإسماع إليه والاعتقاد به . ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال والرأى الفاسد في خلق الأفعال . لأن مقتضاها أن العبد هو الذي يخلق لنفسه قبول الحق والهداية وحبس الإسماع والإسماع ، وأن الله تعالى لا يشارك العبد في خلق ذلك ، بل الذي ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق . ولا يلزم حصول مراده على العموم ، ولو نزل منزل على هذه القاعدة لما استقام تأويل الرخصى أيضاً ، فإن حاصله ولو علم الله فيهم خيراً فاعطف بهم ، ولو اعطف بهم لما انتفعوا باللطف ، فيلزم عدم انتفاعهم باللطف على تقدير علم الله الخير فيهم ، وهذا غير مستقيم . لما يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى ، وذلك محال عقلاً .

فلا يرتفع الإشكال إلا بتقدير الإسماع الواقع جواباً أولاً . خلاف الإسماع الواقع شرطاً ثانياً ، كيلا ينكروا الوسط فيلزم الحلال المذكور ، وأقرب وجه في اختلاف الإسماعين أن يراد بالأول ولو علم الله فيهم خيراً لا يسموهم إسماعاً يخلق

طهارة الهداية والقبول. وهو أجمعهم إجماعاً مجرداً من ذلك لتولوا وهم معرضون ،
فيهذا هو الوجه في تأويل الآية (١) .

٥ — ولم يخلق الله أفعال العباد لأخيراً ولا شراً . وإنما يعملون أعمالهم
أحراراً ، فيثابون على الخير ويعقبون على الشر .

٥ -- واستهوا من هذا إلى نظرية الإصلاح والأصلاح ، ومفناها أن الله
يفسد من أعماله نفع عباده ومصلحتهم . وذهب بعض المعتزلة إلى أن رعاية الله
لمصالح عباده واجب عليه ، ولم يكتف بعضهم بهذا فقالوا إن الواجب عليهم رعاية
الأصلح .

وقد وفقهم في جوهر الفكرة بعض المعتزلة ، واسكنهم عابوا عنهم تعبيرهم
بالوجوب . ورأوا أن الأقرب إلى الأدب التعبير أن هذا هو القانون أو النظام
الذي يقصد الله إليه في أعماله .

وخالفهم فريق كبير ، ورأوا أن أفعال الله ليست معللة بغرض ، وليس
الناشئة عنها غاية ، بدليل أن في العالم شروراً كثيرة وممارقات شق ، كالمقبر
والمرض ، ولا يمكن تفسير ما فيها من المصاحبة .

قال الرافضى في تفسير قوله تعالى : « وعلى الله قصص السبيل ، ومنها
جائر » ، ولو شاء لهذا كم أجعين » (٢) :

معناه أن هداية الطريق لموصل إلى الحق واجبة عليه ، كقوله « إن عبداً
للله لى » (٣) فإن قلت : لم خير أسلوب الكلام في قوله (ومنها جائر) ؟

(١) الكتاب واحد ٥٧٠/١

(٢) سورة النحل ٩

(٣) سورة الليل ١٢

قلت : ليعلم عاريجوز بأضيقه إليه من السبيبان وما لا يجوز ، ولو كان الأمر كما تزعم الجبهة لقال : وعلى الله قصد السبيل وعليه جازرها أو وعليه الجائر .
وهو أ عبد الله (ومنكم جائر) يعنى ومنكم جائر عن القصد بسوء اختياره والله يرى منه .

ولو شاء الله لهذا كما أجمعين قسرا .

وعلق ابن المنير على رأى الزمخشري بقوله :

« إن يذهب » عن صحة الآية ، وذلك قوله تعالى : « ولو شاء لهذا كما أجمعين » ولو كان الأمر كما تزعم القدرية لكان الكلام : وقد هذا كما أجمعين .
وما كنهم إلا يؤمنون بمصر الكذب ويكفرون ببعض . فإن ذهبوا إلى تأويل المداية بالنس والإجاء فما كنهم إلا يحرفون الكلم عن مواضعه .

وأما المخالفة بين الأسنوبرين فلا فى سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق بأنه بين السبيل القاصد والجائر ، وهدي قوما اختاروا الهدى ، وأضل قوما اختاروا الضلالة لأنفسهم . وقد تقدم فى ذيل موضع أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران : فهو من حيث كونه موجودا مخلوق لله تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار ، وهو من حيث كونه مقرر باختيار العبد له ، وبنتائجه له ، وتيسره عليه ، يضاف إلى العبد ، وإن تعددت هذين الاعتبارين ثابت فى كل فعل . فغالب إقامة الحجة على العباد بإضافة المداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها ، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له .

والجاصل أنه ذكر فى كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة فى الآخر ؛ ليناسب ذلك إقامة الحجة البالغة ^(١) .

وقال الرمحشري في تفسير قوله تعالى : « فَأَخْرَجَ لَهُمُ الْجَنَّةَ جَنَّاتٍ لَهُ
خُورٌ أَرْنَبٌ » فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ^(١) :

فإن قلت : فلم خلق الله العجل من الخلق حتى صار فتنة لبي إسرائيل
وضلالاً لا قلت : ليست بأول محنة نحن الله بها عباده ، لئلا يت الله الذين آمنوا
والقول الثابت في الخيانة الدنياه وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ، ومن عجب من
خلق العجل فليكن من خلق إبليس أعجب ^(٢) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « لَا يُسْأَلُ سَمْعًا وَبَصَرًا » ^(٣) :
إذا كانت عادة الملوك والجبابرة ألا يسألهم من في ملكهم عن أفعالهم
ومخبريهم وبصروهم من تدبير ملكهم ، ثم بما وجلال لا ، مع جواز الخطأ
والزوال وأنواع الفساد عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب يخالصهم ورزقهم
أولى ألا يسأل عن أفعاله ، مع ما علم واستقر في العقول من أن ما يفعله كذا معقول
بمواضع الحكمة ، ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح ^(٤) .

وعاق ابن النير بقوله :

سحقاً لها من لفظة ما أسوأ أجبها مع الله تعالى ، أغنى قوله دواعي الحكمة ،
فإن الدواعي والصوارف إنما تستعمل في حق المحدثين ، كقولك هوذا توفّر
دواعي الناس إليه أو صوارفهم عنه .

وأما قولك لا يجوز عليه فعل القبائح فهل تقول إن أحداً شريك الله في
ملكه بفعل ما يشاء من الأفعال التي نسميها قبائح فتنتفيها عن قدرة الله تعالى

(١) سورة نوح ٨٨

(٢) الكشاف ٢/٢٧٢

(٣) سورة الأنبياء ٢٣

(٤) الكشاف ٢/٢٣١

وإرادته ، وما الفرق بين من يشرك الله ملكاً من الملائكة وبين من يشرك نفسه بربه حتى يقول إنه يفعل ويخلق لنفسه ، شاء الله أو لم يشأ ؟

والقدرة ارتضوا أنفسهم شرّاً شركاً ، لأن غيرهم أشرك بالملائكة ، وهم أنشركوا بنفوسهم وبالشياطين والجن وجميع الحيوانات^(٢١) .

وقال في تفسير قوله تعالى :

« وَقُولُوا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً جَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْمِنَ بِهِمْ سَقَطًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ، وَلِيُؤْمِنَ بِهِمْ أَوْثَانًا وَمَسَاجِدًا عَلَيْهَا يُسْكَوُونَ وَرَحْمَةً مِنَّا عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ^(٢٢) » :

فإن قلت : فحين لم يوسع على الكافرين لفئة التي كان يؤدي إليها التوسيع عليهم من إطلاق الناس على المكفر ، لحبهم الدنيا ومساكنهم عليها ، قبل توسيع على المسلمين ليطلق الناس على الإسلام ؟

قلت : التوسعة عليهم مفسدة أيضاً ، لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين ، فكانت الحكمة فيما دبر ، حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء ، وغلب الفقر على الغنى .

وقد علق ابن المنبر على هذا بقوله : السؤال والجواب ، بيان على فاعلين فاسدين :

إحداهما تعاليل أفعال الله تعالى ، والآخرى أن الله تعالى أراد الإسلام من

الذين آمنوا ، أما الأولي فقد أحسن الله السؤال عنه بقوله : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »^(١) .

وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الخواب بقوله : « ولم شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا »^(٢) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن »^(٣) :

نعم إن العباد هم النافعون بالكفر ، ولكن قد سبق في علم الحكيم أنه إذ صنعهم لم يصنعوا إلا الكفر ولم ينجسوا الخير ، فما الذي دعاه إلى خلقهم مع عامه إنما يسكون منهم ؟

وهل خلق القبيح وخلق فاعل القبيح إلا واحد ؟
قلت : قد علمنا أن الله حكيم عالم بفتح القبيح ، وعالم بقاء عنه ، فقد علمنا أن أفعاله كلها حسنة ، وخلق فاعل القبيح من أفعال الله ، فوجب أن يكون حسنا ، وأن يكون له وجه حسن ، وحقاء وجه الحسن علينا لا يفتح في حسنه ، كما لا يفتح في حسن أكثر محبقاته جهانا بداعي الحكمة إلى خلقها^(٤) .

٦ — كذلك اتهموا إلى نظرية الحسن والقبح ، وسعدها أن الحسن والقبح في الأعمال ذاتان ، ففي الصدق حسن ذاتي ، وفي الكذب قبح ذاتي ، ولهذا لا يجوزوا على الله الكذب لأنه من قبح ، وقلوا إنه لا بد أن يصدق ، لأن الصدق حسن في ذاته .

(١) سورة الأنبياء ٢٢

(٢) سورة يونس ٤٤ والكتاب ٢/٣٥١

(٣) سورة النبا ٢

(٤) الكتاب ٢/٦٤ :

وبنوا على هذا أن الشرع يأمر بأشياء وينهى عن أشياء ، وفقاً لما فيها من حسن أو قبح ، والعقل يستحسن أشياء ، ويستقبح أشياء ، لأنه يترك ما في الخسنة من حسن ، ويدرك ما في القبيحة من قبح ، وليس التفصيل والتفصيل راجعين إلى أمر الشرع ونهيه ، بل هما راجعان إلى الشيء ذاته وإدراك العقل لحقيقته ، فالشرع في تحسينه وتقبُّحه يُحِبُّه لأنفسه ، والعقل في إدراكه يُحِبُّه ولا يوجده . واستدلوا على هذا أن الناس كانوا قبل الشرائع يتعبدون إلى عقولهم ، فيستحسنون إقدامهم في مثلاً ، ويستقبِّحون العدوان ، وأن الرسل دعوا الناس إلى تصديقهم والنظر في معجزاتهم لإيمانهم بشارعهم ، وفي هذا تأكيد لسبق العقل . وبأن الفقهاء اجتهدوا في أمور شرعية لم يرد فيها نص ، وعلموا بالأحكام ، وهذا من عمل العقل للتعهد على الحسن والقبح الذاتي .

وأما غير المعتزلة فذهبوا إلى أن الحسن ما أمر به الشرع ، والقبيح ما نهى عنه الشرع ، لأن الشرع مثبت لا محذور ، وليس هناك شيء حسن لذاته أو قبيح لذاته ، فالحسن والقبح قد يتحدان ، فيكون القبح حسناً مبرراً وقبيحاً مبرراً ، ولو كان الحسن أو القبح ذاتياً ما تبدل حكمه ، وقد يكون الشيء حسناً في زمن وقبيحاً في آخر ، والشرائع نفسها تبيح أشياء تقوم وتحرمها على آخرين ، والشرع أموراً تقوم وتُشرع غيرها سواهم ، وقد كان الحسن والقبح ذاتيين ما تغير التشريع ^(١) .

قال ابن حشرى في تفسير قوله تعالى : « مَا تَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ » هذا الرُّسُلُ ^(٢) : كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل ، وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التي يوصل النظر فيها إلى المعرفة ، والرسل في أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر في تلك الأدلة ، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها ؟

(١) طحاوي الإلهام : ٤٠

(٢) سورة النساء : ١٦٥

قلت : الرسل مفهون من العفة ، وياثون على النظار ، كما يرى علماء أهل العدل والتوحيد ، مع تبليغ ما حثوا من تفصيل أمور الدين ، وبيان أصول التكليف ، ونعيم الشرائع ، فكان إرساها راحة للعفة ، ونتمها لإلزام الحجة ، فلا يقولوا : لولا أرساها إيانا رسولا فيوقفنا من رسة العفة ، وينهنا لما وجب الانتباه له .

وعاق ابن النير بقوله : قاعدة المعرفة في التحسين والتقبيح العقدين تجرد وتجرسهم على إثبات أحكام الله تعالى بتجرد العقل وإن لم يبعث رسولا ، فيوجبون بعقولهم ، ويحرمون ويبيحون على وفق زعمهم . وما يوجبونه قبل ورود الشرع النظار في أدلة المعرفة ، ولا يتوقفون على ورود الشرع الموجب ، وهذا يزعمون أن من ترك النظار في الأدلة قبل ورود الشرع فقد ترك واجبا استحق به التمدب ، وقد قامت الحجة عليه في الوجوب وإن لم يكن شرع . وإذا نليت عليهم هذه الآية صحت آذانهم ، وقالوا إن الرسل هم حجة الله ، وأنه على ما وجب قبل بعثها بالعقل ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداه حتى يبين لهم ما يقتنون » ^(٢) :

يعنى ما أمر الله بالإنقاء واجتنابه ، كالأستغفار المشركين وغيره مما نهى عنه ، وبين أنه محذور لا يؤخذ به عبادة الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم خلافا ، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم . وعندهم أنه واجب الإنقاء والاجتناب ، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤخذون بشرب الخمر ولا بيع الصاع بالصاعين قبل التحريم .

فأما ما بعلم بالعقل كالصدق في الخبر، ورد التوجيه، فغير موقوف على التوقيف.
وعلق ابن المذير على هذا بقوله :

هذا تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح، وأن العقل حاكم الشرع، كما شئت
لنا محض غاية، تابع لقتضاء، وهذه القاعدة قد سبق بطلانها في غير موضع (١)
وقال في تفسير قوله تعالى : « ونفس وما شئت ما ألتفتا فلتنصها فأنصت لها
ونقواها » (٢) :

معنى إلهام الفجور والتقوى إلهاميهما وإعطاها، وأن أحدهما حسن والآخر
قبيح، وتسكينه من اختيار ما شاء منها، يدلل قوله : « قد أفلح من زكّتها » .
وقد خاب من دساها « فجعله فاعل التزكية والتدسية ومثوليها .

وأما قول من زعم أن الضمير في زكّيت ودسّ الله تعالى : وأن تأنيث
الراجع إلى (من) لأنه في معنى النفس ، فمن تكليس القدرة - يريد التجربة -
الذين يوركون على الله قدراً هو يرى منه ، ومتمثال عنه ، ولحيون لياليهم في
تجمل فاحشة ينسبون بها إليه .

وعلق ابن المذير على هذا بقوله :

وفي هذا الكلام نوعان من الباطل : أحدهما في قوله معنى إلهام الفجور
والتقوى إلهاميهما وإعطاها ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح ، والذي يمكنه
في هذه الكلمات اعتقاد أن الحسن والقبح مدركان بالعقل . ألا ترى إلى قوله
إعطاها ، أي خالق العقل التوصل إلى معرفة حسن الحسن وقبح القبيح ، وإنما
انتم في هذا فرصة إشعار الإلهام بذلك ، فإنه ربما يظن أن إطلاقه على العلم
للمستفاد من السمع بعيد .

(١) الكشاف وجامعه ١/١٠١

(٢) سورة الشمس ٧ — ٨

والذى يقطع دابر هذه النزعة أنا وإن قلنا إن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع . لأنهما واجعان إلى الأحكام الشرعية التى ليست عندنا بصفات الأفعال ، فإن لا يلقى حظ العقل من إدراك الأحكام الشرعية ، بل لابد فى علمه كل حكم شرعى من المقدمة العقلية وهى الموصلة إلى العقيدة ، والمقدمة السمعية المنزوعة عليها ، وهى الدالة على خصوص الحكم . على أن تغلفه بظاهر — لو سلم ظهوره — فى قاعدة قطعية يعزل عن الصواب .

النزعة الثانية (وهى تكلم عن أفعال العباد)^(١)

(٣) حرية العباد

إن المعزلة بحرية العباد فى أعمالهم ، يعبر توجيهاً من إرادة الله وقدرته ، وهذا يبيهم الله عليها أو يعاقبهم ، فلا حبر ولا اضطراب ، لأن الله تعالى منزّه عن الفساد ، وعن خلق أفعال العباد ، فهم يفعلون أفعالهم بالقدره التى خلقها الله فيهم ، وهو لم يأمرهم إلا بما أراد ، ولم ينههم إلا عما كرهه ، ولم شاء لأجرهم على طاعته ، ومنعهم من معصيته ، لأنه القادر .

وهذا هو السبب فى أنهم سموا أنفسهم أهل العدل .

لكن خصومهم أطلقوا عليهم القدرية أحياناً ، لأنهم وافقوا القدرية الذين كانوا قبلهم فى القول بحرية العبد وقدره واختياره ، وأطلقوا عليهم الجبرية أحياناً ، لأنهم وافقوا الجبرية فى نفي الصفات ، وفى القول بخلق القرآن ، وإن خالفوهم فى الحرية والاختيار^(٢) .

(١) "تكملة وهامته ١/٢٤٦

(٢) الجبرية أتباع حبر بن صفوان كان يقول بخلق الجاد ، ويخرج الإنسان من الاختيار والشر ، ويرى أنه لا أو يعاقب على أعماله ، وإنما تنسب الأفعال إليه على سبيل الظاهر كما تنسب إلى الجاد ، ويقال سوى الله ، وتحرك الهواء ، وأثمرت الشجرة وخصبت الترس ، =

الذين المعترلة يبرأون من تسميتهم قدسية أو جهمية ، ويردون على التسمية الأولى بأنهم ينفون القدر ، وغيرهم يلقونه ، فهم أولى بأن ينسبوا إليه .

ويتبرأ من الجهمية بشرين المعتمد أحد زعماء المعترلة بقوله :

نفتيهم عفا ولستنا منهم ولاهم منا ولا نرضاهم

إمامهم جهم وما لهم وصاحب عمرو ذي النخعي والعلم^(١)

وأداة المعترلة على مذهبهم شعور الإنسان بالفرق بين الحركة الاختيارية والاضطرابية ، فالأولى مرادة والثانية غير مرادة ، ودليل آخر أنه لو لا الحرية لبطل التكليف وانتهى الأمر والنهي والثواب والعقاب ، ودليل ثالث أن بالقرآن آيات كثيرة تؤكد هذه الحرية .

وكان من خصومهم الجبرية الذين ذهبوا إلى أن الإنسان مجبر ، فهو والجماد سواء ، وإذا كانت الأفعال تنسب إليه فإنه مجاز .

وقد نشأ الخلاف هذه قبل الإسلام بين فلاسفة اليونان ، فذهب الأبيقوريون إلى أن الإنسان حر مختار ، وذهب الرواقيون إلى أنه مجبر لا اختيار له ، كما كان هذا الخلاف من مباحث الزرادشتية ثم المسيحية .

وقد دال المعترلة بالحرية ، ودافعوا عن مذهبهم ، ونزلوا الآيات القرآنية المخالفة له .

ثم جاء أبو الحسن الأشعري فتوسط بين مذهبي المعترلة والجبرية ، واخترع

= ومن مذهبه أنه لا يجوز وصف الله بصفة يوصف بها خلقه ، لأن هذا يقتضي تشبيها ، فتنى جهم كونه حيا عالما وأثبت كونه قادرا فاعلا حائقا ، لأنه لا يوصف أحد من خلقه بالقدره والعلم والقدرة . وكان جهم من موالى خراسان أيام بالكوفة ودعا إلى مذهبه ، وكان وزيرا للحارث بن سريج . فلما خرج الحارث على بر أمية حاربوه وهزموه وأسرؤا جهم وقتلوه (الملل والنحل ٧٩/١)

(١) عمرو بن عبدة أحد رؤساء المعترلة الأولين

ما سواه الكسب ، وهو الاقتران العادي بين القدرة الخدثة (أى قدرة الإنسان)
والفعل . فتمتع تعالى أجرى العادة فخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لا بقدرة
العبد وإرادته . وهذا الاقتران هو الكسب . وقال آخرون إن أفعال العباد
تعدى إلى الله باعتباره أيد أودعهم عليها ، وخلق القدرة فيهم ، وتضاف إلى
العبد باعتباره أيد هو الحرف لأعماله بقدرة الخيرة التي خلقها الله له ^(١) .

وإذا كان الزمخشري يدين بهذه الطريقة فإنه لم يدع آية من القرآن الكريم
تتصل بالجبر أو الاختيار الأولها وفق مذهبه .

هل في تفسير قوله تعالى : « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا » ^(٢) :
لأننا ببلايا تزيع فيها قلوبنا بعد إذ أرشدتنا لدينك ، أو لا تمنعنا إيمانك
عديم إذ غفلت بنا .

وعلى من انتهى بقوله :

أما أهل السنة فيدعون الله بهذه الدعوة غير محرفة ، لأنهم يوحدون حق
التوحيد ، فيعتقدون أن كل حادث من هدى وزيع مخلوق لله تعالى .

وأما القدرة فعندهم أن تزيع لا يخلق الله تعالى ، وإنما يخلق العبد نفسه *
فلا يدعون الله تعالى بهذه الدعوة إلا محرفة إلى غير المراد بها كما أولها المصنف ،
وإن كما يدعو الله تعالى مضاف إلى هذه الدعوة ألا ينزلنا ولا يمنعا لظف ، لأن
الكل فعله وخلق ولا موجود إلا هو وأفعاله التي تمن وأفعاليها ^(٣) .

(١) معنى الإسلام ٢٥ / ٣ — ٦١ . وعلى الأطلاق لأرسطو ٢٦٥ ترجمه أحمد خفي
العبد ووزارعت الحكيم ٨٤ جامد جيد القادر

(٢) سورة آل عمران ٨

(٣) الكشاف وعامته ١ / ١٣٥

وقال في تفسير قوله تعالى : « ومن أورد الله فتنته فقل آفأت الله من الله شيئاً » (١) :

ومن أورد الله فتنته تركه مفتوحاً ، فقل آفأت الله من الله شيئاً ، وإن استطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن ينصحبهم من الطائفة ، ما يطهرون به قلوبهم ، لأنهم ليسوا من أهلها ، لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنفع كقولهم تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله » (٢) وقوله : « كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم » (٣) .

وعلق ابن المنير بقوله :

هذه الآية متطابقة على حقيقة السنة ، فإن الله تعالى أراد الفتنه من المغنيتين ، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنه ووضر الكفر ، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنه من أحد ، وأراد من كل أحد الإيمان وطهارة القلب ، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته ، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد ، ولكن لم يقع .

فحسبهم هذه الآية وأمثالها لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر الباطن ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ وما أشع صرف الزحشرى هذه الآية عن ظاهرها بقوله لم يرد الله أن ينصحبهم الطائفة ، لعلمه أن الطائفة لا تنفع فيهم ولا تنفع . وإذا لم تنفع الطائفة الله تعالى ولم تنفع خلط من ينفع وإرادة من ينفع (٤)

وقال في تفسير قوله تعالى : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله

(١) سورة المائدة : ٤١

(٢) سورة النحل : ١٠٤

(٣) سورة آل عمران ٨٦ والكشاف وحاشيه ٢٥٦/١

(٤) حاشي الكشاف ٢٥٦/١

وَعَدَ كُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ، وَوَعَدُكُمْ فَخَفَّفَكُمْ ، وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ
إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَسَكُمْ « (١) :

لَا تَقُولُوا حَيْثُ اغْتَرَبْتُمْ لِي ، وَأَطَعْتُمُونِي إِذْ دَعَوْتُكُمْ ، وَلَمْ تَطِيعُوا رَبَّكُمْ
إِذْ دَعَاكُمْ ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ الشَّقَاوَةَ أَوْ السَّعَادَةَ
وَيَحْصِلُهَا لِنَفْسِهِ ، وَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا الْفَسَادُ وَلَا مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا الْبَرَاءَةُ ، وَلَوْ
كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُ الْخَبِيرَةُ لَقَالَ فَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَسَكُمْ ، فَإِنَّ إِنْ قَضَى
عَلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَأَجْبَرَكُمْ عَلَيْهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : قَوْلُ الشَّيْطَانِ بَاطِلٌ لَا يَصِحُّ التَّمَلُّقُ بِهِ .

قَالَ : وَلَوْ كَانَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُ بَاطِلًا لَبَيَّنَ اللَّهُ بَطْلَانَهُ ، وَأَطْهَرَ إِسْكَارَهُ ،
عَلَى أَنَّهُ لَا حُدُودَ لِنَفْسِ الْفَلَسُفِيِّ بِالْبَاطِلِ فِي ذَلِكَ لِقَامِهِ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ : « إِنْ
اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَخَفَّفْتُكُمْ » كَيْفَ آتَى فِيهِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ؟

وَفِي قَوْلِهِ : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ » وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنْ
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَالِينَ » (٢) .

وَعَنْ أَبِي لَيْسَى عَنْ بَقُولِهِ :

لَمَّا مَعَاشَرُ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُتَّقِينَ عِنْدَهُ بِالْخَبِيرَةِ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَمَرَ
هَذَا الْكَلَامَ غَيْرَ رَادِّ لَهُ وَلَا مَخْطِئٍ ، فِيهِ الشَّيْطَانُ ، كَمَا قَصَّ كَلَامَ الْكُفَرِ فِي
الْآيَةِ الْأُولَى كَذَلِكَ . وَنَحْنُ نَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّامَةَ إِذَا تَوَجَّهَ عَلَى الْكُفْرِ ، وَأَمَّا اللَّهُ
تَعَالَى فَمُقَدَّسٌ عَنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ اعْتَرَفَ بِمَا خَلَقَهُ اللَّهُ الْعَبِيدَ مِنَ الْإِخْتِيَارِ الَّذِي يَخْتَارُ
مَنْ نَفْسُهُ عِنْدَ تَحَوُّبِ طَرَفِ الْأَفْعَالِ الْإِرَادِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ قَامَتِ الْحُجَّةُ أَيْ عَلَى

(١) سُوْرَةُ اِبْرَاهِيْمَ ٢٢

(٢) سُوْرَةُ الْحَجَرِ ٢٢ الْكَشَافُ ١/٥٠٣

خلقه وإن سلبنا قدرة الخلق تشبها في الفعل ، فلا تناقض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » ^(٢) :

بمعنى لا يضطرهم إلى أن يكونوا أهل ملة واحدة وهي ملة الإسلام ، بقوله : « إن هذه أممكم أمة واحدة » ^(٣) ، وهذا الكلام يقتضيه في الاضطراب ، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق ، ولكم مكنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف ، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل ، فاختلقوا ، ولذلك قال : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » إلا ما هداهم الله ولطف بهم ، فانفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ^(٤) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ونسوا ما فعلهم فجورهم ونفواها ، قد أفلح من زكّاهها ، وقد خاب من دساها » ^(٥) :

معنى الجاهم الفجور والتقوى إياها من إعقابها وتمكينه من اختيار ما شاء منهما ، بدليل قوله : « قد أفلح من زكّاهها وقد خاب من دساها » فجعله فاعل التزكية ، وسئل ابن عباس عنه فقال أنقرأ : « قد أفلح من تركي » ^(٦) « وقد خاب من حل ظلم » ^(٧) ، وأما قول من زعم أن الضمير في زكي ودسى لله تعالى ، وأن آية التراجع إلى (من) لأنه في معنى النفس ، فمن تعكيس التقديرية — يريد الجبريق

(١) حاشي على الكتاب ١/ ٥٠٣

(٢) سورة هود ١١٨

(٣) سورة التوبة ٥٢

(٤) الكتاب ١/ ٤٥٧

(٥) سورة الشمس ٧ — ١٠

(٦) سورة الأعلى ١٤

(٧) سورة طه ١١١

الذين يوركون على الله قديراً هو يرى منه ، ومعتاد عنه ، ويحيون لياهم في
تحل فاحشة ينسبونها إليه ^(١) .

وعلى أن المير على هذا بالرد على أن الحسن والفتح مدركان بالعقل . ثم
قال إن التزكية وقسمها ليسا بخوفين لله تعالى بل لشركاءه المعزلة ، وإنما اعترضه
في الظاهر من حوى الآية ، على أنه لما يذكر وجهها في الرد على من قال إن
الضمير لله تعالى ، وإنما اقتصر على الدعوى مقروبة بضاعة على أهل السنة ،
فنقول لا مر ، في احتمال عود الضمير إلى الله تعالى وإلى ذى النفس ، لكن
عوده إلى الله تعالى أولى لوجهين : أحدهما أن الجمل سيقت سداقة واحدة من
قوله : « والسما وما بذها » والصدور فيما تقدم هذين التعمدين عائدة إلى الله تعالى
بالإضاف ، ولم يجر لغير الله ذكر ، وإن قيل يعود الضمير إلى غيره فإنما يتحمل
جواز به بدلالة الكلام ضمنا واستقاراً لا ذكراً ، ومنطقاً فوما جرى ذكره أولى
أن يعود الضمير عليه .

والثاني أن الفعل المستعمل في الآية التي استدل بها في قوله : « أفليح من
تركى » وهو (فعمل) لا ذلك أن فعل مطاوع كقول ، فهذا بأن بذلك أولى من أن
يدل له ، لأن الكلام عندنا نحن قد أفليح من تركاه الله فتركى ، وعندنا الفاعل
في الاثنين واحد أضاف إليه التعلين المتولين ، ويحتاج في تصحيح الكلام
إلى تعديد اعتبار وجهه ، ونحن عنه في غيبة .

على أن لا رأى أن تضاف التزكية والتسمية إلى العبد على طريقة أنه الفاعل ،
كما يضاف إليه الصلاة والصيام وغير ذلك من أفعال الطاعات ، لأن له عندنا
اختياراً وقدر مقارفة ، وإن منعنا البرهان العقلي الدال على وحدانية الله تعالى
ونفى الشريك أن تجعل قدرة العبد مؤثرة خالقه ^(٢) .

(١) الكشاف ٤٦/٢

(٢) هامش الكشاف ٤٦/٢

(٤) الوعد والوعيد

أراد العترة بالوعد والوعيد أن الله صادق في وعده ووعيده ، فقد وعد المتقين الجنة ، وأوعد المشركين والعصاة النار ، وهو سبحانه لا يخلف وعده ولا وعيده ، فمن نجا بفعله استحق الثواب ، ومن خسر بفعله استحق العقاب ، فالثواب والعقاب قانون حتمي ألزم الله تعالى به .

وإذا مات المسلم العاصي قبل التوبة يخلد في النار ، ولا تنفع فيه شفاعته .
وهو بهذا يخافون المرجة ، لأن هؤلاء ذهبوا إلى أن الله لا يخلف وعده ولسكنه قد يخلف وعيده ، لأن الثواب فضل من الله لا يد أن يفي به ، وإلا كان خالف الوعد نقصاً ، أما العقاب فعدل ، والله أن يعفو أو يخفف العقوبة ، وليس في هذا نقص .

كما أن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار ، لأنه عمل خيراً هو إيمانه ، وارتكب شراً هو كبريته ، فيعاقب على كبريته ، ويناب على إيمانه .
فلننظر تأويل الزحشرى الآيات المتصلة بهذا الخلاف .

قال في تفسير قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ» ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (١) : قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه ، وأنه لا يغفر ما دون الشرك من الكبائر إلا بالتوبة ، فوجه هذه الآية :

الوجه أن يكون الفعل المتبى وثبتت جميعاً موجهين إلى قوله تعالى : «من يشاء» ، كأنه قيل : إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك ، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك ، على أن المراد بالأول من لم يتب ، وبالثاني من تاب .

ونظيره قولك إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء ، تريد
لا يبذل الدينار لمن لا يستأجره ، ويبذل القنطار لمن يستأجره .

وعلق ابن المنير بقوله :

عقيدة أهل السنة أن الشرك غير مغفور أثبتة ، وما دونه من الكبائر
مغفور لمن يشاء الله أن يعفوه له ، هذا مع عدم التوبة ، وأما مع التوبة فكلاهما
مغفور . وهذه الآية وردت فيمن لم يذب ولم تذكر فيها توبة ، فذلك أطلق
الله تعالى في مغفرة الشرك ، وأثبت مغفرة ما دونه مقرونة بالمشيئة ، فهذا وجه
انطلاق الآية على عقيدة أهل السنة .

وأما التدبرية فليتهم يظنون التسوية بين الشرك وبين ما دونه من الكبائر في أن
كل واحد من النوعين لا يعفو بدون التوبة ، ولا شاء الله أن يعفوها إلا بالتائبين ،
فإذا عارض الزمخشري هذا المعتقد على هذه الآية ردت عليه وأثبت عنه ، إذ العفوة
منفية فيها عن الشرك وثابتة لما دونه ، مقرونة بالمشيئة .

فأما أن يكون المراد فيهما من لم يذب فلا وجه للتفصيل بينهما بتطبيق
العفوة في أحدهما بالمشيئة وتعليلتها بالآخر مطلقا ، إذ هما سيان في استحالة العفوة .

وأما أن يكون المراد فيهما التائب فقد قال في الشرك إنه لا يعفو ،
والتائب من الشرك مغفور له ، وعند ذلك أخذ الزمخشري بقطع أحدهما
عن الآخر ، فيجعل المراد مع الشرك عدم التوبة ، ومع الكبائر التوبة ،
حتى يبرز الآية على وفق معتقده ، فيجعلها أمرين لا تتحمل واحدا منهما ،
أحدهما إضافة التوبة إلى الشيئة وهي غير مذكورة ولا دليل عليها فيما ذكر ،
ولو كانت مرادة السكات هي السبب الموجب للمغفرة على رغم التدبرية عقلا ،
ولا يمكن تعليل الشيئة بخلافها على ظاهرها في العقل ، فكيف يلحق السكوت عن
ذكر ما هو العمدة والتوجب ، وذكر ما لا يدخل له على هذا المعتقد الردي ؟

الثاني أنه بعد تقريره التوبة احتكم فقدرها على أحد القسمين دون الآخر ، وما هذا إلا من جعل القرآن تبعاً للرأى ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً » ^(٢) :

هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد والإعراق والإرصاد أمر عظيم وخطب غليظ ، ومن ثم روى عن أبي عباس أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة ، وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئخوا قالوا لا توبة له ، وذلك مخول منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد ، إلا فشكل ذنب محوكة بالتوبة ، وبذلك يخرجوا الشرك ذليلاً .

وفي الحديث : زوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم وفيه
والعجب من قوم يقرأون هذه الآية ، ويسمعون هذه الأحاديث وقول ابن عباس منع التوبة ، ثم لا تدعهم أشقيتهم وطغيانهم الفارغة وانهاهم هوانهم وما يغيب إليهم منها أن يصلحوا في العفو عن قاتل المؤمن بعير توبة ، أهلاً بمنزلة من القرآن أم على قلوب أقفالها ؟

فإن قلت : هل فيها دليل على خلود من لم يقب من أهل الكبار ؟

قلت : ما أبين الدلائل وهو تناول قوله : « ومن يقتل » أي قاتل كان من مسلم أو كافر ، تائب أو غير تائب ، إلا أن التائب أخرجه الدلائل ، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدلائل مثله .

وعلق ابن المنير بقوله :

كفى قوله تعالى في هذه السورة « إن الله لا يغفر أن يشرك به » ، ويغفر

مادون ذلك من يشاء » دليل أبلغ على أن القاتل الموحّد وإن لم يقب نفسه إلى الله إن شاء ، آخذه ، وإن شاء عقر له .

وأما اسم أهل السنة إلى الأشعيية فذلك لا يضيرهم ، لأنهم إنما نطقوا على نطق أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، ولم يقتضوا من رحمة الله ، إنه لا يقتط من رحمة الله إلا القوم الظالمون ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا ينيل منها شفاعة » ولا يؤخذ منها عدل ، ولا هم ينقصون ^(٢) :

فإن قلت : هل فيه دليل على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة ؟

قلت : نعم ، لأنه نفي أن تقضى نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفي أن يقبل منها شفاعة شفيح ، فعمل أمها لا تقبل للعصاة .

فإن قلت : الضمير في (منها) إلى أى النفسين يرجع ؟

قلت : إلى الثانية العاصية غير الجزى عنها ، وهي التي لا يؤخذ منها عدل ، ومعنى لا يقبل منها شفاعة إن جاءت بشفاعة شفيح لم يقبل منها ، ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى على أمها لمؤشعته لها لم تقبل شفاعتها ، كما لا تجزى عنها شيئاً ، ولو أعطت عدلاً عنها لم يؤخذ منها ^(٣) .

وعلق ابن التبر على هذا بقوله :

أما من جحد الشفاعة فهو جدير ألا ينالها ، وأما من آمن بها وصدقها وهم أهل السنة والجماعة فتوالت رجوع رحمة الله ، ومعتقدهم أمها تنال العصاة من المؤمنين ، وإنما ادخرت لهم ، وليس في الآية دليل لشكركمها ، لأن قوته

(١) الكتاب ومأخذه ٢٢١/١

(٢) سورة البقرة ٤٨

(٣) الكتاب ٥٥/١

(يوماً) أخرجه منكراً ، فلا شك أن في القيامة مواطن ، وإمامها معدود بنتمسين ألف سنة ، فبعض أوطانها ليس زماناً للشفاعة ، وبعضها هو الوقت للوعود ، وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه الصلاة والسلام ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْبَاطِنُ صَفْحًا » :
لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ^(٢) :

هما شرطان : أن يكون المتكلم منهم مأذوناً له في الكلام ، وأن يتكلم بالصواب . فلا يشفع لغير مرتضى ، بقوله تعالى : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى » ^(٣) .

وعلق ابن المثير بقوله :

يعرض إن الشفاعة لا تحمل على مرتضى الكبار من الموحدين ، وقد صرح بذلك في مواضع تقدمت ، ويذهب إلى أنها مخصوصة بالمرتضين ، وذوو الكبار ليسوا مرتضين ، ومن ثم أخطأ ، فإن الله عز وجل ما خصهم بالإيمان والتوحيد ونوفاهم عليه إلا وقد ارتضاهم ، بدليل قوله تعالى : « وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » وإن شكروا يَرْضَى لَهُم ^(٤) « فجعل الشكر معنى الإيمان المقابل للكفر مرتضياً لله تعالى ، وصاحبه مرتضى ^(٥) .

(٥) المنزلة بين المنزلتين

دخل رجل على الحسن البصري فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبار ثم وعيدية الخوارج ، وجهاعة يرتجون أصحاب

(١) هامش الكشاف ١ / ٥٤

(٢) سورة الباء ٢٨

(٣) سورة الأنبياء ٢٨ والكشاف ٢ / ٥٢٠

(٤) سورة الزمر ٧

(٥) هامش الكشاف ٢ / ٥٢٠

الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، بل العمل على منتهىهم ليس
ركنًا من الإيمان ، ولا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ،
هم مرجئه الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك ؟

فذكر الحسن ، وقيل أن يحيب قال تلميذه واصل بن عطاء : أنا لا أقول
أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقًا ولا كافر مطلقًا ، بل هو في منزلة بين المنزلتين .
ثم قام واعتزل إلى أسطوانة بالسجد ، وجعل يقرر ما أجاب به على جملة من
أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فمضى هو وأصحابه معتزلة .

وقد دار خلاف كبير دائم حول وصف مرتكبي الكبيرة ، فالحسن
رأى أنه منافق ، وواصل بن عطاء ذهب إلى أنه في منزلة بين الكفر والإيمان ،
وتابعه على رأيه عمرو بن عبيد ، والمرجئة وصفوه بأمة مؤمن ، والأزارقة وصفوه
بأنه كافر ، وأهل السنة قالوا إنه فاشق^(١) .

ودليل المعتزلة أن الإيمان اجتماع التصديق والاعتقاد القلبي وأداء الواجبات ،
فمن صدق بأن الله واحد وأن محمدًا رسوله ، ولم يقم بالفرائض لم يكن مؤمنًا ،
لأنه لم يستكمل خصال الخير .

وبني المعتزلة على رأيهم هذا أن المعاصي قسمان : كبائر وصغائر ، واختلفوا
في تعريف كل منهما ، وإن كان أكثرهم على أن الكبيرة ما أتى فيها وعيد .
والصغيرة ما لم يتفحها وعيد ، وقالوا بأن بعض الكبائر تصل إلى حد الكفر ،
فمن شبه الله بخلقه أو نسب إليه الظلم أو كذبه في خبر ، فقد كفر .

وهذا كبائر أقل منها بمنزلة ، يسمى مرتكبها فاسقًا ، والفق منزهة بين

الكفر والإيمان ، ولهذا فإن الفاسق ليس مؤمناً وليس كافراً ، وإنما هو في منزلة بين المنزلتين ^(١) .

وعلى هذا الرأي أول الزمخشري بعض الآيات

١ — فمن تأويله للآيات المتصلة بالمنزلة بين المنزلتين أنه قال في تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ » ^(٢) : الإيمان الصحيح أن يعتقد الحق ويعرب عنه بلسانه ويصدق به عمله . فمن أخل بالاعتقاد وإن شهد وعمل فهو منافق ، ومن أخل بالشهادة فهو كافر ، ومن أخل بالعمل فهو فاسق .

وعلق ابن القيم بقوله : إنه أراد بالفاسق غير المؤمن وغير الكافر ، وهذا من الأسماء التي منها القدريه ، وما أنزل الله بها من سلطان .

ومعتقد أهل السنة أن الموحدة الذي لا خال في عقيدته مؤمن وإن ارتكب الكبائر فهذا الصحيح لغة وشرعاً . أما لغة : فإن الإيمان هو التصديق ، وهو مصدق ، وأما شرعاً فأقرب شاهد عليه هذه الآية ، فإنه لما عطف فيها العمل الصالح على الإيمان دل على أن الإيمان معقول بدونه ، ولو كان العمل الصالح من الإيمان لكان العطف تكراراً ^(٣) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ، وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ^(٤) :

لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَ الشُّبُهَاتِ ، وَأَخْلَصُوا النِّيَّةَ وَالْعَزَمَ عَلَى الْجِهَادِ ، وَأُظْهِرُوا

(١) المال والنحل ١/٢٠٢

(٢) سورة البقرة ٣

(٣) الكشاف وعاشه ١/١٧١

(٤) سورة آل عمران ١٧٣

حمية الإسلام . كان ذلك أثبت ليقينهم ، وأقوى لاعتقادهم ، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج ، ولأن خروجهم على أثر التثبيط إلى وجهة العدو طاعة فعلية ، والطاعات من جملة الإيمان ، لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل .

وعن ابن عمر : قلنا يا رسول الله هل الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار .

وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نردد إيماناً ، وسنته : لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَاسْمُرُوا لِلَّهِ أَلْسِنَ الَّذِينَ يَعْملُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعقدنا بهم عذاباً أليماً ^(٢) :

إن الله ذكر المؤمنين الأبرار وذكر الكفار ، ولم يذكر الضقة ، لأن الناس حينئذ إما مؤمن تقي وإما مشرك ، وإنما حدث أحوال المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك ^(٣) .

٣ — ومن تأويله الآيات المتعلقة بالكبائر والصغائر أنه قال في تفسير قوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ » ^(٤) :

المعنى هو الذي بقي منه تعاطى ما يستحق من العقوبة من فعل أو ترك ، واختلاف في الصغائر ، وقيل الصحيح أنه لا يتناولها ، لأنها تقع مكفرة عن مجتنب الكبائر ^(٥) .

(١) الكشف ١/١٧٦

(٢) سورة الإسراء ٩ — ١٠

(٣) الكشف ١/٥٤١

(٤) سورة البقرة ٢

(٥) الكشف ١/١٦٦

وعلى ابن النير بقوله : من تقي القدرية على الله تعالى اعتقادهم أن الصغائر
محمومة عنهم ما اجتنبوا الكبائر ، وأنه يجب أن يعفو الله عنها لجناب الكبائر ،
كما يجب عندهم ألا يعفو عن مرتكب الكبائر ، وهذا هو الخطأ الصراح
والحادثة لأيات الله البينات وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم الصحاح .

والحق أن غفران الصغائر وإن اجتنب الكبائر ، موكل إلى المشيئة ،
كما أن غفران الكبائر موكل إليها أيضا .

ومن لا يعتقد ذلك وهم القدرية يضطرون إلى الوقوف عند قوله تعالى :
« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (١) فإنه
ناقض لما أخذ به الصغائر ، ويتحيزون عند قوله تعالى : « إِنْ لَمْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ
جَمِيعًا » (٢) فإنه يصرح بمغفرة الكبائر .

أما أهل السنة فقد ألفوا بين هاتين الآيتين بقوله تعالى : « إِنْ لَمْ يَغْفِرِ اللَّهُ
شَرًّا لَوْ يَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لَنْ يَشَاءَ » (٣) فإن التقييد بالمشيئة في هذه يقتضي
على الآيتين المطلقتين (٤) :

وقال في تفسير قوله تعالى : « وَإِنْ رِبْكَ لَتُوْمَغْفِرَ لَنَاسٍ عَلَى ظُنُومِهِمْ ، وَإِنْ
رِبْكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » (٥) .

أي مع ظنهم أنفسهم بالذنوب ، وبحله الخال ، بمعنى ظالمين لأنفسهم ، وفيه
أوجه : أن يريد السيئات المكفرة لجناب الكبائر ، أو يريد الكبائر بشرط
التوبة ، أو يريد بالمغفرة السر والإمهال .

(١) سورة الزلزلة ٧ - ٨

(٢) سورة الزمر ٥٣

(٣) سورة النساء ١١٦

(٤) هامش الكشاف ١٦/١

وروى أنها لما نزلت قال النبي عليه الصلاة والسلام : لولا عفو الله وتجاوزة ما هلك أحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد ^(١) .

وعن ابن المبرق قوله : الوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه ، إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحدة فإن ظلمه أعنى شركه لا يغفر ، وماعدا الشرك يغفر الله في المشيئة ، وإن لم يخشى ، ينشئ على عقيدته التي وضع فسادها استحالة الغفران لصاحب الكبرياء وإن كان موحدا إلا بالتوبة ، فيقيد بمشاقا ، ونجس واسعا ^(٢) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أشرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » ، إنه هو الغفور الرحيم ^(٣) :
يعنى بشرط التوبة ، وقد تكرر هذا الشرط في القرآن ، فكان ذكره في مواضع مغنيا عن عدم ذكره في مواضع ، لأن القرآن في حكم كلام واحد ، ولا يجوز فيه التناقض ، وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود « يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء » والمراد بمن يشاء من تاب ، لأن مشيئة الله تابعة لحكمه وعدله لا لمسلكه وجبروته . وقيل في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وقاطمة قرظي الله عنها « يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى » واختار بنى المبالاة بنى الخوف في قوله تعالى : « ولا يخاف عقابها » ^(٤) .

ثم ذكر ما قبل في أسباب نزول الآية ^(٥) :

وقال في تفسير قوله تعالى : « إن تعدوا نكاحكم كتمان ما آمنون الله بالكفر

(١) الكشاف ٤٨٩/١

(٢) حاشي الكشاف ٤٨٩/١

(٣) سورة الزمر ٥٣

(٤) سورة النساء ١٥

(٥) الكشاف ٣٠٢/٢

عنكم سيئاتكم»^(١) : الكبيرة والصغيرة إنما وصفنا بالكبر والصغر بإضافتهما
إما إلى طاعة أو معصية أو ثواب أو عقاب فأغلبهما^(٢).

وقال في تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَارَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ
إِلَّا اللَّعْمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ »^(٣) :

الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر ، والكبائر الذنوب التي لا يسقط
عقابها إلا بالتوبة ، وقيل التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها .
والفواحش ما فحش من الكبائر ، كأنه قال والفواحش منها خاصة ، واللمم
ما قل وصغر من الذنوب ، وعن أبي سعيد الخدري : اللمم هو النظرة والعزرة
والقبلة ، وعن السدي الخطرة من الذب ، وعن الكلبي كل ذنب لم يذكر الله
عليه خذاه ولا عذابه .

والله واسع المغفرة ، حيث يكفر الصغائر بإحسان الكبائر ، ويكفر
الكبائر بالتوبة^(٤) .

(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

رأى المعتزلة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على المسلمين ،
كما رأى غيرهم .

ولكنهم ذهبوا إلى الاختصار على القلب إن كفى ، فإن لم يكف القلب
فباللسان ، فإن لم يغن القلب واللسان فباليد ، فإن لم تنفع اليد فبالسيف^(٥) .

(١) سورة النساء ٣١

(٢) الكشاف ١/٢٠٦

(٣) سورة النجم ٣٣

(٤) الكشاف ٢/١١٨

(٥) اللؤلؤ والنحل ١/٤٩ ومروج الذهب ٢/١٩٠

قال الزمخشري إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات ، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف ومنهى عن المنكر ، وعلم كيف يرتب الأمر في أوقاته ، وكيف يبشره ، فإن الجاهل رجما نهى عن معروف وأمر بمنكره ، وقد بخل في موضع اللين ويأين في موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيد إنكاره إلا تماديا ، أو على من الإنكار عليه عبث .

والأمر بالمعروف تابع للأمر به ، إن كان واجبا فواجب ، وإن كان ندبا فندب ، وأما النهي عن المنكر فواجب كله ، لأن جميع المنكر تركه واجب ، لا تصافه بالقبح . وشرط الوجوب أن يغلب على ظنه وقوع المعصية ، نحو أن يرى الشارب قد شربا شرب الخمر بإعداد آلاته ، وألا يغلب على ظنه أنه إن أنكر ختمته مضرة عظيمة ، ويبتلى في إنكاره بالسبل ، فإن لم يتفع ترقى إلى الصعب ، لأن الفرض كف المنكر

فمن رأى غيره تارك الصلاة وجب عليه الإنكار ، وأما ما يحتاج إلى قتال فإما يقوم به من في استطاعته القتال ، كالإمام وخلفائه ، لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها ^(١) .

ثانياً - مذاهب فقهيّة

عرض الزمخشري لسائل فقهية كثيرة ، ولكنه لم يقتصر على مذهبه الحنفي ، بل أورد الأحكام في المذاهب الأخرى ، وكان أحياناً يرجح مذهب الشافعي على مذهب أبي حنيفة .

وهذه أمثلة مما ذكره :

١ - قال تعالى : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتَ »^(١) .

الهدى هدى التمتع وهو نسك عند أبي حنيفة ، وبأكل منه ، وعند الشافعي يجري مجرى الجنايات ولا يأكل منه .

ويذبحه يوم النحر عندنا ، وعنده يجوز ذبحه إذا أحرم بحجته ، فمن لم يجد الهدى فعليه صيام ثلاثة أيام في وقت الحج ، وهو أشهر ما بين الإحرامين إحرام العمرة وإحرام الحج ، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ، والأفضل أن يصوم يوم التروية وعرفة ويوما قبلهما ، وإن مضى هذا الوقت لم يجزئه إلا الدم ، وعند الشافعي لا تصام إلا بعد الإحرام بالحج ، فتسكت بظاهر قوله (في الحج وسبعة إذا رجعتم) بمعنى إذا فرغتم وفرغتم من أفعال الحج عند أبي حنيفة ، وعند الشافعي هو الرجوع إلى أهلهم^(٢) .

٢ - وقال تعالى :

« وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »^(٣)

الأيام المعدادات أيام التشريق ، وذكر الله فيها والتكبير في أديار الصلوات وعند رمي الجرات . (في يومين) بعد يوم النحر يوم النفر ، وهو الذي يسميه

(١) سورة البقرة ١٩٦

(٢) الكشاف ١/٩٣

(٣) سورة البقرة ٢٠٣

أهل مكة يوم الروع ، واليوم بعده ينفر إذا فرغ من رمي الجمار كما يفعل الناس اليوم ، وهو مذنب الشافعي ، ويروى عن قتاده ، وعن أبي حنيفة وأصحابه ينفر قبل طلوع الفجر (ومن تأخر) حتى رمى في اليوم الثالث ، والرمي في اليوم الثالث يجوز تقدمه على الرمال عند أبي حنيفة وعند الشافعي لا يجوز ^(١) .
٣ — وقال تعالى : « ويسألوك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء في المحيض » ^(٢) .

بين الفقهاء خلاف في الاعتزال ، فأبو حنيفة وأبو يوسف يجيزان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار ، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج ، ويروى محمد حديث عائشة رضي الله عنها أن عبد الله بن عمر سألها : هل يباشر الرجل امرأته وهي حائض ؟ فقالت : تشد إزارها على سفلتها ، ثم ليباشرها إن شاء ، وما روى زيد بن أسلم أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما يحل لي من امرأتي وهي حائض ؟ قال : تشد عليها إزارها ثم تأمك بأعلاها . ثم قال : وهذا قول أبي حنيفة ، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة ، قالت : يحتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك ^(٣) .

٤ — وقال تعالى : « والوالدان 'يرضعن' أولادهن حواشي كالمكئين لمن أراد أن 'يضم' الرضاعة ، وعلى المؤنود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف... » ^(٤) .
يجب على الأب إرضاع الولد دون الأم ، وعليه أن يتخذ له ظفرا ، إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه ، وهي مندوبة إلى ذلك ، ولا تجبر عليه ، ولا يجوز استئجارها عند أبي حنيفة ما دامت زوجة أو معتدة من نكاح ، وعند الشافعي يجوز ، فإن انقضت عدتها جاز بالاتفاق ^(٥) .

٥ — وقال تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » ^(٦) .

(١) الشكاف ١/١٧٤

(٢) سورة البقرة ٢٢٢

(٣) الشكاف ١/١٠٣

(٤) سورة البقرة ٢٣٣

(٥) الشكاف ١/١٠٩

(٦) سورة البقرة ٢٨٢

اطلبوا أن يشهد لكم شهدان على الدين من رجال المؤمنين ، والحرية والبلوغ شرط مع الإسلام عند عامة العلماء ، وعن علي رضي الله عنه : لا يجوز شهادة العبد في شيء ، وعند شريح وابن سيرين وعثمان البتي أنها جائزة ، ويجوز عند أبي حنيفة شهادة الكفار بعضهم على اختلاف النحل (١) .

٦ — قال تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجَابُ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » (٢) .

فسمى رسول الله الاستطاعة بالزاد والراحلة ، وكذا عن ابن عباس وابن عمر ، وعليه أكثر العلماء ، وعن ابن الزبير هو على قدر القوة .

ومذهب مالك أن الرجل إذا وُثق بقوته لزمه ، وروى عنه أن ذلك على قدر الطاقة .

وقد نجد الزاد والراحلة من لا يقدر على السفر ، وقد يقدر عليه من لا زاد له ولا راحلة .

وعن الضحاك إذا قدر أن يؤجر نفسه فهو مستطيع ، وقيل له في ذلك ، فقال إن كان لبعضهم ميراث بمكة أو كان يتركه ؟ بل كان ينطلق إليه ، فكذلك يجب عليه الحج (٣) .

٧ — وقال تعالى :

«وَابْتَغُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ» (٤) .

(١) الكشاف ١/١٢٩

(٢) سورة آل عمران ٩٧

(٣) الكشاف ١/١٥٦

(٤) سورة النساء ٦

الابتلاء عند أي حنيفة وأصحابه أن يدفع إليه ما يتصرف فيه ، حتى يستبين حاله فيما يحيى منه .

والرشد التهدي إلى وجوه التصرف ، وعن ابن عباس الصلاح في العقل والحفظ للمال .

وعند مالك والشافعي الابتلاء أن يتتبع أحواله وتصرفه في الأخذ والعطاء ، ويتبصر بخباياه وميله إلى الدين ، والرشد الصلاح في الدين ، لأن الفسق مفسدة في المال .

فإن قلت : فإن لم يؤنس منه رشد إلى حد البلوغ ؟

قلت : عند أي حنيفة رحمه الله ينتظر إلى خمس وعشرين سنة ، لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانى عشرة سنة ، فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة في تغير أحوال الإنسان لقوله عليه السلام « مروهم بالصلاة سبع » دفع إليه ماله ، سواء أونس منه الرشد أو لم يؤنس . وعند أصحابه لا يدفع إليه إلا بإيقاس الرشد ^(١) .

٨ — وقال تعالى : « لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْآثِمِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَصَيْتُمْ الْإِيمَانَ » ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك حمالة إيمانكم إذا حلفتم ^(٢) .

ومعنى من أوسط ما تطعمون أهليكم من أقصده ، لأن منهم من يسرف في إطعام أهله ومنهم من يقتل . وهو عند أي حنيفة رحمه الله نصف صاع من بر أو صاع من غيره لكل مسكين ، أو يغذيهم ويعشيهم .

(١) للكشاف ١/ ١٨٩

(٢) سورة البقرة ٢٢٣ المائدة ٨٩

وعند الشافعي رحمه الله مدة لكل مسكين .

والكسوة ثوب يغطي العورة . وعن ابن عباس كانت العبادة تجزى^ع يومئذ .

وعن ابن عمر إزار أو قميص أو رداء أو كساء . وعن مجاهد ثوب جامع . وعن الحسن ثوبان أبيضان .

وقد اشترط الشافعي في تحرير الرقبة أن يكون العبد مؤمناً قايماً على كفارة القتل .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة في كل كفارة سوى كفارة القتل ، واشترط أبو حنيفة في الصوم أن يكون متتابعاً ، نسكاً بهراً أي وابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » وعن مجاهد كل صوم متتابع إلا قضاء رمضان ، ويخير في كفارة اليمين .

والتكفير قبل الحنث لا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه ، ويجوز عند الشافعي بالمال إذا لم يعص الحائث^(١) .

٩ — وقال تعالى : « إنما للمشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا »^(٢) . بعد عام تسع من الهجرة حين أقر أبو بكر على الموسم . وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، ويبدل عليه قول علي حين نادى بهراً « ألا حج بعد عامنا هذا مشرك » ، ولا يمتنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم .

وعند الشافعي يمتنعون من دخول المسجد الحرام خاصة .

(١) التكفير ٢٧٢/١

(٢) سورة التوبة ٢٨

وعند مالك يمنعون منه ومن غيره من الساجد .

وعن عطاء أن المراد بالسجد الحرام الحرام ، وأنه على المسكين ألا يكتنواهم من دخوله .

ونهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمسكهم منه .
وقيل المراد أن يمنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بتصلاته ، ويعزلوا عن ذلك (١) .

١٠ — وقال تعالى : « الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ أَنْسَابِهِمْ مَا هُمْ أَنْسَابُهُمْ »
إِنْ أَنْسَابُهُمْ إِلَّا الْإِلَاقَةُ وَلَدَانَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ
اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ » (٢) .

فإن قلت : هل يصح الظاهر بغير اللفظ ؟

قلت : نعم ، إذا وضع مكان (أنت) عضواً من الزوجة يعبر به عن الجملة ،
كالرأس والوجه والرقبة والفرج ، أو وضع مكان (ظهر) عضواً آخر يحرم النظر
إليه من الأم كالبطن والفخذ ، أو وضع مكان (أمي) ذات رحم محرم منه بسبب
نسب أو رضاع أو صهر أو جماع ، نحو أنه يقول أمت على كظهر أختي من الرضاع ،
أو عمتي من النسب ، أو امرأة ابني أو أبي أو أم امرأتي أو بنتها ، فهو ظاهر ،
وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه .

وعن الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري وغيرهم نحوه .

وقال الشافعي لا يكون الظاهر إلا بالأم وحدها ، وهو قول قتادة والشعبي .

وعن الشعبي : لم ينس الله أن يذكر البنات والأخوات والعرات واخالات .
إذ أخبر أن الظهار إنما يكون بالأمهات لولادة دون المرضعات . وعن بعضهم
لا بد من ذكر الظهر حتى يكون ظهاراً ^(١) .

١١ - وقال تعالى : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن
لعدتهن » ^(٢) .

روى عن إبراهيم النخعي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا
يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى
تنقضي العدة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثاً في ثلاثة أظهار .
وقال مالك بن أنس رضي الله عنه : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ،
وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة في طهر واحد .
فأما مفرقاً في الأطهار فلا ، لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال
لأبن عمر حين طلق امرأته وهي حائض : ما هكذا أمرك الله ، إنما السنة أن
تستقبل الطهر استقبالا وتطلقها لكل قر ، تطليقة ، وروى أنه قال لعمر : مر ابنك
فليراجعها ثم ليدها حتى تحيض ، ثم تطهر ، ثم ليطلقها إن شاء ، ففتلك العدة
التي أمر الله أن تطلق بها النساء .

وعند الشافعي رضي الله عنه لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال لا أعرف في عدد
الطلاق سنة ولا بدعة ، وهو مباح . فالثلاث يرأى في طلاق السنة الواحدة
والوقت ، وأبو حنيفة يرأى التفريق والوقت ، والشافعي يرأى الوقت والواحدة .

فإن قلت : هل يقع الطلاق المخالف للسنة ؟ .

(١) الكشاف ٢/ ٤١٠

(٢) سورة الطلاق ١

قلت : نعم وعو آثم ، لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً طلق
امراته ثلاثاً بين يديه ، فقال : أتلعبون بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ وفي حديث
ابن عمر أنه قال يا رسول الله أرأيت لو طلقها ثلاثاً ؟ فقال له : إذن عصمت
وبانت منك امرأتك . وعن عمر رضي الله عنه أنه كان لا يؤتي رجلاً طلق
امراته ثلاثاً إلا أوجعه ضرباً ، وأجاز ذلك عليه . وعن سعيد بن المسيب وجماعة
من التابعين أن من خالف السنة في الطلاق فأوقع في حيف أو قات لم يقع^(١) .

ثالثاً - قراءات

الْمُخْتَصَرُ لِقَوْلِي أَدِيبٌ ذَوَاتُ فَعْلَةٍ ، وَلِهَذَا أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِ الْقِرَاءَاتِ
مُنْسُوبَةٍ إِلَى أَصْحَابِهَا فِي أَكْثَرِ الْأَحْيَانِ ، وَغَيْرِ مُنْسُوبَةٍ فِي قَلِيلٍ مِنَ الْأَحْيَانِ ،
وَكَانَ فِي الْأَغْلَبِ الْأَعْمِ لَا يَعْقِبُ شَيْءٌ ، وَلَا يَفْضُلُ قِرَاءَةٌ عَلَى قِرَاءَةٍ ،
وَأَحْيَانًا كَانَ يَعْقِبُ بِاخْتِيَارِ أَرْوَعِ الْقِرَاءَاتِ تَعْبِيرًا ، وَأَبْلَغًا مَعْنَى ، وَأَشْبَهًا
بِنَظْمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

وَهُوَ يَذْكُرُ مَصْحُفَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ^(١) ، وَمَصْحُفَ أَبِي ^(٢) ، وَمَصْحُفَ
الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ صَاحِبِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَهُوَ الَّذِي دُفِنَ مَصْحَفُهُ أَيَّامَ الْحِجَابِ ^(٣) ،
وَمَصْحُفَ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَأَهْلِ الْخُرَيْمِينَ وَالْبَصْرَةِ وَالشَّامِ ^(٤) ، وَمَصْحُفَ
أَهْلِ الْعِرَاقِ ^(٥) ، وَعَكْرَمَةَ وَالْأَعْرَجَ وَابْنَ يَمْعَرٍ ^(٦) ، وَبَعْضَ الْمَصَاحِفِ ^(٧) ،
كَذَا بَذَكَرَ رَوَايَاتٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَزَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ وَنَافِعِ
وَإِبْنِ جَرِيرٍ وَحَمْزَةَ وَالْحَسَنَ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ وَغَيْرِهِمْ .

(١) الْكِتَابُ ٥٥٠/١ ، ٥٩ ، ٢٦٣/٢ ، ٣٩٤ ،

(٢) الْكِتَابُ ٩٤/١ ، ٣٠/٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ،

(٣) الْكِتَابُ ٣٨٧/١ ،

(٤) الْكِتَابُ ٨٠/٢ ،

(٥) الْكِتَابُ ٣٤١/٢ ،

(٦) الْكِتَابُ ٥١٨/٢ ،

(٧) الْكِتَابُ ٤٦٠/٢ ،

من أمثلة ذلك ما ذكره في هذه الآيات :

١ - « وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ^(١) » .

قرأ عبد الله « وَلَنْ تَسْأَلَ » وقرأ أبي « وَمَا تَسْأَلُ ^(٢) » .

٢ - « وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ ^(٣) » .

قرأ أبو حنيفة - وهي قراءة ابن عباس - « إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ » يرفع إبراهيم ونصب ربه ، والمعنى أنه دعاه بكلمات من الدعاء ^(٤) .

٣ - « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ^(٥) » .

قرأ ابن عباس : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطَاقُونَهُ ^(٦) » من الطَّاقُوا أو من الطَّاقَدُوا أو القِلَادَةُ أى يَكُونُونَ وَيَقْدُونَهُ . وعن ابن عباس يَطَاقُونَهُ بمعنى يَشْكُونَهُ أو يَتَقَدُّونَهُ ، وَيَطَاقُونَهُ بِإِثْمَامِ النَّاسِ فِي الطَّاءِ .

٤ - « وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ^(٧) » .

قرأ علي وابن مسعود والشعبي : (وَأَتَمُّوا الْحَجَّ ، وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ^(٨)) يرفع العمرة ، كَأَتَمُّهُمْ قَصَدُوا بِذَلِكَ إِخْرَاجَهَا عَنْ حَكْمِ الْحَجِّ وَهُوَ الْوَجُوبُ ^(٩) .

(١) سورة البقرة ١١٨

(٢) الكشاف ٧٢/١

(٣) سورة البقرة ١٢٤

(٤) الكشاف ٧٢/١

(٥) سورة البقرة ١٨٤

(٦) الكشاف ٨٨/١

(٧) سورة البقرة ١٩٦

(٨) الكشاف ٩٣/١

(٩) الكشاف ٩٣/١

٥ — «واللهاتُ يربطن أولادَهُنَّ حَوَائِنَ كَامِلِينَ لَنْ أُرَادَ أَنْ يَتِمَّ الرَّجَاعَةُ»^(١) «قرأ قتادة (حوالين كاملين)»^(٢).

٦ — «فَمِنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَمَّا سَلَفَ»^(٣).

قَرَأَ أَبِي وَالحسن «فَمِنْ جَاءَهُ»^(٤).

٧ — «هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ»^(٥).

قَرَأَ طَاوُسُ «هُوَ الَّذِي تَصَوِّرُكُمْ» أَيْ صَوَّرَكُمْ لِنَفْسِهِ.

٨ — «وَمَا يَكْفُرُ أَتَوْبُهُمْ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ»^(٦).

قَرَأَ أَبِي: «وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»^(٧).

٩ — «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَاللَّاتُكَا وَأُولُو الْعِزِّ قَانًا بِالْقِطْطِ»^(٨).

قَالَ: إِنْ قَانًا مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ أَوْ الْمَدْحِ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ «الْقَانِمُ بِالْقِطْطِ» عَلَى أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ هُوَ أَوْ خَيْرٌ مِمَّنْ دَخَلُوا، وَقَرَأَ أَبُو حَنِيفَةَ «قِي بِالْقِطْطِ»^(٩).

١٠ — «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِطْطِ مِنَ النَّاسِ فَيَسْخَرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»^(١٠).

(١) سورة البقرة ٢٣٣

(٢) التفسير ١/ ١٠٩

(٣) سورة البقرة ٢٧٥

(٤) التفسير ١/ ١٢٧

(٥) سورة آل عمران ٦

(٦) سورة آل عمران ٧

(٧) التفسير ١/ ١٣٥

(٨) سورة آل عمران ١٨

(٩) التفسير ١/ ١٣٧

(١٠) سورة آل عمران ٢١

قرأ الحسن « يقتلون النبيين » وقرأ حمزة « ويقتلون الذين آمنوا » وقرأ
عبد الله « وقاتلوا » وقرأ أبي « يقتلون النبيين والذين آمنوا »^(١).

١١ — « قال رب اجعل لي آية » قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام
إلا زميراً^(٢).

قرأ يحيى بن زباب باللام زميراً بضمين جمع رموز كرموز ورميل ، وقرأ
زميراً بفتحين مثل خادم وخدم وهو حال منه ومن الناس كقولهم :

سَيِّ مَا تَلَقَى فَرَقَيْنِ تَرْجُفُ رَوَانِفُ إِلَى تَيْبِكَ وَأَسْتَطَارَا

يعنى إلا مترامزين كما يكلم الناس الأخرس بالإشارة وبكلامهم^(٣).

١٢ — « أم لهم نصيب من الملك » فإذا لا يؤتون الناس نقيراً^(٤).

القرائة العامة على أن (إذا) ملغاة ، كأن قيل فلا يؤتون الناس نقيراً
إذا ، وقرأ ابن مسعود « فإذا لا يؤتوا الناس » على إعمال إذا^(٥).

١٣ — « جاءهون للكذب أكلون السحت »^(٦) قرئ السحت بالتحفيف
والثقل . والسحت بفتح السين على لفظ المصدر من سحط . والسحت
بفتحين والسحت بكسر السين^(٧).

(١) الكشف ١٣٩/١

(٢) سورة آل عمران ٤١

(٣) الكتاب ١٤٤/١

(٤) سورة النساء ٥٣

(٥) الكشف ٢٠٩/١

(٦) سورة البقرة ٤٢

(٧) الكشف ٢٥٦/١

١٤ — « لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا » ^(١).

الشريعة الشريعة ، وقرأ يحيى بن وثاب الشريعة بفتح الشين ^(٢).

١٥ — « لَا يَأْخُذُكَ اللَّهُ شَاغُورًا فِي أَعْمَالِكُمْ ، وَلَسَكُنْ بِوَأَخَذَ كَيْفًا فَقَدْتُمْ الْإِيمَانَ ، فَكَفَّارَةٌ ، إِطْعَمَ عَشْرَةَ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْ سَطَّ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُمْ أَوْ تَعَرَّوْا رِكْبَةً ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ قَصِيصًا ، فَلِلَّاتَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةٌ إِيْمَانِكُمْ إِذَا حَفَّتُمْ ^(٣) »
قرئ عندتم ، للتحفيف ، وعافدتهم ، وقرأ جعفر بن محمد (أَهْلِيكُمْ) بكون الياء والأهلى اسم جمع لأهل كالميل في جمع ليلة ، والأراضي في جمع أرض ، وقولهم أهلون كقولهم أرضون بكون أراء ، أما سكن الياء في حال النصب فللتحفيف ، كما قالوا رأيت محذرك ب تشبيها للياء بالالف ، وقرئ (كَسَوْتُمْ) بضم الكاف ونحوه قدوة في قدوة وأسوة في أسوة .

وقرأ سعيد بن المسيب والبخاري (أَوْ كَسَوْتُمْ) بمعنى أو مثل ما تطعمون أهلهم إسماعيل أو تفتتروا ، وقرأ أبي وابن مسعود « فَلِلَّاتَةِ أَيَّامٍ مُتَابَعَاتٍ » ^(٤).

١٦ — « لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا » ^(٥).

قرئ أسوأ الذي عملوا ، جمع سوء ^(٦).

١٧ — « وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ » ^(٧).

في مصحف عبد الله الخفاء (بظنين) وفي مصحف أبي بالضاد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها ، وإتقان الفصل بين الضاد والخفاء واجب

(١) سورة المائدة ٤٨

(٢) الكشاف ١/٢٥٨

(٣) سورة المائدة ٨٩

(٤) الخفاء ١/٢٧٢

(٥) سورة الزمر ٣٥

(٦) الكشاف ٢/٢٩٩

(٧) سورة التكاوير ٢٤

ومعرفة مخرجها لا بد منه للقارىء ، فإن أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقاً غير صواب . وبينهما بون بعيد ، فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره ، كان مخرج الحطاب مضبوط يعمل بكلمة بديه ، وكان يخرج الضاد من جاني لسانه . وهي أحد الأحرف الشجرية أخت الجيم والنشيد ، وأما انشاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا ، وهي أحد الأحرف الذواتية أخت اللال والثاء . ولو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة ، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب ^(١) .

وقد يقاضل بين القراءات ويختار إحداها .

١٨ — في آية الكريمة « وإنا لجمع حادرون » ^(٢) ذكر أن بعضهم قرأ (حذرون) وبعضهم قرأ (حادرون) بالدال غير المعجمة ، وقال إن الحذر اليفظ ، والحادر الذى يحدد حذره ، وقيل التقوى بالسلاح إنما يفعل ذلك حذراً ، والحادر السمين القوى قال :

أحب الصبي السوء من أجل أمه وأبفضه من بعضها وهو حادر
أراد أنهم أقوىاء أشداء ، وقيل مدججون بالسلاح قد أكسبهم ذلك حذارة
في أجسامهم ^(٣)

١٩ — وعند تفسير قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء » ^(٤) قال : قرأ أنس بن مالك كشجرة طيبة ثابت أصلها فإن قلت أى فرق بين القراءتين ؟

(١) التذائف ٢/ ٥٢٨

(٢) سورة الشعراء ٦٠

(٣) التذائف ٣/ ١٢٤

(٤) سورة إبراهيم ٢٤

قلت قراءة الجماعة أقوى ، لأن في قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة ،
وإذا قلت مررت برجل أبوه قائم فيه أقوى معنى من قولك مررت برجل قائم
أبوه ، لأن الخبر عنه إنما هو الأب لا رجل^(١) .

٢٠ — وفي تفسير قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ حَرْفٌ عَرَبِيٌّ »^(٢)

ذكر أن (كلمة) قرئت بالنصب على التمييز وبالرفع على الذاعية ، والنصب
أقوى وأبلغ وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة^(٣) .

٢١ — على أنه استبعد القراءات الشاذة وأنكرها ، فقال في تفسير قوله
تعالى : « أفلم يئأس الذين آمنوا أن لو بشأن الله لهدى الناس جميعا »^(٤) .

أفلم يئأس أى أفلم يعلم ، قيل هي لغة قوم من النخع ويدل عليه
أن عليا وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرأوا أفلم بيمين ، وهو تفسير
أفلم يئأس .

وقيل إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السبات ، وهذا ونحوه
عما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتي الإمام يريد المصحف الإمام وكان
متقلبا في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله ، المهتمين عليه ، لا يفلون
عن جلالة ودقائقه ، خصوصا عن القانون الذي إليه المرجع ، والقاعدة التي
عليها البناء ، وهذه والله فريضة ما فيها مزية^(٥) .

(١) - الكشف ١/٥٠٤

(٢) - سورة الكهف ٥

(٣) - الكشف ١/٥٦٣

(٤) - سورة الرعد ٣١

(٥) - الكشف ١/٥٨٥

رابعاً - آراء نحوية

عرفنا أن المصحف ألف كتباً في النحو ، منها الفصل ، وكان كتباً بالنحو
باعتبار بدقائه مثل كلفه باللغة وبصره بها .

وهذا تعرض كثيراً للإعراب في تفسيره ، فأعرب كلمات ، وأورد آراء
النحاة في إعراب كلمات ، وناقش الأعراب ، واختار ما رآه أصح وأصوب ،
وكثيراً ما كان يمثل بالنصوص الأدبية .

وهذه أمثلة من الآيات الكريمة التي عرض فيها للنحو :

١ - « قُلْ يَدُ اللَّهِ أَلَّا يُرِيدُ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ » (١)
قال : إن قلنا منصوب على الحال من لفظ الجلالة ، فإن قلت : لم جاز إفراده
بمنصب الحال دون المعطوفين عليه ، ولو قلت جازي زيد وعمر ورا كذا لم خير ؟
قلت : إنما جاز هذا لعدم الإنشاس كما جاز في قوله تعالى : « وهما له إسحق
وعقوب نافي » (٢) إن المنصب (نافي) حالاً من يعقوب ، ولو قلت جازي زيد
وهند ورا كذا جاز ، لغير الحال بالكسرة ، ويجوز أن يكون (قلنا) منصوباً
على المدح .

فإن قلت : أنيس من حق المنصب على المدح أن يكون معرفة ، كقولك
الحديث الجديد - بفتح الدال - وإنا معشر - بفتح الراء - الأبياء لا نورت ؟

(١) سورة آل عمران ١٨

(٢) سورة الأنبياء ٩٢

قلت : قد جاء النكرة كجاء معرفة ، وأشد سبويها جاء منه النكرة
قول المذلي :

ويأوى إلى نوتر عطليل وسعنا مواضع مثل السعالي

فإن قلت : هل يجوز أن يكون صفة للمفعول ، كأنه قيل لا إله قائما بالقسط
إلا هو ؟

قلت : لا يبعد ، فقد رأيناهم يسمون في الفصل بين الصفة والموصوف .

فإن قلت : قد جعلته حالا من فاعل (شهد) فهل يصح أن ينتصب حالا
من هو في (لا إله إلا هو) ؟

قلت : نعم لأنها حال مؤكدة ، والخال المؤكدة لا تستدعي أن يكون
في الجملة التي هي زيادة في فاعلها عامل فيها ، كقولك أنا عبد الله شجاعا ،
وكذلك قلت لا رجل إلا عبد الله شجاعا ، وهو أوجه من انتصابه عن فاعل
(شهد) وكذلك انتصابه على المدح ^(١).

٢ — « ذكركم الله فأنتن مؤمنون » ، فائق الإصحاح وجعل الليل سكونا
والشمس والقمر حسباناً ^(٢).

(الشمس والقمر) قرنا بالحركات الثلاث .

فانتصب على إضمار فعل دل عليه جعل الليل ، أي وجعل الشمس والقمر
حسباناً ، أو يعطفان على محل الليل .

فإن قلت : كيف يكون ليل محل والإضافة حقيقية ، لأن اسم الفاعل
المضاف إليه في معنى المضي ، ولا نقول يزيد ضارب عمرو أسى ؟

(١) الكشف ١/١٣٧

(٢) سورة الأمان ٩٥

قلت ما هو في معنى المضي ، وإنما هو دال على جعل مستمر في الأزمنة المختلفة ، وكذلك قال الحب وقالق الإصباح ، كما تقول الله قادر عالم ، فلا تقصد زمانا دون زمان .

والجر عطف على نطق الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر محمولان حسباناً أو محسوبان حسباناً ، ومعنى جعلهما حسباناً أن حساب الأوقات يعلم بدوراتهما وسيرهما (١) .

٣ — « إن يشأنا سكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل متفكر . أو يوقهنّ بنا كسوا ، ويؤف عن كثير ، ويعلم الذين يحادلون في آياتنا ما لهم من تحييص » (٢) .

فإن قلت : فما وجوه القراءات الثلاث في (يعلم) ؟

قلت أما الجزم فعلى ظاهر العطف ، وأما الرفع فعلى الاستئناف ، وأما النصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يحادلون في آياتنا ، ونحوه في العطف على التعليل المحذوف غير عزيز في القرآن ، منه قوله تعالى : « ولنجعل آية للناس » (٣) ، وقوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق ، وأنجزنى كل نفس بما كسبت » (٤) .

وأما قول الزجاج : النصب على إضمار أن ، لأن قبلها جزاء ، تقول ماتنعم أصنع مثله وأكرمك ، وإن شئت وأكرمك ، على تقدير وأنا أكرمك ، وإن شئت وأكرمك جزماً فصيحة نظراً لما أورده سيبويه في كتابه إذ قال :

(١) الكشف ١/٣٠٢

(٢) سورة الشورى ٣٥

(٣) سورة مريم ٢١

(٤) سورة الجاثية ٢٢

واعلم أن النصب بالفاء والواو في قوله إن تأتي آتاك وأعطيتك ، ضعيف وهو نحو من قوله : وألحق بالحجاز فاسترحبا ، فهذا يجوز وليس بحمد الكلام ولا وجهه ، إلا أنه في الجزاء صار أقوى قليلا ، لأنه ليس بواجب أنه يفعل ، إلا أن يكون من الأول فعل ، فلما صارع الذي لا يوجبه كالاتفهام ونحوه أجازوا فيه هذا على ضعفه .

ثم عقب الرخشمي بقوله : ولا يجوز أن تحمل القراءة المستفيضة على وجه ضعيف ، ليس بحمد الكلام ولا وجهه ، ولو كانت من هذا الباب لما أدخل سيمويه منها كتابه ، وقد ذكر نظائرها من الآيات المشككة ^(١) .

٤ — «فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض ^(٢)» «فهل كان ، وقد حكموا عن الخليل أن كل «لولا» في القرآن معناها هلا إلا التي في سورة الصافات ^(٣) ، ولكن هذه الحكاية غير صحيحة ، لأن لولا وردت في سور أخرى وليس معناها هلا ، مثل قوله تعالى : «لولا أن تداركته نعمة من ربه لنبذ بالعرس» ^(٤) . وقوله «ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوعم» ^(٥) . وقوله : «ولولا أن تبشرك لقد كنت تركن إليهم شيئا قليلا» ^(٦) .

٥ — «وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخرى يابس» ^(٧) .

(١) الكشف ٢/ ٣٤٢ (٢) سورة هود ١١٦ .

(٣) يريد قوله تعالى في شأن يونس : «ولن يونس أن الراسخين إذ أتى إلى الفلك المسجون تمام فكان من المدحضين ، فالتفته الموت وهو لم يم ، فلولا أنه كان من المبين ثابت في بطنه إلى يوم يعثون» سورة يونس ١٣٩ — ١٤٤ .

(٤) سورة القم ٤٩ (٥) سورة الفتح ٢٥ .

(٦) سورة الإسراء ٧٤ والكشاف ١/ ٤٥٦ .

(٧) سورة يوسف ٤٣ .

فإن قلت : هل من فرق بين إيقاع سمان صفة للمميز ، وهو بقرات دون المميز وهو سبع ، وأن يقال بقرات سماناً ؟

قلت : إذا أوقفنا صفة البقرات فقد قصدت إلى أن تميز السبع بالجنس البقرات لا بنوع منها ، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن .

فإن قلت : علا قيل سبع عجاف على الإضافة ؟

قلت : التمييز موضوع لبيان الجنس ، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده .

فإن قلت : فقد يقولون ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب ؟

قلت : الفارس وال صاحب والأراكب ونحوها صفات حوت بحري الأسماء فأخذت حكمها ، وجاز فيها ما لم يجر في غيرها ، ألا تراك لا تقول عندي ثلاثة ضحائم وأربعة غلاظير .

فإن قلت : ذلك مما يشكلى ، وما نحن بسبيله لا إنكسار فيه ، ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف ، لوقوع العلم بين المراتم البقرات ؟

قلت : ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستثناء عما ليس بأصل أو قد وقع الاستثناء بقولك سبع عجاف عما اقتصر منه التمييز بالوصف

والمعجاف الخمرال الذي ليس بعده ، والذهب في وقوع عجاف جمعاً لمعجاف مع أن أفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال جملة على زمان ، لأنه نقيضه ومن رأيهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض^(١) .

٦ — « هو الذي يُريكم البرق خوفاً وطمعاً^(٢) » .

(١) الكشاف ١/٢٢٢ .

(٢) سورة الرعد ١٣ .

لا يصح أن يكون (خوفاً وطعماً) متعولاً لها ، لأنها ليسا بفعل فاعل .
الفعل المتعالي إلا على تقدير حذف الضم ، أي إرادة خوف وطعم ، أو على معنى
إحاطة وإطعاماً .

وجوز أن يكونا متعصبين على الخال من البرق ، كأنه في نفسه خوف وطعم ،
أو على ذا خوف وذا طمع ، أو من الخطابين أي خاتمين وطمعين ^(١) .
٧ — « لا أقسم بيوم القيامة » ^(٢) .

إدخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم وأشعارهم ، فإن
أمرؤ القيس :

لا وأبيك ابنة العاصري لا يدعى القسم أنى أفر
وقال غزوة بن سلمى :

ألا نادى أمامةً باحتمال لتعزوني فلا بك ما أبالي
وقادتها تأكيد القسم ، وقادها إليها صلة (زائدة) مثلاً في (تلا بغير أهل
الكتاب) وفي قوله :

في إثر لا حور سرمد وما شعر ^(٣) .

واعترضوا عليه بأنها إنما تراد في وسط الكلام لا في أوله . وأجابوا بأن
القرآن في حكم تنويرة واحدة متصل بمضنه ببعض .

والاعتراض صحيح ، لأنها لم تقع مزيدة إلا في وسط الكلام ، ولكن
الجواب غير سديد ، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زاده في مستهل قصيدته :
والوجد أن يقال هي التي ، والمعنى أنه لم يقسم بالشئ إلا إعظاماً له ، بذلك عليه .
قول الله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم » وإراد القسم لو تعلمون عظيم .

(١) الكشف ٤٩٠/١

(٢) سورة القيامة ١

(٣) قال ابن يعيش في شرح المفصل ١٣٦/٨ إن المراد في إثر حور ولا مزيدة ، كما

فسره أبو عبيدة ، والجور الهلكة .

حسب كونه بإدخال حرف النفي يقول إن إعظامي له بإقسامي به كلاً إعظام ، يعني أنه يستأهل فوق ذلك .

وقيل إن (لا) نفي لكلام ورد له قبل القسم ، كأنهم أسكروا البعث فقول لا ، أي ليس الأمر كما ذكرتكم ، ثم قيل أقسم بيوم القيامة .

فإن قلت : قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون » ، والأبيات التي أنشدتها ، القسم عليه فيها منفي ، فملا زعمت أن (لا) التي قبل القسم زيدت موطئة للنفي ، ومؤكدة له ، وقد ردت القسم عليه المحذوف هاهنا منفيًا ، كقولك لا أقسم بيوم القيامة لا تتركون سدى ؟ .

قلت : لو قصر الأمر على النفي دون الإثبات لكان لهذا القول مسامح ، ولكن لم يقصر ، ألا ترى كيف نفي لا أقسم بهذا البلد بقوله لقد خلقنا الإنسان في كبد ، وكذلك فلا أقسم بتواقع النجوم بقوله إنه لقرآن كريم .

وقرى (لا أقسم) على أن اللام للابتداء ، وأقسم خبر مبدأ محذوف معناه أنا أقسم ، فأنوا وبمضده أنه في المصحف الإمام بغير ألف^(١) .

خامسًا - مسائل لغوية

من الطبيعي والمخشئ لغوى أديب بصير لعقائى اللغة ومجازاتها أن يستعين بعلمه وذوقه على تحلية بعض الدلالات الدقيقة للكلمات ، وأن يناقش سابقه ومعاصره فى بعض الكلمات .

١ — قال فى تفسير قوله تعالى : « والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون »^(١) .

معنى إقامة الصلاة تعديل أركانها وحفظها من أن يقع زيف فى فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام الغنود إذا قومه .

أو الدوام عليها والحفاظ على علمها ، كما قال عز وجل : « الذين هم عن صلاتهم ساهون » و « والذين هم على صلاتهم يحافظون » من قامت السوق إذا نفقت ، لأنها إذا حوفظ عليها كانت كالشيء النافق الذى تتسوجه إليه الرغبات ، ويتنافس فيه المخلصون ، وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشيء الكاسد الذى لا يرغب فيه . أو التجديد والتشمر لأدائها ، وألا يكون فى مؤديها فتور عنها ولا توان . من قوههم قام بالأمر وفامت الخرب على ساقها ، وفى ضده قعد عن الأمر وتقاعد عنه إذا تقاعس وتثبط .

أو أدؤها ، فعبير عن الأداء بالإقامة ، لأن القيام بعض أركانها ، كما عبر عنه بالفتوت ، والفتوت القيام ، وبالركوع والسجود ، وقالوا سبح إذا صلى ، لوجود التسبيح فيها^(٢) .

(١) سورة البقرة ٣

(٢) الكشاف ١ / ١٧

٢ — وقال في تفسير قوله تعالى : « ذَهَبَ اللَّهُ بنورهم »^(١) .

الفرق بين أذهب وأذهب ، أن معنى أذهب أزاله وجعله ذاهباً ، ويقال ذهب به إذا اصطاحه ومضى به معه ، وذهب السلطان إذا أخذه ، ومنه ذهب به الخيلاء ، والمعنى أخذ الله نورهم وأمسكه وما حملت الله فلا مرسل له ، فهذا أبلغ من الإذهاب ، وقرأ اليباني أذهب الله نورهم^(٢) .

٣ — وقال في تفسير قوله تعالى : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ »^(٣) .

اللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا يُقَالُ إِلَّا لِلْمَثَلِ الْخَالِفِ لِلنَّاسِ ، قال جرير :

أَتَيْتُمَا تَجْعَلُونِي إِلَى رَنْدَاً وَمَا تَيْمُّ لَذَى حَسِبَ تَلِيدُ

ونادت الرجل خالفته ونافرته ومعنى قولهم : ليس لله تد ولا ضد تعنى ما يسد مسدده ونفى ما ينافيه^(٤) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »^(٥) .

فمن تعجل عجل في التفر أو استعجل التفر ، وتعجل واستعجل مجيئان مطاوعين بمعنى عجل ، يقال تعجل في الأمر واستعجل ، ومجيئان متعديين ، يقال تعجل الذهاب واستعجله ، وللطائفة أوفى ، لقوله « ومن تأخر » كما هي كذلك في قول الشاعر :

قد يدرك الثاني بعض حاجته وقد يكون مع الاستعجل الزلل
لأجل الثاني^(٦) .

(١) سورة البقرة ١٧

(٢) الكشاف ١ / ٣١

(٣) سورة البقرة ٢٢

(٤) الكشاف ١ / ٣٨

(٥) سورة البقرة ٢٠٣

(٦) الكشاف ١ / ٦٧

٥ - وقال في تفسير قوله تعالى : « وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ^(١) » .

قال : الكتاب والفرقان يعني الجامع بين كونه كتاباً منزلاً وقرطاباً يفرق بين الحق والباطل ، يعني التوراة ، كذلك وأت الغيث والليث ، تريد الرجل الجامع بين الجود والجوراة ، ونحوه قوله تعالى : « لقد آتينا موسى وهارون الفرقان وصياء وذكراً ^(٢) للمتقين ^(٣) » يعني الكتاب الجامع بين كونه قرطاباً وصياءً وذكراً ، أو التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات ، أو الشريعة الفارق بين الحلال والحرام .
وقيل الفرقان الفارق البحر ، وقيل النهر الذي فرق بينه وبين عدوه ، كقوله تعالى : « يوم الفرقان ^(٤) » يريد به يوم بدر ^(٥) .

٦ - وقال في تفسير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ^(١) » .

أدلة جمع ذليل ، وأما ذلول فجمعه ذليل ، ومن رعب أنه من الذل الذي هو نقص الصعوبة فقد غي عنه أن ذلولاً لا يجمع على أدلة . فإن قلت : هلا قيل : أدلة للمؤمنين أعزة على الكافرين ؟

قلت : فيه وجهان :

-
- (١) سورة البقرة ٥٣
 - (٢) سورة الأنبياء ١٤٨
 - (٣) سورة الأنفال ٤١
 - (٤) الكتاب ١ / ٥٥
 - (٥) سورة المائدة ٥٤

أحدها أن يضمن الذل معنى الخنو والعطف ، كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التعذيل والتواضع .

والثاني أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم ، ونحوه قوله تعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ^(١) .

٧ — وقال في تفسير قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتُجزي كل نفس بما تسعى » ^(٢) :

أى أكاد أخفيها فلا أقول هى آتية لفرط إرادتى إخفائها ، ولولا ما من الأخبار بإتيانها مع تعمية وقتها من اللطف لما أخبرت به .

وقيل معناه أكاد أخفيها من نفسى ، ولا دليل فى الكلام على هذا المحذوف ، ومحذوف لا دليل عليه مطروح ، والذى غرض منه أن فى مصحف أئى أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهر كم عليها ؟

وعن أبى الدرداء وسعيد بن جبير (أخفيها) بفتح الهمزة من خفاء إذا أظهر ، أى قرب إظهارها ، كقوله تعالى : « اقتربت الساعة » ^(٣) وقد جاء فى بعض اللغات أخفاء بمعنى خفاء ، وبه فسر بيت امرئ القيس :

فإن تدفونوا الداء لا تخفيه وإن تيمموا الحرب لا تقم

فأكاد أخفيها تحتمل المعنيين ^(٤) .

وقال فى الأساس : خفى الشيء واختفى واستخفى تستر ، وهو يخفى

(١) سورة النج ٢٩ والكشاف ١ / ٢٦٢

(٢) سورة طه ١٥

(٣) سورة القمرا

(٤) الكشاف ٢ / ٢١٠

صوته ، وَخَفِيَ الشَّيْءُ الْخَفِيُّ وَاخْتَفَاهُ أَخْرَجَهُ ، يُقَالُ خَفِيتُ الْحُوزَةَ مِنْ تَحْتِ
التراب . وَاخْتَفَى النَّيَاشُ الْكَفَنُ ^(١) .

٨ — وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَاسْتَقْوُوا فِيهَا كَمَا كَانُوا مَرَاتِبَهَا
زَنْجَبِيلًا ، عَيْنًا فِيهَا تُنَجَّى سَاسِبِيلًا » ^(٢) .

سميت العين زنجبيلًا لطعم الزنجبيل فيها ، والعرب تستلذه وتستطيعه .
قال الأعشى :

كَأَنَّ الْقُرْفُلَ وَالزَّجْبِيلَ لِي بَانَابِيهَا وَأَرْيَا مَشُورًا
وَقَالَ الْمُسَيَّبُ بْنُ عَدَسٍ :

وَكُنْتُ طَعَمَ الزَّجْبِيلِ بِهِ إِذْ ذُقْتُهُ وَشُلَاقَةَ الْخَمْرِ

و (سبيلًا) سلاسة المخارعا في الحلق ، وسهولة مسانها ، يعني أنها في
طعم الزنجبيل ، وليس فيها لدعة ، ولكن تفيض للذع وهو السلاسة . يُقَالُ
شَرَابٌ سَلْسَلٌ وَسَلْسَالٌ وَسَلْسِيلٌ . وَقَدْ زِيدَتِ الْبَاءُ فِي التَّرَكِيبِ حَتَّى صَارَتْ
الْكَلِمَةُ خَاسِيَةً ، وَدَلَّتْ عَلَى غَايَةِ السَّلَاسَةِ . قَالَ الرَّجَاجُ : السَّاسِبِيلُ فِي اللُّغَةِ
صِفَةٌ لِمَا كَانَ فِي غَايَةِ السَّلَاسَةِ . وَقَدْ عَزَّوْا إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ مَعْنَاهُ سَلِ
سَبِيلًا ، وَهَذَا غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ عَلَى ظَاهِرِهِ ، إِلَّا أَنْ يَرَادَ أَنْ عِلَّةَ قَوْلِ الْقَائِلِ (سَلِ
سَبِيلًا) جَعَلَتْ عَلَمَاً لِلْعَيْنِ ، كَمَا قِيلَ تَأْبِطُ شَرًّا ، وَسميت بذلك لأنه لا يشرب
إليها إِلَّا مَنْ سَأَلَ إِلَيْهَا سَبِيلًا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ^(٣) . وَهُوَ مَعَ اسْتِفَامَتِهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ
تَسَكُّفٌ وَابْتِدَاعٌ ، وَعَزَّوْهُ إِلَى مِثْلِ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُدْعٍ .

١١١ / أساس البلاغة مادة خني

(٣) سورة الإنسان ١٧

(٤) الكشاف ١٢/٢

٩ — وقال في تفسير الآية الكريمة : « وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا »^(١) .

المعصرات : السحاب إذا انصهرت أي شارفت أن تعصرها الرياح فتقطر ، كقولك أخرج الزرع إذا حان له أن يخرج ، ومنه أعصرت الجارية إذا دنت أن تحيض ، وذكر في الأساس أن السحابة أعصرت واستدل بالآية .

ثجاجاً : منصوب بكثرة ، يقال نجته ونجته ونج بنفسه . وفي الحديث أفضل الحج الحج والنج ، أي رفع الصوت بالتلبية وصب دماء الهدى ، وكان ابن عباس منجاً يسيل غزياً ، يعني ينح الكلام نجاً في خطبته .

ألفافاً : متنوعة ، ولا واحد له كالأوزاع والأضياف ، وقيل الواحد ألف ، وقال صاحب الإقليد : أشدنى الحسن بن علي الطوسي :

جَنَّةٌ أَلْفٌ وَعَيْشٌ مُعَدَّقٌ وَدَأَى كُلُّهُمْ بَيْعٌ زَهْرٌ

وزعم ابن قتيبة أن الفرد لقاء والجمع ألف ثم ألفاف ، وما أخذوا واجداً له نظيراً من نحو خضر وأحضر وحر وأحار . ولو قيل هو جمع لمتفة بتقدير حذف الزوائد لكان قولاً وجيهاً^(٢) .

١٠ — وفي الآية الكريمة : « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا »^(٣)

أي تكذبوا ، وقيل في باب فعل كاه فاش في كلام فصحاء العرب ، لا يقولون غيره . ومعنى عصمهم أفسر آية فقال : لقد فسرناها فساراً ماسعاً بمثلها^(٤) .

(١) سورة النبأ ١٤ — ١٦

(٢) الكشاف ٢ / ٥١٨

(٣) سورة النبأ ٢٨

(٤) الكشاف ٣ / ١١٩

سادساً - نصوص شعرية

استن الزمخشري متهج ابن عباس والطبري وغيرهما في الاستشهاد بالشعر والاستدلال به على تفسير معاني الكلمات . فقد روى ابن عباس أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فتكلم بكلام مبين ، فقال النبي إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكماً . وكان ابن عباس يسأل عن الشيء من القرآن ، فيقول : فيه كذا وكذا . أما سمعت الشاعر يقول كذا كذا . وقال عكرمة : ما سمعت ابن عباس فسر آية من كتاب الله عز وجل إلا فرغ فيها بيتا من الشعر . وكان يقول : إذا أُنشئتم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب ^(١) .

أما الطبري فكثيرا ما اعتمد على الشعر في بيان المعنى المراد من الكلمة ، تارة يذكر اسم الشاعر ، وتارة يذكر النص مجردا من الاسم .

وفي رأى الزمخشري ورأى سابقيه أن الإسلام لم يحرم الشعر كله ، بل حرم ما يخالف العقيدة ، ويتنافى الخلق الكريم . ولهذا قال في تفسير قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَدْعُونَ ، وَآمَهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، وَآيَةٌ لِمَنْ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَازٍ يَنْقَلِبُونَ » ^(٢) .

إن الله استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكفرون ذكرا الله ويؤمنون .

(١) مقدمة شرح التبريزي للجماعة ٣/١

(٢) سورة الشعراء ٢٢٥ - ٢٢٦

القرآن ، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر ، وإذا قالوا شعرا قالوا في توحيد الله والثناء عليه ، والحكمة والموعظة والزهد والآداب الحسنة ، وممدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابه وصالحاء الأمة . وما لا بأس به من المصنف ، لا يسلطون فيها بدسب ، ولا يتلبسون بشائكة ولا منقصة ، وكان هجاءهم على سبيل الانقصار ممن يهجوهم ، قال الله تعالى : « لا يحب الله الجحفر بالسوء من القول إلا من ظلم » ^(١) وذلك غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب ، لقوله تعالى « من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ^(٢) . وعن عمرو بن عبيد أن رجلا من العوية قال له إن صدرى يجيش بالشعر ، فقال : فما يمنعك منه مما لا بأس به ؟ .

والقول فيه أن الشعر باب من الكلام ، حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام . وقيل المراد بالمستثنين عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير ، والذين كانوا يناخون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكافون شجاعة قريش . وعن كعب بن مالك أن النبي قال له : اهجمهم ، فو الذى نفسى بيده لمؤ أشد عليهم من النبل ، وكان يقول لحسان : قل وزوج القديس منك ^(٣) .

ولهذا استشهد بالشعر فى الكشف عن دلالات كثير من الالتفاظ ، ولم يتقيد بعصر ولا بصفة خاصة فى الشاعر .

١ — فى تفسير قوله تعالى : « وألخصناك من النساء إلا ما مأكنت إيمانكم » ^(٤) .

(١) سورة النساء ١٤٨

(٢) سورة البقرة ١٩٤

(٣) الكشف ١٣٥/٢

(٤) سورة النساء ٢٤

قال إن المراد ما ملكك أيادكم من الألفى سمين ولحن أزواج في دار
السفر، فمن حلال لفقراء المسلمين وإن كن محصنات ، وفي معناه قول
القرزوقي :

وَذَاتِ حَلَالٍ أَسْكَحْتَهَا وَمَا حُنَا حَلَالٌ لِمَنْ يُبْنَى بِهِ الْم تَطْلُقُ^(١)
٢ — وفي تفسير قوله تعالى : « فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ » واضربوا
منهم كلَّ بَنَانٍ^(٢) . قال إن المراد أعلى الأعناق التي هي المذراع ، لأنها مفاصل ،
وكان إيقاع الضرب فيها جزاً وتطهيراً للرؤوس .

وقيل أراد الرؤوس ، لأنها فوق الأعناق ، يعنى ضرب الهام ، قال الشاعر :

وأضرب هامة البطل المشيح .

وقال آخر .

عَشِيمَةٌ وَهِيَ فِي جَوَادٍ بِأَسْلَفٍ قَضَبًا أَصَابَ سِوَاءَ أُرَاسٍ فَانْقَعَتْ
والبنان الأصابع ، يريد الأطراف ، والمعنى فاضربوا المفاصل والشوَى^(٣) .

٣ — وقال في تفسير قوله تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ
وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ »^(٤) : إن ساعة العسرة وقتها ، والساعة
سنة مملكتي معنى الزمان المطلق ، كما استعملت الفداة والعشية واليوم . قال الشاعر :

وَكُنَّا حَسْبَنَا كُلِّ بَيْضَاءٍ مَذْمُومَةٍ عَشِيَّةٍ قَارِعَةٍ نُجْدَامٍ وَحَجَرٍ

(١) الكتاب ١/١٩٩

(٢) سورة الأنفال ١٢

(٣) الكشاف ١/٣٦٨

(٤) سورة التوبة ١١٧

وقال آخر :

إذا جاء يوما وأراني ببغى الغنى
كأنَّه جمعُ كفٍّ غير ملأى ولا صفر^(١)
والعسرة حالهم في غزوة تبوك^(٢).

٤ — ويستشهد البيت لأبي نواس عند تفسيره قوله تعالى :

« إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين »^(٣).

فيقول : فيه وجهان : أحدهما أنه كان وحده أمة من الأمم ، الكمال في جميع صفات الخير ، كقول الشاعر :

وايس لله بمنصفك
أن يجمع العالم في واحد^(٤).

ومعنى أن البيت لأبي نواس كما في ديوانه وفي أوضح المسالك لابن هشام في باب أداة التعريف .

وإذا كان لم يصرح باسم أبي نواس في هذا البيت ، فقد صرح باسمه مرات أخرى ، كأنه عند تفسير قوله تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء »^(٥) .

إذا يقول : ومعنى تزوين العمل والإضلال واحد ، وهو أن يكون العاصي على صفة لا تؤدي عليه المصالح حتى طاعة الخوى ، فيرى التبيح حسناً والحسن قبيحاً ، ويقع تحت قول أبي نواس :

اسقني حتى تراني حسناً عسى ألقى القبيح^(٦)

(١) يد صفر بتثنية الصاد : نالية

(٢) الكشاف ١/٤١٠

(٣) سورة النحل ١٢٠

(٤) الكشاف ١/٣٣٨

(٥) سورة فاطر ٨

(٦) الكشاف ٢/٢٣٩

٥ — ويستشهد بقول الشاعر :

وكأن شربت على لذة [وأخرى تداويت منها بها]

عند تفسير قوله تعالى : « بطاف عليهم بكأس من معين »^(١) .

ويذكر أنه يقال للرجاجة فيها الخمر كأس - وتسمى الخمر كأساً^(٢) .

٦ — ويستشهد بقول طرفة :

أرى الموت يفتام الكرام ويضعاني عقيقة مال الفاحش للشهد^(٣)

عند تفسير قوله تعالى : « وإنه لحب الخير أشيد »^(٤) .

ليوضح أن الشديد هو البخل الممسك^(٥) .

٧ — واستشهد بشعره وإن لم يصرح بأنه له .

عند تفسيره أقوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بغضه

فما فوقها »^(٦) .

ذكر هذه الآيات على أنها لبعضهم :

يا من يرى مد البعوض جناحها في طامة الليل الميم الأيل

ويرى عروق بياضها في خمرها والخب في تلك العظام النحل

اغتر لعبد تاب من قوطاته ما كان منه في الزمان الأول

وهذه الآيات له ، كما يتبين من ديوانه^(٧) .

وعند تفسير قوله تعالى : « ولتذكر أم القرى ومن حولها »^(٨) .

ذكر هذا البيت على أنه لبعض الجاورين :

فإن ياق في بعض القرى رحاله فأم القرى ملق رحالي وعتابي^(٩)

(١) سورة الصافات ٥٥

(٢) الكشف ٢/٢٦٢

(٣) يفتام : يختر

(٤) سورة الباقيات ٨ (٥) الكشف ٧/٥٥

(٦) سورة البقرة ٢٦ (٧) ديوان الرختمري ٩٦

(٨) سورة الأنعام ٩٢ (٩) الديوان ٥ والكشاف ١/٣٠٣

سابعاً - بلاغة ونقد

تمهيد

سارع المعتزلة إلى دراسة اللغة والأدب والعلوم الدينية والفلسفة والنطق ، لأن مكانهم اللغوية أملت عليهم أن يحيطوا بالبلاغة وأدبها ، ليتخيروا التعبير الجيد للأفكار المفكرة ، وليتفهموا النصوص ، ويغوصوا إلى أسرارها ، ولأنهم كانوا يمدون أنفسهم للاقتصار في الجدل الدائر بينهم وبين اليهود والنصارى ، وبينهم وبين مخالفيهم من المسلمين ، وفي هؤلاء وأولئك أصحاب الفن وأصحاب الفلسفة .

لهذا كثير في المعتزلة البلاغة والفلسفة ، فكان منهم أساتذة المذاكرة ، وأعلام الجدل ، وجهات السكتابة والخطابة ، ورواد البلاغة ، وكانوا يروون الشعر ويقرضونه ، وكان بشر بن العتمر أرواه له ^(١) ، وله قصيدة من أربعين ألف بيت ضمها تحفه لأراء مخالفيه ، وشهد الجاحظ أنه لم ير أحدا استطاع من النظم الخمس والمزدوج ما استطاعه بشر ^(٢) ، وله قصيدتان أخرتان ^(٣) .

كذلك كان الجاحظ حفاضة للشعر ، كثير الاستدلال به في مؤلفاته كلها ، وكان يستطيع نظمه .

ولهم في وضع أصول البلاغة سبق لا ينكر ، منذ كتب بشر بن العتمر وصيته للأدباء ^(٤) ، ومنذ كتب الجاحظ فصولا في البلاغة منشورة في كتبه وبخاصة البيان والتبيين .

(١) الحيوان ٤٠٥/٦ (٢) اللينة والأمل ٣٠

(٣) الحيوان ٢٨٤/٦ - ٢٩٢

(٤) البيان والتبيين ١٣٥/١

ولهذا ازدهى الجاحظ ببلاغة المعتزلة في قوله: ^(١١) «فإن عبر الخطيب عن شيء من صناعة الكلام، واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين». إذ كانوا تلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحسن، وبها أشغف؛ لأن كبار المتكلمين ورؤساء النظاريين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تغيروا تلك الألفاظ تلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطنعوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خالف، وقدموه لكل تابع، ولذلك قالوا: العرض والجوهر، وأيس وليس، وفرقوا بين البطلان والثلاثي، وذكروا الهدية والهوئية والماهية ^(١٢) وأشباه ذلك».

ولقد عني المعتزلة بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي، فلجاحظ (المتوفى سنة ٥٢٥ هـ) كتاب فيه ساء (نظم القرآن) لم يصل إلينا، وعلي بن عيسى الرماني (٣٨٤) رسالة ساءها (النكت في إعجاز القرآن) ^(١٣) تناولت سبعة أسباب لإعجازها منها: البلاغة، والعجز عن المعارضة، والتجدي لإكفائه.

ثم ألف أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادي قاضي قضاة الدولة البويهية (٥١٥ هـ) ^(١٤) كتابه (المنقى في أبواب التوحيد والعدل) ^(١٥) تناول في الجزء السادس عشر منه إعجاز القرآن، فأوجعه إلى فصاحة الأسلوب.

ثم جاء الزمخشري فطبق في تفسيره آراء المعتزلة والأشعرية ^(١٦) إذ درس

(١) البيان والتبيين ١/١٣٩

(٢) الهدية نسبة إلى هذا، والهوئية نسبة إلى هو، والماهية نسبة إلى ما هو

(٣) معجم الأدباء ١٤/٢٣ وطبعت الرسالة ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن

(٤) طبقات الشافعية ٣/١١٤

(٥) تفسيره وראה المذاهب والإرشاد القومى

(٦) ألف المتوفى سنة ٥٠٣ هـ كتابه إعجاز القرآن بين فيه وجوه الإعجاز التي

بمقتضاها هو وأصحابه الأشاعرة وردوا إلى أساليبها الناحية البلاغية المتصلة بالنظم أو التعبير، وقد طبع كتابه مرات.

ما أثنى سابقوه ، وتأثر بما كتبه عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) .

وكان من آثاره هذا أنه عنى بعلوم البلاغة ، وبخاصة المعاني والبيان ، وكشف عن كثير من ألوانهما في الآيات القرآنية ، وجلا أسرار ما فيها من روعة وجمال ، ليعين سر الإعجاز .

وقد به على هذه الزعة في مقدمة الكشف ، فقال : إن طبقات العلماء تتساوى وتتداني في حين كل علم وعمود كل صناعة ، ولكنهم يتباينون ويتفاضلون في إدارته ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت ، ولطائف المعاني ، وغوامض الأسرار .

ثم قال إن علم التفسير حافل بما يغمر القرائح ، وبمهر الألباب ، من غرائب النكت ودقائق الأسرار ، ولهذا لا يستطيع أن يجيل النظر فيه كل ذي علم ، كما ذكر الجاحظ في كتاب نظم القرآن ، فالنقيض وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار ، والواعظ الغلاب ، والنحوي المذوق ، والفقهي المتعمق ، لا يتصدى أحد منهم لسوء تلك الطرائق ، إلا إذا كان بارعا في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، منهما لا في إرتيادهما والتفكير عنهما ، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ ، كثير التحقيق والحفظ^(١) .. إلخ .

وتلاحظ أنه فرق بين علمي البيان والمعاني في قوله^(٢) : « لا يتصدى منهم

(١) المقدمة ٣

(٢) أطلق ابن القزويني بن جعفر وأبو حلال العسكري وابن رشيقة كلمة السمع على ما حدث علم البيان ، فملوا من السمع الاستعارة والمجاز والكتابة والتعريض ، وهم لا يريدون علم البديع ، بل يريدون الطريف الخليل . وكما عبد القاهر في أسرار البلاغة لا يقلل من صفحة ١٣ هو أما التطبيق (الطابق) والاستعارة وسائر أقسام البديع .. إلخ

أحد ليلوك تلك الطرائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن .
وهما علم المعاني وعلم البيان ، وقيل في ارتيادها آونة ، وتعب في التفسير عنهما أزمئة .
وذكر هذه التفرقة في مقدمة كتابه (أعجب العجب في شرح لامية
العرب) وفي مقدمة كتابه (أساس البلاغة)^(١) .

والحق أن عبد القاهر الجرجاني كان يريد بالنظم علم المعاني أي الأسلوب ،
وكان قد ردد في كتابه أمرار البلاغة كلمة البيان ، فجاء الزمخشري وأطلق علم
المعاني وعلم البيان على ما يطلقان عليه اليوم ، وبهذا فصل العلمين بعضهما عن
بعض .

أما علم السدع فهو في رأي الزمخشري تابع للمعاني والبيان ، وليس علما
قائما بذاته .

وقد تأثر السكاكي (٦٢٦ هـ) برأي الزمخشري ، ففصله ودل عليه ، وفضله
على غيره من الآراء^(٢) فقال : إن السبب في الإعجاز هو ما يجده أصحاب الذوق
من أن وجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة ، ولا طريق لك إلى هذا
الأمر إلا طول خدمة هذين العلمين — المعاني والبيان — بعد فضل إلهي من
هبة يهبها بحكمته من يشاء ، وهي النفس المستعدة لذلك ، فكل ميسر لما خلق له .
ولا استبعاد في إنكار هذا الوجه ممن ليس معه ما يطاع عليه ، فلم يحسبنا

(١) أما قوله مد تفسر الآية الكريمة (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) هذا من
الصنعة البديعة التي تبلغ بالحجاز الندوة العلية ، وهو أن تدان كلمة مبان الحجاز ، ثم تنق بأشكال
ألفا وأخوات ، وهو المجاز الرشيق (المكنى ١ / ٣٩) فإنه لا يريد بالصنعة البديعة علم البديع
كأفهم بعض الدارسين .

(٢) أرجح الزماني وجوه الإعجاز إلى سبعة : الأول ترك المعارضة مع توافر الدواعي
وعنده الحاجة ، والثاني التحدي للسكفة ، والثالث الصعرة ، والرابع البلاغة ، والخامس الأدياء
المصادقة عن الأمور المستقبلية ، والسادس نفس العادة ، والسابم قياس القرآن بكل معجزة [لذلك
و [إعجاز القرآن] وردها الانطلاق إلى ثلاثة الإنهاء بالأمور الغيبية ، والتقصص النبوية وأخبار
الأنبياء ، والمناحي البلاغية المتصلة بالنظم (إعجاز القرآن)

الذيل في إسكارة ، ثم ضمنا الذيل ما بين نسكرة ، فله الشكر على جزيل ما أولى ، وله الحمد في الآخرة والأولى^(١) .

وقال : ولا سبيل إلى إدراك هذه البلاغة وهذا الإعجاز إلا بالتدقيق والتتبع من على البيان والمعاني ، وإمطة اللسان عن الأسرار البلاغية لجلالها ، أما نفس وجه الإعجاز فلا يدرك^(٢) .

ثم تأثر به يحيى بن حمزة العلوي (٧٥٩ هـ) فقال في مقدمة كتابه (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز) : إن الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من الإخوان شرعوا في قراءة كتابه الكشف تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ التفسيرين محمود بن عمر الزمخشري ، فإنه أسسم على قواعد هذا العلم ، فأتضح عند ذلك وجه الإعجاز من التبريل ، وعرف من أجله وجه التفارقة بين المستقيم والمعوج من التأويل ، وتفقوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه والوقوف على أسرار وأغواره ، ومن أجل هذا الوجه كان متميزا عن سائر التفاسير ، لأن لم أعلم تفسيرا مؤسسا على المعاني والبيان سواء فسألت بعضهم أن أملي فيه كتابا يشمل على التهذيب والتحقيق ، فانهذيب يرجع إلى اللفظ ، والتحقيق يرجع إلى المعاني ، إذ كان لا مندوحة لأحدهما عن الثاني^(٣) .

وبحسب الزمخشري من التقدير أن ابن خلدون أرجع تفوق المشاركة على المشاركة في الدراسات البلاغية إلى أن المشرق أوفر عمرا منا من المغرب ، وإلى عنابة العجم — وهم معظم أهل المشرق — علوم البلاغة وبخاصة المعاني والبيان ، كما صنف الزمخشري في تفسيره لأنه كله مبني على البلاغة ، وهو أصل لها .

(١) مفتاح العلوم ٢٤٣

(٢) مفتاح العلوم ١٩٦

(٣) الطراز ١/٥

ثم قال: واعلم أن شجرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن . . .
وأكثر تفاسير المتقدمين غلبت عنه، حتى ظهر الزحشرى ووضع كتابه في التفسير،
وتتبع آى القرآن بأحكام هذا الفن، وما يبدى البعض من إعجازه، فانفرد بهذا
الداخل على جميع التفاسير، لولا أنه يؤيد عقيدة أهل البدع عند اقتباسها من القرآن
بوجوه البلاغة، ولأجل هذا يحتاجها كثير من أهل السنة، مع وفور بضاعتها
من البلاغة^(١).

أما بعد فقد عرض الزحشرى لمسائل بلاغية كثيرة في توضيح وتفصيل وتجلية
لأسرار الجمال، وتنظير آيات قرآنية أخرى، وتمثيل بنصوص من الشعر البليغ
والشعر الرائع.

واستأريد استقصاء ما عرض له، بل أريد التمثيل ببعضه، فلهذا ما اتصل
بعلم البيان، ومنه ما اتصل بعلم المعانى.

(١) في علم البيان

١ — التشبيه

عرض للتشبيه المفرد في آيات كثيرة، منها قوله في تفسير الآية المذكورة:
«إنها ترمى بشرر كأنه صفير»^(٢): إنها ترمى بشرر عظيم
كأنه صفير أو كالشجر الغليظ أو مثل القصر — على وزن سبب — وهى أعناق
الإبل أو أعناق النخل، كأنه جمال تضرب إلى الصفرة.

وفي شعر عمران بن حطان الفخاري:

دعهم بأعلى صوتها ورمهم
بأعلى الجمال الصفرة ناع الشوى

وقال أبو العلاء :

حرارة ساطعة الدواب في الدجى ترمى بكل شرارة كغراف
فشبهها بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحركة ، وكأنه قصد بعبه أن يزيد
على تشبيه القرآن ، ولتبيحه توهم الزيادة ، فجاء في صدر بيته بقوله حرارة ، نوطنة
لحاء ومناداة عليها ، وتنبها للسامعين على مكائهم ، ولقد عني — جمع الله له عني
الدارين — عن قوله عز وعلا (كأنه جملة صفر) فإنه بمنزلة قوله (كبيت
أحر) على أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيها من جهتين : من جهة
العظم ، ومن جهة الطول في الهواء ، وفي التشبيه بالجمال تشبيه من ثلاث جهات :
من جهة العظم والطول والصفرة ، فأبعد الله إنشائه في طرافه ، وما خرج به شذوذه
من استطرافه (١).

واستأجد سيرا لهذه الجملة العنيفة على المعرى ، لأنه شبه الشرارة الكبيرة
بالخيمة ، والقرآن الكريم شبه الشر بالجمال أو بالشجر القليظ أو بأحناق الإبل
أو بجذوع النخل ، وسواء أكان تشبيه المعرى جيدا أم غير جيد ، فإنه لا بدع أن
تشبيهه يسامى تشبيه القرآن الكريم ، ولا يستطيع أحد أن يدعى له ذلك .

٢ — تشبيه التمثيل :

عرضه في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت
بتجارهم » ، وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي استوفد نارا ، ففما أضلأت
ماحواله ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، ثم إنهم كنعى
فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات وورعد وبرق . يجمعون
أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين (٢) .

فيقال : الصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التشبيهين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون التفرقة ، لا يتكلف لواحد واحد شي . بقدر شبهه به ، وهو القول الفحل والمذهب الجزل .

وبيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض لم يأخذ هذا بحجرة ذلك ، فتشبهها بنظائرها^(١) ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا . بأخرى مثلها ، كقوله تعالى « مثل الذين نحملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا »^(٢) الغرض تشبيه جال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحمال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة ، وتساوى الحائزين عنده من حل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار ، لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفتيه - بحاجتهم - من الكد والتعب .

وكقوله تعالى : « واضرب لهم مثلا الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاخلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح »^(٣) المراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر .

فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد ، غير منوط ببعضها ببعض ، ومفصلا شيئا واحدا . . فلا ، فكذلك لما وصف وقوع المنافقين في ضلالتهم ، وما خبطوا فيه من الخيرة والدهشة ، شبت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طغى نره بعد إيقادها في ظلمة الليل ، وكذلك من أخذته السماء في اليلة المنقلة مع رغد وبرق وخوف من الضواغق .

وذكر بعد ذلك أن التشبيه يحى ، بإداه وبغير أداة .

(١) هذا هو التشبيه المتعدد

(٢) سورة الجمعة .

(٣) سورة الكهف .

وفي تعليقه على الآيات نفسها ما يدل على أن التشبيه التمثيلي ينطبق أيضا على تشبيه حال نحال، وهو ما سماه التمثيل^(١) أو ضرب المثل ، لأن المثل يشمل الخال والصفة والقصة ، فإنه قال في تفسير « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » : لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بضرب المثل زيادة في الكشف وتعميق البيان .
ولضرب العرب الأمثال واستحصار العلماء للمثل والنظائر ، شأن ليس بالخطي في إيراد خيالات المعاني ، ورفع الأسرار عن الحقائق ، حتى تربك المتخيل في صورة الحقيق . ولتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه شاهد ، وفيه تسكيت لمحصن الأعداء ، ورفع لسورة الجامع الأنبياء ، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله . وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء . قال الله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون »^(٢) .

وللمثل في أصل كلامهم معنى المثل وهو النظير ، يقال مثل ومثيل كشيء ورشبه وشبيه^(٣) .

فإن قلت : ما معنى مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ؟ وما مثل المنافقين ؟ ومثل الذي استوقد نارا حتى شبه أحد المتولين بصاحبه ؟ قلت : قد استعير المثل استعارة الأسد للتقدم ، للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، كأنه قيل : حالهم العجيبة الشأن كحال الذي استوقد نارا ، وكذلك قوله تعالى « مثل الجنة التي وعد المتقون »^(٤) .

أي وفيما قصصنا عليك من العجائب قصة الجنة العجيبة ثم أخذ في بيان عجائبيها .

(١) ذكر في شرحه لغاماته صفحة ١٥٦ أن الذي يسمى تمثيلا نحو قوله تعالى (منسمة على الخرماء) . ثبت حاله في النال والهانة بحال الموسوم على أعز موضع منه
(٢) سورة التكاوير ٤٣
(٣) السكشاف ١/٣٠ --- ٣٣
(٤) سورة الرعد ٣٥

وقال في تفسير قوله تعالى: «يوم نقول لجهنم هل امتلأت» . ويقول هل من مزيد؟^(١) :

إن سؤال جهنم وجوابها من باب التخيل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتبينه، وفيه معنيان : أحدهما أنها تنمل مع أناسها وتبعد أطرافها ، حتى لا يسمعها شيء ، ولا يزداد على امتلائها بقوله تعالى : « لا ملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين »^(٢) .

والثاني أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد^(٣) . وقد فرق السكاكي بين التشبيه والتمثيل ، ورأى أن التمثيل هو ما كان وجهه وصفاً غير حقيقى ومقتزعا من عدة أمور^(٤) .

٣ - الاستعارة

عرض للاستعارة فقال في تفسير الآية الكريمة : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » : إن الضلالة الجور عن القصد ، واتخذ الاهتداء ، استعير للذهاب عن القصد في الدين^(٥) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ثم جعلناكم في الأرض من بعدهم ، لننظر كيف تعملون »^(٦) :

أى استخلفناكم في الأرض بعد اقرون التي أهلكتها ، لننظر أتعلمون

(١) سورة ق: ٣٠

(٢) سورة السجدة: ١٢

(٣) الكشاف ٢/ ٢٠٥

(٤) مفتاح العلوم ١٨٥

(٥) الكشاف ١/ ٢٩

(٦) سورة يونس ١٤

خيراً أم شراً ، فنعاملكم على حسب أعمالكم ، والنظر هنا مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشئ الموجود ، شبه بنظر الناظر وعيان العاين في تحققه .

و يوضح من تعليقه على الآية الكريمة : «**صُمِّ بُكْمٌ**» عني فهم لا بصرون » أنه لا يطالب الاستعارة إلا على ما يصح أن تطلق عليه ، فلا بد فيها من حذف التشبه أو التشبه به ، لأنه يفترض سائلاً يسأل : هل يسمى ما في الآية استعارة ؟ .

ويجيب على هذا بأن الحكم مختلف فيه ، ولكن المحققين على تسمية ما في الآية تشبيهاً ، لا استعارة ، لأن الاستعارة له ملذكور وهم المتفقون ، والاستعارة إما مخاطب حيث يطوى ذكر الاستعارة ، ويجعل الكلام خلفاً عنه صائلاً لأن يراد به المنقول عنه أو المنقول إليه لولا دلالة الحال أو فجوى الكلام ، كقول زهير :

لدى أسد شاكي السلاح قدح **له** لبنة أضمره لم تقسم

وليس لقائل أن يقول : طوى ذكرهم عن الجملة لحذف المبتدأ ، فتساق بذلك إلى تسميته استعارة ، لأنه في حكم المنطوق به ، نظيره قول من يخاطب الحجاج :

أسد على وفي الحروب **معادة** فتخاء تنفر من صغير الصافر

وعرض للاستعارة الكممية في قوله تعالى : «**وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه**» فقال : النقض الفسخ وفك الترتيب ، قول قلت من أين سمع استعماله في إبطال العهد ؟ قلت : من حيث تسميتهم العهد بالخيال على سبيل الاستعارة ، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين . . . ومن أسرار البلاغة والمطابقة أن يسكتوا عن ذكر الشئ المستعار ثم يربطوا إليه

بدكرتني من روائده ، فلينبهوا بذلك الزمردة على مكانه ، ونحوه قولك
شجاع يفتخرس أقرانه ، وعالم يعترف منه الناس ، لم نقل هذا إلا وقد سبقت على
الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر^(١) .

وتنبه إلى الترشيح في الاستعارة في تعقيبها على قوله تعالى : « أولئك الذين
اشترؤا الضلالة بالهدى » فقال : إن قلت عيب أن شراء الضلالة بالهدى وقع
مجازاً في معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة ، كأن ثم وبابغة على
الحقيقة ؟

قلنا : إن هذا من الصنعة البديعة التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن
تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تبقى بأشكال لها وأخوات إذا تلاحقن لم تر كلاماً
أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورواقاً ، وهو المجاز الترشح ، وذلك نحو قول
العرب في البليد : كأن أدنى قلبه خطلاً وان — مسترخيتان — جموده كالخمار ،
ثم رشحوا ذلك وما تحقيق البليداء فادعوا لقلبه أذنين ، أو ادعوا لهما الخطل
— الأسرخاء — لتمثيلاً للبلياء تمثيلاً باحتمال بيلادة الخمار شاهدة معانية . . .
فكذلك لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيه وما يكمل ويتم
بانضمامه إليه : تمثيلاً لخسارهم وتصويراً لحقيقته^(٢) .

كذلك عقب على الآية السكرية : « مثاهم كمثل الذي استوقد نارا قلنا
أضادت ما حوله ذهب الله بنورهم » بأن النار يصح أن تكون مجازية كمنار
الفتنة والعداوة والإسلام ، وبصح أن تكون نارا حقيقية أوقدها القوة ليتوصلوا
بالاستضاءة بها إلى بعض المعاصي ، فاطلأها الله . وجاز في النار المجازية أن
توصف بضادة ما حول المستوقد على طريقة المجاز الترشح ، فأحسن تدبره^(٣) .

(١) الكشف ٨/١ :

(٢) الكشف ٢٩/١ :

(٣) الكشف ٣١/١ :

وقد تكرر السكاكي في شرحه الاستعارة في قوله تعالى : « فاذقوا الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصفون »^(١) . وورد عليه أن الكلام يحتمل أن يكون على الحقيقة^(٢) .

٤ — الكناية

ذكر الكناية ، وفرق بينها وبين التعريض^(٣) . فالكناية في رأيه أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك طويل النجاد والحائل لطويل القامة .

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره ، ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يزيد^(٤) .

قال في تفسير الآية الكريمة : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم »^(٥) : هو أن يقول لها : إياك الجيلة ، أو صالحة ، أو ناقة ، ومن عرضي أن أتزوج ، وعسى الله أن يسر لي امرأة صالحة . . . ولا يصرح بالنكاح . . . فإن قلت : أي فرق بين الكناية والتعريض ؟ قلت : الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك طويل النجاد والحائل لطويل القامة ، وكثير الرماد للمضيف .

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره ، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئت لك لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذلك قالوا :

(١) سورة النمل ١١٢ والكشاف ٥٣٧/١

(٢) مفتاح العلوم ٢٠١

(٣) جعل الترغيب في كل نوع من هذه مستقلاً عن الآخر ، على حين أن السكاكي أدخل في الكناية التعريض والتلويح والإيحاء (مفتاح العلوم ٣١٨)

(٤) الكشاف ١١١/١

(٥) سورة البقرة ٢٣٥

وحسابه بالتسليم من تقاضيه .

وكانه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح ، لأنه يلوح منه ما يريد (١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » (٢) :

لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملائكة مما يردف الملائكة جعلوه كناية عن الملائكة . فقالوا استوى فلان على العرش ، يريدون ملكاً ، وإن لم يقعد على السرير البتة . وقالوه أيضاً لشهرته في ذات المعنى ومساواته ملك في مؤداه ، وإن كان أشرح وأبسط وأدل على صورة الأمر (٣) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « وقالت اليهود يدُ الله مغلولة ، غُلَّتْ أَيْدِيَهُمْ ، واعتوا بما قالوا بل يدُ الله مبسوطان ، يُنفق كيف يشاء » (٤) .

على اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ، ومنه قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة ، إلى غنمك ولا تبسطها كل البسط » (٥) . ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط ، ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه ، لأنهما كلامان معتبران على حقيقة واحدة ، حتى إنه يستعمل في ملك لا يعطى عطاءً قط ، ولا يمنعه إلا بإشارته ، من غير استعمال يده وبسطها وقبضها ، ولو أعطى الأقطع إلى التركيب عطاء جزئياً لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ، لأن

(١) الكشاف ١/١١٧

(٢) سورة طه ٥

(٣) الكشاف ٢/٤٠

(٤) سورة المائدة ٦٤

(٥) سورة الإسراء ٣٩

يسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود ، وقد استعملوها حيث لا تصح اليد كقوله :

جاد الخى بسط اليدين يوايل شكرت نداء قلائعه ووهاده

ولقد جعل اليد للشرل يداً فقال : إذا أصبحت بيد الشمال زمامها .

ويقول بسط اليأس كفيه في صدرى ، فجعلت اليأس الذى هو من المعافى لا من الأعيان كفتين . ومن لم ينظر في علم البيان عجز عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية ^(١) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ^(٢) : هذا مجاز ، والمراد قرب علمه منه ، وأنه يتعلق بأحواله تعليقاً لا يخفى عليه فيه شئ من خفياته ، فكأن ذاته قريبة منه ، كما يقال لله في كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة ^(٣) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أنفها ماؤها ، وقال الإنسان : ما لها ؟ يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ^(٤) » : فإن قلت ما معنى تحريث الأرض والإحياء لها ؟

قلت : هو مجاز عن إحداث الله تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث بالإنسان ، حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال ، فيعلم لم زلزلت ، ولم لفظت الأموات ، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه ، وقيل بتعلقها على الحقيقة ، وتغير عما عمل عليها من خير وشر ^(٥) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « قالوا أئمننا أحملا وما نحن بمأويل الأحملا بمالمين ^(٦) » :

- | | |
|------------------|------------------------|
| (١) الكشاف ١/٢٦٤ | (٢) سورة في ١٦ |
| (٣) الكشاف ٢/٢٠٢ | (٤) سورة الزلزلة ١ — ٥ |
| (٥) الكشاف ٢/٥٥٦ | (٦) سورة يوسف ٤٤ |

أضغاث الأحلام تخاليعها وأباطيلها وما يكون منها من حديث نفسى
أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث ما جمع بين أحلاط النبات وحرمه ،
والواحد ضِغْث ، فاستعيرت لذلك ^(١) .

وقال فى الأساس : الضغث القبضة من قضبان صغار أو حشيش بعضه فى
بعض ، وضغته جعله أضغاثاً . ومن الحجاز : هذه أضغاث أحلام ، وهى ما التبس
منها ، ويقال للحجاز : أضغاث الرؤيا : جثت بهما ملتبسة . وضغث الحديث :
خلطه ^(٢) .

هـ - المجاز المرسل

هو كل كلمة استعملت فى غير معناها الأصلى بعلاقة غير المشابهة مع قرينة
مانعة من إرادة المعنى الأصلى ، ومن علاقاته السببية والسببية والجزئية والكيفية
والحالية والحالية واعتبار ما كان واعتبار ما سيكون . وقد عرض الزحشرى
له فى كثير من الآيات .

قال فى تفسير قوله تعالى : « إِن السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ، تُجْزَى كُلُّ
نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ، فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَرَقَرَى » ^(٣) .
فإن قلت : العبارة لى من لا يؤمن عن صدق موسى ، والمقصود نهى
موسى عن التكذيب بالبعث ، أو أمره بالصدق ، فكيف صاحت هذه العبارة
لأداء المقصود ؟

قلت : فيه وجهان أحدهما أن فى صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب ،
فذكر السبب ليدل على السبب ، والثانى أن صد الكافر سبب عن رخصة لرجل

(١) الشكاف ١/ ٤٧٣ (٢) أسس البلاغة : مادة جثث

(٣) سورة طه ١٥ - ١٦

في الدين وتبين شكميته ، فذكر السبب ليدل على السبب . كقولهم لا أرى منك
ها هنا ، المراد منه عن مشاهدته ، والخصور عجله ، وذلك سبب رويته إياه ،
فكان ذكر السبب دليلاً على السبب ، كأنه قيل فكأن شديد الشكيمة حتى
لا يتلحح منك لمن كفر بالبعث أن يطاع في صدك عما أنت عليه ^(١) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « كل شيء هالك إلا وجهي » ^(٢) :

كل شيء هالك إلا إياه ، والوجه يعبر به عن الذات ^(٣) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال
والإكرام » ^(٤) : المراد بالوجه الذات ، والوجه يعبر به عن الجلالة والذات بوصفها
مكة يقولون : أين وجه عيسى كريم ينقذني من الهوان ^(٥) .

٦ — المنجاء العقلي

هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له العلاقة مع قرينة مانعة من
إرادة الإسناد الحقيقي وهو يسكون إلى سبب الفعل أو زمانه أو مكانه أو مصدره
أو إسناد المبني للفاعل إلى المفعول أو المبني للمفعول إلى الفاعل . وقد اعتمد
المنجسرى على هذا المنجاء كثيراً في تأويل الآيات المتصلة بخبرية العباد واختيارهم
وفقاً لمذهب المعتزلة .

فقال في الآية الكريمة : « يصل به كثيراً ويهتدى به كثيراً » ^(٦) : إن
إسناد الإضمار إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب ، لأنه لما ضرب الشل
فصل به قوم واهتدى قوم بسبب اضلالهم وهداهم ، وعن مالك بن دينار رحمه
الله أنه دخل على محبوبس قد أخذ به عابده وقيد ، فقال : يا أبا يحيى أما ترى
صالحين فيه من اليهود ؟ فرفع مالك رأسه ، فرأى سلة ، فقال : لمن هذه السلة ؟

(١) الكشاف ٢/٢٢

(٢) سورة القصص ٨٨

(٣) الكشاف ٢/١٧٣

(٤) سورة الرحمن ٢٧

(٥) الكشاف ٢/٢٥٥

(٦) سورة البقرة ٢٦

فقال الرجل : لى . فأمر بها فنزل ، فإذا دجاج وأخبضة^(١) ، فقال مالك : هذه
ضعت القيود على رجلك^(٢) .

وقال فى تفسير قوله تعالى «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فقد ربحت
تجارهم» ، وما كانوا مهتدين^(٣) «أسند الطبرانى إلى التجارة ، وهو لأصحابها
على طريقة الإسناد المجازى ، وهو أن يسند الفعل إلى شئ : يشابس بالذى هو فى
الحقيقة له ، كما تبست التجارة لستين .

فإن قلت : هل يصح ربح عبدك وخسرت حمارك إلى الإسناد المجازى ؟
قلت : نعم إذا دلت الحال ، وكذلك الشرط فى صحة رأيت أسدا ، وأنت تريد
المقدمات ، إن لم تقم حال دالة لم يصح .

وقال فى تفسير قوله تعالى : «الله يعلم ما تحمل كل أنثى» ، وما غيض الأرحام^(٤)
وما تزداد^(٥) ، وكل شئ عنده بمقدار^(٦) .

(١) فى الأفعال الثلاثة : إما موصولة ، وإما مصدرية ، فإن كانت موصولة
فالمعنى أنه يعلم ما تحمله من الولد على أى حال من ذكورة وأبوثة ويعلم
ما غيض الأرحام ، أى تنقصه ، يقال غاض الماء ، وغضته أما ويعلم ما تزداده
أى تأخذه زائدا ، ومنه قوله تعالى : «وازدادوا تسعا»^(٥) .

وإن كانت مصدرية فالمعنى أنه يعلم حمل كل أنثى ، ويعلم غيض
الأرحام وازديادها . ويجوز أن يراد غيض مائى الأرحام وزيادته ، فأسند الفعل
إلى الأرحام ، وهو لما فيها^(٦) .

(١) أخبضة : جمع غيض وهو العمول من السن والقر .

(٢) الكتاب ١٧/١ (٣) سورة البقرة ١٦

(٤) سورة الرعد ٨ (٥) سورة السجدة ٢٥

(٦) الكتاب ١٧/١

٢ - في علم المعاني

تناول كثيرا من موضوعات علم المعاني ، مثل :

١ - القصر

قال في تفسيره قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ، وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ » ^(١) .

إنما القصر الحكم على شيء ، كقولك : إنما ينطلق زيد ، أو تقصر الشيء على حكم كقولك : إنما زيد كاتب ، ومعنى « إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ » أن صفوة المصلحين خالصت لهم وتمحصت من غير شائبة قدح فيها ^(٢) .

وقد رد الله عليهم أبلغ رد في قوله : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ »
لأن الألف التأكيد ، وتعريف الخبر ، وتوسيط الفصل — الضمير هم — .

وقال في تفسير قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ . قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّبِعُونَ » ^(٣) . قدم المفعول بقصد الاختصاص . كقوله تعالى : « قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّبِعُونَ » أي لا تعبدوا إلا الله ، وهذا معنى تقديم المفعول الجاهلون ^(٤) : والمعنى تخصصت بالعبادة وتخصصت بطلب المعونة .

وقال في تفسير قوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِمُ آفَتَهُ » ^(٥) .
اختص هدايتهم بالافتداء ، أي لا تهتد إلا بهم ، وهذا معنى تقديم المفعول ، والمراد بهداهم طريقهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة ^(٦) .

(١) الكشاف ٢٦/١

(٢) سورة البقرة ١١ — ١٢

(٣) سورة الزمر ٢٩

(٤) سورة الفاتحة ٤

(٥) الكشاف ٣٠٠/١

(٦) سورة الأنعام ٩٠

- وقال في تفسير قوله تعالى: «وَجُودٌ يُؤْمِنُ» ناخِزَةً إلى ربها ناظرًا: ^(١)
- تنظر إلى ربها خاضعة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله: «إلى ربك يومئذ المستقر» ^(٢).
- و: «إلى ربك يومئذ المنق» ^(٣).
- و: «إلى الله تضير الأمور» ^(٤).
- و: «إلى الله النصير» ^(٥).
- و: «إلى الله ترجعون» ^(٦).
- و: «عليه توكلت وإليه أئيب» ^(٧).
- كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ^(٨).

٢ - الفصل والوصل

عرضنا ^(٩)، فقال في تفسير قوله تعالى: «ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» ^(١٠) الذي هو أرسخ في البلاغة عرفاً أن يضرب عن هذه الحال صفحاً—يريد الخال المحوية—وأن يقال إن قوله (لم أجهل برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و: «ذلك الكتاب» جهة ثانية، و: «لا ريب فيه»

- | | |
|--|---------------------|
| (١) سورة القيامة ٢٢ | (٢) سورة القيامة ١٢ |
| (٣) سورة القيامة ٣٠ | (٤) سورة الشورى ٥٣ |
| (٥) سورة النور ٤٢ | (٦) سورة القصص ٧٠ |
| (٧) سورة هود ٨٨ | (٨) الكتاب ٥٠/٢ |
| (٩) اعتبرهما من علم البيان كما حرج بذلك في الكتاب ٥٥/١ | |
| (١٠) سورة البقرة ١ | |

الثالثة ، و « هدى المتقين » الرابعة . وقد أُصيب بقرينها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث جئنا بها متناسقة هكذا من غير حرف لنق ، وذلك فحيمها متأخية آخذا بعضها بمنق بعض ^(١) . . .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « قُلُوا إِنَّا مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » ^(٢) :
الجملة الثانية تؤكد الأولى ، لأن قولهم (إِنَّا مَعَكُمْ) معناه النبوت على اليهودية ، وقولهم (إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) رد الإسلام ودفع له ، لأن المستهزئ بالشيء يستخف به مشكرك له ، أو يدل منه ، لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر ، أو استخاف كأنهم اعترضوا عليهم حين قالوا لهم إِنَّا مَعَكُمْ ، فقالوا :
لما بالكم إن صح أنكم معنا توافقون أهل الإسلام ؟ فقالوا : إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ^(٣) .

فانفصل هنا سببه أن الجملة الثانية مؤكدة الأولى ، أو يدل منها ، أو استخفاف ، أو بيان لها ، أو جواب عن سؤال مقدر ، وهذه الأسباب هي التي يسميها علماء البلاغة انفصال السكبان الاتصال أو تشبه كمال الاتصال

وقال في تفسير قوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَالْآخِرَةَ هُمْ يُؤْتُونَ » ^(٤) :

فإن قلت « والذين يؤمنون » أهم غير الأولين ؟ أم هم الأولون ؟ وإما توسط العاطف ، كما توسط بين الصفات في قولك هو الشجاع والجواد وفي قوله :

إِنَّمَا لِلَّذِ الْقَرِّمِ وَإِنَّمَا هُمَا وَلَيْتَ الْكَتْبِيَّةِ فِي الزَّحَمِ

(٢) سورة البقرة ١٥

(٤) سورة البقرة ٢ — ٤

(١) الكشف ١٦/١

(٣) الكشف ٢٨/١

قلت . يحتمل أن يراد بهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ، فيكون المعطوف غير المعطوف عليه ، ويحتمل أن يراد وحف الأولين ، ووسط المعاطف على معنى أنهم الجامعون بين تلك الصفات وهذه ^(١) .

٣ - التوكيد

قال في تفسير قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون » ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ، فعمرنا ثالثة فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بئس مبطلين ، و : أنزل الرحمن من شيء ، إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ^(٢) .

فإن قلت : لم قيل « إنا إليكم مرسلون » أولاً ، وإنا إليكم لمرسلون » آخر ؟ قلت : لأن الأول ابتداء إخبار ، والثاني جواب عن إنكار ، وقواه « ربنا يعلم » جار مجرى القسم في التوكيد ^(٣) .

والمعروف في علم المعاني أن الخبر إن كان نغالي الذهن لا يؤكد ، فإن كان لشك أكد يؤكد واحد ، فإن كان لمفكر أكد يؤكدين أو أكثر .

فهو أراد الزمخشري بالخبر الأول أنه نغالي الذهن ، لأن المرسل إليهم كانوا في شك من صدق الرسل ، ولكنه أراد بقوله إن الأول ابتداء إخبار أي بالنسبة لهؤلاء المشاككين .

٤ - التقديم التأخير

قال في تفسير الآية الكريمة : « قل أغفر الله أتخذوا لي » ^(١) .

(١) الكشف ١٨/١

(٢) سورة يس ١٣ - ١٦

(٣) الكشف ٢٤٩/٢

(٤) سورة الأنعام

إن «غير الله» ونيت همة الاستفهام دون الفعل (أخذ) لأن الإنكار في اتحاد غير الله وليا ، لا في اتخاذ الولي ، فكان أولى بالتقديم ^(١) .

ومحذو: «أفغیر الله تأمرونی أعبدُ أيها الجاهلون» ^(٢)

فالتقديم هنا للاهتمام بنفي المقدم :

وقال في قوله تعالى: «ذلك الكتاب لا ريب فيه» ^(٣) : لم يقدم الضرف على الريب كما قدم على الغول في قوله تعالى: «لا فيها غول» ، ولا هم عنها يسرفون ^(٤) . لأن القصد في إيلاء الرب حرف النفي نفي الريب عنه ، وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعون ، ولو جاء الضرف بعد حرف النفي لبعد النفي عن المراد ، وهو أن كتابا آخر فيه الرب لا هذا الكتاب ، كما قصد في قوله «لا فيها غول» تفصيل خبر الجلة على خور الدنيا بها لا تعقل العقول كما تعالها هي ، كأنه قيل ليس فيها ما في غيرها من هذا العيب والفتيضة ^(٥) .

وقال في تفسير قوله تعالى: «وظنوا أنهم ما نعمتهم حصونهم من الله» ^(٦) : إن الفرق بين ظنوا أن حصونهم تمنعهم أو مانعهم ، وبين النظم الذي جاء عليه أن في تقديم الخبر على المبتدأ دليلا على فرط وثوقهم بحصانها ومنعتها وإياهم ، وفي نصير ضميرهم اسمًا لأن ، وإسناد الجلة إليه ، دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالون معها بأحد يتعرض لهم ، وليس ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم ^(٧) .

(١) الكشاف ١/٢٨٥

(٢) - سورة الزمر ٤٩

(٣) سورة الصافات ٤٧

(٤) سورة الجدر ٢

(٥) سورة البقرة ٢

(٦) الكشاف ١/١٥

(٧) الكشاف ٢/٤٤٥

٥ — الحذف

قال في تفسير قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ^(١) » :

إن مفعول تعلمون متروك ، كأنه قيل وأنتم من أهل العلم والعرفة ، والتوبيخ فيه أوكد ، أي أنتم العرافون ، المميزون ، ثم إن ما أنتم عليه في أمر دينكم من جعل الأصنام لله أنداداً هو غاية الجهل ونهاية سخافة العقل ، ويجوز أن يقدر وأنتم تعلمون أنه لا مماثل ، أو وأنتم تعلمون ما بينه وبينها من التفاوت ، أو أنتم تعلمون أنها لا تفعل مثل أفعاله ، كتواليه : « هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء » ^(٢) .

وقال في تفسير قوله تعالى « والضحى والليل سجى » ما ودعك ربك وما بلى ^(٣) :

حذف الضمير من بلى كحذفه من « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات » ^(٤) . يريد والذاكراته ، ونحوه فأوى ، فهدى ، فأغنى ، وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف ^(٥) .

٦ — الالتفات

عرض للالتفات ^(٦) ، فقال في الآية الكريمة : « إياك نعبد وإياك نستعين » فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ؟

- | | |
|--------------------|---------------------|
| (١) نزوة البقرة ٢٢ | (٢) الكشاف ٣٨/١ |
| (٣) سورة الضحى ١ | (٤) سورة الاحزاب ٣٣ |
| (٥) الكشاف ٤٩/٣ | |

(٦) اعتبر الالتفات من علم البيان واعتبره البلاغيون نعمة من علم المعاني

قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان، وقد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: «حتى إذا كنتم في الفلك وجرّبتهم»^(١)، وقوله تعالى: «والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه»^(٢).

وقد التفت امرؤ القيس ثلاثة الالتفات في ثلاثة أبيات:

تطاول ليلى بالأثمد ونام الخلى ولم ترؤف
وبات وبات له ليلة كلمة ذي العائر الأرمد^(٣)
وذلك من نأى جاءني وخيرته عن بني الأمود

وذلك على عادة افتتائهم في الكلام، وتعريفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن نظرية لنشاط السامع، وإيقاظ الإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد. وقد تختص مواقعته بفوائد، ومما اختص به هذا الموضع أنه لا ذكر الحقيقي بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعاقب العلم بمعلوم عظيم الشأن، تحقيق بالشقاء وغاية الخضوع والاستمانة به في المهمات، فتوغلّب ذلك المعام، التميز بتلك الصفات، فقيل إياك يا من هذه صفاته تخص بالعبادة والاستعانة، لا تعبد غيرك، ولا تستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به^(٤).

ومما يدل على تأثر السكاكي بالزحشرى أنه عرف الالتفات بأنه نقل الكلام من الحكاية والتكلم والخطاب والغيبة إلى واحد منها، وقال إن العرب يستكثرون منه، ويرون أن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب.

(١) سورة يوسف ٢٢ (٢) سورة طه ٩

(٣) العائر: كل ما أمرض البهائم والرمم والبئر في الجفن الأسفل.

(٤) الكشف ٨/١

أدخل في التبول عند السج ، وأحسن طريقة نشاطه ، وأمثالاً في استدراك إصبعه ،
وهو أجرياء بذلك ... ثم ذكر عدة أمثلة ختمها بأبيات امرئ القيس الثلاثة
التي ذكرها الزمخشري .

ثم تألب به بقطع بأنه نقل عن الزمخشري إذ قال : وهذا النوع قد ختمت
مواقفه بطائفة معان قلما تضجح إلا لأفراد بلغائهم ، أو لاجدق لثيرة في هذا
الفن ، ومتى ختمت موقعه بشئ من ذلك كساه فضل جهل وروق ، وأورث
السامع زيادة عزة ونشاط ... أصبح إلى قوله تعالى : « ياك اعبد وياك استعين »
بعد ثلاثين لفظاً فيها نوع من موقعه ، وكيف أصاب الحزن ، وطبق مفصل البلاغة ،
لكونه منها على أن العبد النعم عليه بذلك النعم العظام الفائقة للحصر إذا قدر
أهـ مائل بن عبد مولى ، من حقه إذا أخذ في القراءة أن تكون قرأه على وجه
يحمد معها نفسه شبه محرك إلى الإقبال على من يحمد ^(١) .

٧ - التعبير بالمضارع عن الماضي

قال في تفسير قوله تعالى : « والله الذي أرسل الرياح فتبدل سحابها ، فنفثنا
إلى بحر مبين ، فأخمين به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور » ^(٢) .

فإن قلت لم جاء « فتشير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟

قلت : ليحكى الحال التي تقع فيها إثارة الريح السحاب ، وتستحضر
تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه تخييل
وخصوصية الحال استغرب أو تبهم المخاطب أو غير ذلك ، كما قال « بطل امرئ » :
بأنى قد نقيت القول تهوى بهن كالهصيفة صمغتان ^(٣)

(١) مفتاح العلوم ١٠٧ .

(٢) سورة قمار ٩ .

(٣) القول : حيوان خرافي ، سحاب : فلاة . صمغتان : أرض مستوية .

(م ١٥ - الزمخشري)

فَأَضْرِبْهَا بِلَا دَهَشٍ فَخَرَّتْ صَرِيحاً لِلْيَدِينِ وَلِلْجِرَانِ^(١)

لأنه قصد أن يصور تقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول ، كأنه يصرف إياها ، ويضلعهم على كتمها ، مشاهدة للعجب من جرأته على كل هول ، وثباته عند كل شدة . وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالطار بعد موتها ، لا كان من الدلائل على القدرة الباهرة قيل (فسقاء) (وأحيينا) معذولاً بهما عن الغظة العمياء إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه^(٢) .

وقد نقل السكاكي ما قاله الزمخشري تعقباً على هذه الآية^(٣) .

٨ - التعبير بالماضي عن المستقبل

قال في تفسير الآية الكريمة : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ^(٤) » : إنهم كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم ، فقيل لهم « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ » الذي هو نزلة الآتي الواقع ، وإن كان منتظراً اقرب وقوعه^(٥) .

وقال في الآية الكريمة : « وَبِوَعْدِ اللَّهِ فَتَقَرَّعُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ^(٦) » : إنه عبر بالماضي لتسكينة ، وهي الإشعار بتحقيق الفزع وشيونه ، وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به ، وإنراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون^(٧) .

(٢) الكشاف ٢/٢٣٩

(٤) سورة النمل ١

(١) الجران : مقدم عتيق الزمخشري .

(٣) مفتاح العلوم ١٣٣

(٥) الكشاف ١/٥٩٩

(٦) سورة النمل ٨٧

(٧) الكشاف ٢/١٥٢

٩ - الجملة الاسمية والفعلية

ذكر أن الجملة الاسمية والفعلية تدل على الدوام والاستمرار، والجملة الفعلية تدل على التجدد .

قال في تفسير الآية الكريمة: « يا أيها الناس اتقوا ربكم ، وخشوا يوما لا يجزي ولد عن والده ولا مولود هو جازر عن والده شيئا »^(١) : إن الجزء الثاني من الآية وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه الجزء الأول ، لأن الجملة الاسمية أكد من الفعلية ، والسبب في مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين ، **وَعَلَيْهِمْ قَبْضٌ** آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي ، فأرسل حسم أطاعهم وأطاع الناس فيهم أن ينفعوا آباؤهم في الآخرة ، وأن يشفعوا لهم ، وأن يغفوا عنهم من الله شيئا ، فلذلك جيء به في الطريق الآكد^(٢) .

وقال في تفسير الآية الكريمة: « وإذا خاؤا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنا نحن مستهزون ، الله يستهزي بهم »^(٣) :

فإن قلت : فهلا قيل : الله يستهزي بهم طبقا لقوله إنا نحن مستهزون ؟

قلت : لأن يستهزي يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد وقت ،

وهكذا كانت نكبات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم^(٤) .

(١) سورة لقمان ٢٣

(٢) الكتاب ٢/ ١٩٩

(٣) سورة البقرة ١٥

(٤) الكتاب ١/ ٧٨ .

٣ - في علم البديع

١ - المجناس :

قال في تفسير قوله تعالى : « وجئتكم من سائر بَنَاتٍ يَقِينٌ »^(١) : إن هذا من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ ، بشرط أن يحىء مطبوعا ، أو يصنعه عالم بخوهر الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى وسداده .

واقعد جاء هاهنا زائدا على الصحة ، فحسن وبدع لفظا ومعنى . ألا ترى أنه لو وضع مكان (بنات) خير لكان المعنى صحيحا ، ولكنه كما جاء أصح ، لما في النبا من الزيادة التي يطابقها وصف الحال^(٢) .

وقال في تفسير الآية الكريمة « وقيل بالأرض ابلعى ما لا يحصى باسماء أفعلى »^(٣) : إن علماء البيان استفصحو هذه الآية ، ورفصوا لها زواجرهم ، لا لتجانس الكلمتين وهما ابلعى وأفعلى ، وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير المثلثت إليه بإزاء المجانس التي هي اللب وما عداهما قشور ، وقد بين مجانس الآية^(٤) .

٢ - الطباق :

في الآية الكريمة : « ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون »^(٥) ذكر السفه وهو الجهل ، فكان ذكر العلم معه أحسن طباقا له^(٦) .

(١) سورة النمل ٢٢ (٢) الكشاف ٢/١١٢

(٣) سورة هود ٤٤ (٤) الكشاف ١/٤٤١

(٥) سورة البقرة ١٣ (٦) الكشاف ١/٢٧

٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم :

قال في تفسير قوله تعالى : « وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (١) :
وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإيمان ، كقوله :
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ^{بين قلوب} من قراع الكتاب
وقال ابن الرقيات :

وما تقموا من بنى أمية إلا أنهم يحلمون بأن غضبوا (٢)

٤ - اللف والنشر :

هو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ، ثم ذكر ما شكّل واحد من
أحادي هذا المتعدد من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرد كل شيء إلى ما هو له ،
معتداً على قرينة لفظية أو معنوية .

ذكر عند تفسير قوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن
هدى للناس وبينات من الهدى والقرآن » ، فمن شبهد منكم الشهر
فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعذة من أيام آخره ، يريد الله بكم
اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولا شكوا ولا العدة ، ولا شكروا الله
على ما هذاكم ، ولعلكم تشكرون » (٣) :

إن قوله تعالى (لشكوا) عام الأمر بمراعاة العدة ، و (لشكروا) عام
ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عبدة الفطر ، و (لعلكم تشكرون) عام
الترخيص والتيسير ، وقال إن هذا نوع من اللف لطيف السلك ، لا يكاد يهتدى
إلى تبيينه إلا النقب الخدث من علماء البيان (٤) .

(١) سورة البروج ٨

(٢) الكشاف ٣/٢٥٥

(٣) سورة البقرة ١٨٥

(٤) الكشاف ١/٨٩

• - المشاكاة

هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، نحو قول الشاعر .

قالوا اقترح شيئاً نُجِدُكَ طبعه قلت اطحنوا لي حبةً وقيصاً

أى خيطوا ، وذكر خياطة الحبة بلفظ الطبخ لوقوعها في صحبة طبخ الطعام . ومنه قوله تعالى : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » حيث أطلق النفس على ذات الله تعالى ، لوقوعه في صحبة نفسى .

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره للآية الكريمة : « إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ، بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا » ^(١) أنه يجوز أن يقول الكفرة : أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ؟ فجاءت على سبيل المقابلة ، وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بدیع ، وطراز عجيب ، منه قول أبى تمام :

مَنْ سِيلَعَ أَفْئَاءَ يَمْرُوبٍ كَلْبًا أَيْ بَدَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْزِلِ

وشهد رجل عند شريح فقال : إنك لسيط الشهادة ، فقال الرجل : إني لم أجعدنى فقال له بلادك ، وقبل شهادته . فالذى سوغ بناء الجار ، وتجميل الشهادة هو مراعاة المشاكاة ، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ، ولولا سبوط الشهادة لامتنع تعميدها . والله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبيها ، لا تكاد تستغرب منها فئاً إلا عثرت عليه فيه على أقوم منهاجيه ، وأسد مدارجه ^(٢) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ » ^(٣) :

(١) - سورة البقرة ٢٦

(٢) - الكشف ٥/١ (٣) - سورة الواقعة ١١٦

النعني أعلم معنوي، ولا أعلم معنومك، ولكنه سالك بالكلام طريق
للمشكلة، وهو من فصيح الكلام ويؤيده (١).

وقد نقل كلام الزمخشري بهاء الدين السبكي في كتابه (عروس الأفراح
في شرح تلخيص المفتاح) (٢).

(١) الكشف ٢٨١/١

(٢) عروس الأفراح ٣١٢/٤

ثامناً - تعليل وتحيص

١ - تأخرت حوامل متعددة مكنتنا من بحثي أن نخرج في تعليقه ، فهو معتزلي ذكي من مروا على الجدل والحاجة ، واستكماله ما وراء الظواهر ، وهو أديب ذواقة ، قدير على التعبير عما يحتاج بنفسه ، وهو إلى هذا كله غيور على الإسلام ، غيور على القرآن ، لا يثو جهداً في الدفاع عنها ، ولا يدع تعليلاً موصولاً بتفسير الآية أو تأويلها إلا ذكره .

من ذلك أنه عند تفسير قوله تعالى في وصف أهل الجنة : « كلوا واشربوا سكراناً من ثمره رزقاً ظاهراً » هذا الذي رزقنا من قبل ، وأوتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون » (١) .

قال : فإن قلت : لأي غرض يشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة ؟ وما بال ثمر الجنة لم يكن أجساداً آخر ؟

قلت : لأن الإنسان بالأنفوس آتس ، وللمعهود أمل ، وإذا رأى ما لم يألف نزع عنه طبعه ، وعافته نفسه ، ولأنه إذا طفر بشيء من جنس ما سلف له به عهد ، وتقدم له معه أليف ، ورأى فيه عزية ظاهرة ، وفضية يندى ، وتفاوتاً بينه وبين ما عهد ، أفرط استهجاؤه واعتباطه ، وحال استعجابيه واستغرابه ، وتبين كنه النعمة فيه ، وتحقق مقدار العبطة به . وإن كان حسناً لم بهده — وإن كان فاسقاً — حسب أن ذلك الجنس لا يكون إلا كذلك ، فلا يقين موقع النعمة حتى التيقن .

وترددهم هذا القول وعظمهم به عند كل مرة يترقونها ، دليل على تناسي الأمر ، وتنادى الحال في ظهور الرزية وتنام الفصيلة ، وعلى أن ذلك التفاوت العظيم هو الذي استولى تعجبهم ، ويستدعى تبجحهم في كل أوان ^(١) .

وفي تفسير قوله تعالى : « هل يمشرون إلا أن يأتهم الله في ظلال من الغمام ^(٢) » .

قال ^(٣) : « فإن قلت : لم أتهم العذاب في الغمام ؟ قلت : لأن الغمام مظنة لراحة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر أفضح وأهول ، لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أعم ، كما أن الخير إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أكرم ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير ؟ »

لذلك كانت الصاعدة من العذاب المستنقع ، لحيلها من حيث يتوقع الغيث ، ومن علة اشتداد على المتفكرين في كتاب الله قوله تعالى : « وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ^(٤) » .

وقال في تفسير قوله تعالى : « يُوصيكم الله في أولادكم ، للذكر مثل حظ الأنثيين ^(٥) » : « فإن قلت : هلا قيل للأنتيين مثل حظ الذكر ، أو لآتى نصف حظ الذكر ؟ »

قلت : لبيان حظ الذكر لقضاه ، كما ضعف حظها لثقل ، ولأن قوله (للذكر مثل حظ الأنثيين) قصد إلى بيان فضل الذكر ، وقوله (للأنثيين مثل حظ الذكر) قصد إلى بيان نقص الأنثى ، وما كان المقصد منه بيان فضل الذكر أدل على فضله من المقصد إلى بيان نقص غيره عنه ، ولأنهم كانوا يورتون الله كونه

(١) الكشاف ١/٤٤

(٢) سورة البقرة ٢١٠

(٣) الكشاف ١/٩٩

(٤) سورة النساء ١١

(٥) سورة الزمر ٤٧

دون الإناث ، وهو السبب لورود الآية ، فقليل كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث ، فلا ينادى في حرمانهم مع إولائهم من القرابة بمثل ما يبدل به الذكور^(١) .

وقال عند تفسير قوله تعالى : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »^(٢) : لا تسبوا الآلهة الذين يدعون من دون الله ، فسبوا الله ، ذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى : « إِنَّا نَكْفُرُ بِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَاهِلِيَّةٍ »^(٣) « الشنئين عن سب آلهتنا ، أو لنهجون إلهك » وقيل كان المسلمون يسبون آلهتهم ، فمبها ، لئلا يكون سبهم سببا لسب الله سبحانه .

فإن قلت : سب آلهتهم حق وطاعة ، فكيف صح النهي عنه ، وإنما يصح النهي عن المعاصي ؟

قلت : رب طاعة علم أنها تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهي عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة ، كالنهي عن المنكر ، وهو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب معصية ، ووجب الكف عنه كما يجب السكف عن المنكر .

فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة ، فرأى محمد نساء فرجع ، فقال الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في ديننا .

قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة ، وليس سبها لحضور النساء ، فإنهن يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا ، بخلاف سب الآلهة ، وإما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نهيه عليه الحسن^(٤) .

(٢) سورة الأنعام ١٠٨

(١) الكشاف ١/١٩١

(٤) الكشاف ١/٣٠٥

(٣) سورة الأنبياء ٩٨

٢ — وهو معتزلي يحتكم إلى العقل ، ويسند إلى التكبير في تحييض ماقرأ وماسمع ، فنفي رؤية الناس للجن ، ورفض الحسد على أنه قدرة من الحسد على التأثير في المحسود ، ولم يصدق السحر بمعنى التأثير في المسحور ، وفق مايريد الساحر .

قال في تفسير قوله تعالى : « يابني آدم لا يقمننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزعُ عنها لباسها ليريهما سوءتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » ^(١) : ذلك دليل بين على أن الجن لا يرون ولا يظهرن إلا ناس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم ، وأن زعم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة ^(٢) .

وقال في تفسير قوله تعالى : « ومن شر حاسد إذا حسد » ^(٣) : إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغى الغوائل للمحسود ، لأنه إذا لم يظهر أثره أضره فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضرر لنفسه ، لاغنامه بسرور غيره . وعن عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه مايقوم من حاسد .

ويجوز أن يراد بشر الحاسد إغته وحماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره ^(٤) .

وقال في تفسير الآية الكريمة : « ومن شر النفاثات في العقد » ^(٥) :

النفاثات النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط ، وينفثن عليها ويرقين ، والنفث النفخ مع ريق .

ولا تأثير لذلك ، اللهم إذا كان إظهار شيء ضار ، أو سقيم ، أو شتامه ،

(١) سورة الأعراف ٢٧ (٢) الكشف ١/٣٢٤

(٣) - سورة الفلق ٥ (٤) الكشف ٢/٥٦٨

(٥) سورة الفلق ٤

أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه . ولكن الله قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذي يتميز به للتأيت على الحق من الخشوية والجهالة من العوام ، فينسبه الخشوية والرعاع إليهم وإلى قسطنطين ، والناقدون بالقول التائب لا يلتفتون إلى ذلك ، ولا يعبأون به .

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟

قلت فيها ثلاثة أوجه : أحدها أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر . أو من إلمهن في ذلك ، والثاني أن يستعاذ من فتنة الناس بسحرهن وما يخذلن به من باطلهن . والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند قسطنطين . ويجوز أن يراد به النساء السكيات من قوله : « إن كيدهن عظيم » ^(١) ، تشبيها لسكياتهن بالسحر والفتنة في العقد ، أو اللاتي يفتن الرجال بمعرضهن لهم ، وعرضهن محاسنهن ، كأنهن يسحرهم بذلك ^(٢) .

٣ — وكثيراً ما يخص الأخيار والآراء التي ذكرها سابقوه تحميها دالا على دقة نظره ، وحرصه على نقاء العقيدة ونصفيتها من شوائب الإسرائيليات والأساطير .

ففسر قوله تعالى في سورة يوسف : « ولقد هَمَّتْ بِهَا وَهَمٌ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ رَحْمَانُ رَبَّهُ » ^(٣) تفسيراً مفضلاً انتهى إلى أنها همت بمخالطته وهم بمخالطتها ، لولا أن رأى برهانه .

ثم ذكر ما قاله سابقوه من التفسيرين ، فقال إن بعضهم فسر هم يوسف بأنه حل الإهليلج ، وجلس منها مجلس الجامع ، وبأنه حل سراويله ، وقعد بين

شعبها الأربع ، وهي مستغنية على قفاها ، وفسر البرهان بأنه جمع صوتا إياك وإياها ، فلم يكثر له فسمع ثانياً ، فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً ، فأعرض عنه ، فلم يجمع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على آذنه ، وقيل ضرب بيده في صدره ، فخرجت شهوته من أنامله ، وقيل كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف ، فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين هم .

وقيل صبح به يابوسف لا تكن كأنظر كان له ريش ، فلما زما فقد لأريش له ، وقيل زبدت كف فيها بينهما لبس طاعضد ولا معصم مكتوب فيها « وإن عليكم حافظين كراما كاتبين » ^(١) فلم ينصرف ، ثم رأى فيها « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » ^(٢) ، فلم يلتزم ، ثم رأى فيها « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » ^(٣) فلم يجمع فيه ، فقال الله لجبريل : أدرك عهدي قبل أن يصيب الخطيئة ، فأمحط جبريل وهو يقول يابوسف أتعلم عمل السفهاء ، وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ؟

وقيل رأى تنال العزيز ، وقيل قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته ، وقالت : أستحي منه أن يراناه فقال يوسف : استحييت من لا يسمع ولا يبصر ولا أستحي من السميع البصير العليم بذات الصدور ؟

وعلق الزمخشري على هذا بقوله : وهذا ونحوه مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى وأبنيائه . وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم — بحمد الله — بسبيل .

(٢) سورة النساء ٢٢

(١) سورة الانطار ١٠

(٣) سورة البقرة ٢٥١

ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لتعيت عليه ، وذكر توبته واستغفاره ، كما بعيت على آدم زلفة ، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذى النون ، وذكر توبتهم واستغفارهم .

كيف وقد أنهى الله عليه وسماه مخلصاً ، فَمَعْلُومٌ بِالْقَطْعِ أَنَّهُ ثَبَتَ فِي ذَلِكَ الْقَامِ اللّٰهُ حُصْنٌ ، وَأَنَّهُ جَاهَدَ نَفْسَهُ بِمُجَاهِدَةِ أَوْلَى الْقُوَّةِ وَالْعِزِّ ، فَخَظَرَ فِي دَلِيلِ التَّحَرُّمِ وَوَجَّهَ الْقَبِيحَ ، حَتَّى اسْتَحَقَّ مِنَ اللَّهِ الثَّنَاءَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ ، ثُمَّ فِي الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ حُجَّةٌ عَلَى سَائِرِ كُتُبِهِ وَمُضَادٌّ لَهَا .

وقد استوفى القرآن الكريم قصته ، وحسب سورة كاملة عليها ، ليجعل له لسان صدق في الآخرين ، كما جعله لجدّه الخليل إبراهيم عليه السلام ، وليقتدى به الصالحون في العفة وطيب الإزار ، والثابت في مواقف العثار . فأخزى الله أولئك في إرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة ليقتدى بنبي من أنبياء الله في التعمود بين شعب الزانية ، وفي حل تكفئه للوقوع عليها ، وفي أن يمهّد ربه ثلاث كرمات ، ويصالح به من عمّاه ثلاث صبيحات ، بقوارع القرآن ، وبالتوبيح العظيم ، وبإيوعيد الشدائد ، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفل غير أشاء ، وهو جاثم في مَرَبَضَةٍ لَا يَنْتَهِي وَلَا يَنْتَبِهْ حَتَّى يَتَذَكَّرَ أَنَّ اللَّهَ يُخَبِّرُ بِلِ وَبِإِحْيَا رَه .

ولو أن أوقع الزناة ، وأحلقهم حلقه ، وأجلحهم وجهاء ، لَقِيَ بِأَدْنَى مَا لَقِيَ بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ مَا ذَكَرُوا لِمَا بَقِيَ لَهُ عَرَقٌ بَنِيضٌ ، وَلَا غَضُوٌّ بِمَحْرُكٍ .

فياله من مذهب ما أخشيه ومن ضلال ما أئيبه (١) .

كذلك استقيح ما ذكروه عن تعالى دارد عليه السلام بامرأته ، وذكر أن

على بن أبي طالب قال : من حديثكم بحديث داود على ما رويهِ القصاص جلده
مئة وستين جلدة ، وهو حد القرية على الأنبياء ^(١) .

وعلق على ما روى في الحديث : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يسمه
حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها » فقال : الله
أعلم بصحته ، وإن صح فعناه أن كل مولود يطعم الشيطان في إخوانه ، إلا مريم
وابنها كنا معصومين ، وكذلك كل من كان في صفتها ، لقوله تعالى : « ولا غواية لهم
أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » ^(٢) .

وأما حقيقة المس والنفس كما يتوهم أهل الخشوف فكلاً ، ولوساطة ليس
على الناس يتخسبهم لامتلاآت الدنيا صراخا وعياطاً مما يبلغون من تحسه ^(٣) .

٢ — على أنه لم يسلم من أغلاط كان المقروض ألا يقع فيها كما وقع غيره ،
وذلك أنه ذكر بعض الإسرائيليات بعد أن قدم لها أو عقب عليها بطلانها ،
ولكنه ذكر بعضها بغير أن يبدى رأيه فيها ، وكان المرجح منه أن يهملها
إهمالاً ، أو يذكرها على أنها من الأساطير .

قال في تفسير الآية الكريمة : « حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع
عند قوم لم نجعل لهم من دونها بيثراً » ^(٤) : إن بعضهم قال : خرجت حتى
جاوزت العين ، فسألت عن هؤلاء ، فقليل إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ،
فبأنهم فإذا أحدهم بفرش أذنه ويلبس الأخرى ، ومعنى صاحب يعرف لسانهم .
فقالوا له : جئتما تنظر كيف تطلع الشمس ؟ فربما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة
الصلاة ، فمبشى على ، ثم أقفوت وهم يسبحونني بالدهن ، فلما طلعت الشمس
على الماء إذا هي فوقه كهيئة الزيت ، فأدخلونا سرباً لهم ، فلما أرواح النهار خرجوا

(١) الكشاف ٢/٢١٩ (٢) سورة الحجر ٣٩ — ٤٠

(٣) الكشاف ١/١٤٢ (٤) سورة الكهف ٩٠

إلى البحر يصعدون السمك ، ويخرجونه في الشمس فيمنضج لحم^(١) .

وعند تفسير قوله تعالى : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ، فأوتىني هامان على الطين ، فاجعل لي صرحاً على أطبع إلى إله موسى »^(٢) .

ذكر أنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال ، حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأنباغ والأجراء ، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب السمير ، فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق ... فبعث الله جبريل عند غروب الشمس ، فضربه بجناحه ، فقطعه ثلاث قطع ، وفعت قطعة على عسكر فرعون ، فقتلت ألف ألف رجل ...

ويرى في هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابه إلى السماء ، فأراد الله أن يفتنهم ، فردت إليه ملطوخة بالدم ، فقال : قد قتلت إله موسى ، فعندها بعث الله جبريل لخدمه ، والله أعلم بصحته^(٣) .

وفي تفسير قوله تعالى : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق »^(٤) قال إن السحاب من السماء ينحد ، ومنها يأخذ ماء ، لا كزعم من يزعم أنه يأخذ من البحر ، ويؤيده قوله تعالى : « وإنزل من السماء من جهال فيها من البرد »^(٥) .

وذكر عند تفسير قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض »^(٦) أن

(١) الكشاف ٥٧٧/١ (٢) سورة القصص ٣٨

(٣) الكشاف ١٦٣/٢

(٤) سورة البقرة ١٩

(٥) سورة النور ٤٣ والكشاف ٣٣/١

(٦) سورة الحجرات ٢

العباس بن عبد المطلب كان أجهر الناس صوتاً ، و يروى أن غارة أنتمهم يوماً
فضاح العباس : يا صباخاه ، فأنسقطت الحوامل أشدة صوته .

وزعمت الرواة أن أبا عروة كان يزجر السباع عن الغنم ، فيفتق مرارة السبع
في جوفه^(١) .

وكلمة يروى في الأخبار عن العباس ، وكلمة زعمت الرواة في الأخبار عن
أبي عروة ، لا تعنيان الزمخشري ، لأن هذا من الأساطير التي كان من واجبه
أن يهملها ، إذ أنها من الاستطراد الذي لا علاقه له بتفسير الآية ، أو بعقب
عليها بفتحها .

(١) الكشف ٢/٢٩٠

قِـمَّةُ الْكِشَافِ وَآثَرُهُ

من هذه الجولة في رحاب الكشاف يتبين أنه موسوعة في التفسير حافلة بموضوعات كثيرة في الاعتزال واللغة والنحو والبلاغة والأدب والفقه والقراءات، وما يتصل بها من تحليل وتدليل وتمحيص .

ويبدو أن الزمخشري أعجب بتفسيره بعد إكمله، كما كان معجباً بأوائله التي أملاها على بعض المعتزلة ، فافتخر بقوله ^(١) :

و ناهيك بالكشاف كبرا نصارمه يعلم تميز الجياد الصيارف
وتخفق أوراق المصاحف هزة لهم معاني يزدهن المصاحف
فما في بلاد الشرق والغرب ناقد يلقبها دهرأ فيخرج زائفا
وكرر ثناءه على الكشاف في قوله ^(٢) :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها معمري مثل كشاف
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي
ولقد كان للكشاف دوى منذ أُلّفه صاحبه ، ظهرت أصدائه في أثناء علية آنا ، كما ظهرت في العناية به اختصاراً وتعليقاً وردوداً .

فمن الذين أشوا عليه ابن خلدون ، إذ قسم كتب التفسير قسمين : نقلية سنده إلى الآثار المنقولة عن السلف ، وصنف آخر معتمد على اللغة والإعراب والبلاغة .

ثم قال : ومن أحسن ما شتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشف
للزحشرى ، من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد ،
فيأتى بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرض له في آتى القرآن الكريم
من طرق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير
للجمهور من مكانته ، مع إقرارهم برسومه قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة .

وإذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على المذاهب السنية ، محسناً للحجاج
عنها ، فلا جرم أنه مأمون من عوائده ، فانغمس مطالعته لغراءة فنونه في اللسان (١) .
وعرض له مرة أخرى فأتى عليه ، انبوهه على غيره بالكشف عن الأمر
البلاغية ، ثم عقب بقوله : لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن
بوجود البلاغة . ولأجل هذا يتحاشاه كثير من أهل السنة ، مع وفور بصلته من
البلاغة .

فمن أحكم عقائد السنة ، وشارك في هذا الفن بعض المشايخ حتى يقتدر على
الرد عليه من جنس كلامه ، أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر معتقده .
فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب ، لظفر بشيء من الإعجاز مع السلامة من
البدع والأهواء (٢) .

ومنهم يحيى بن حبرة العلوى ، فقد ذكر في مقدمة كتابه [الطراز] أن
الباعث على تأليف كتابه هو أن جماعة من إخوانه قرأوا تفسير الشيخ العالم
الحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزحشرى ، المقار بأه ، مؤسس على الواعد
علم المعاني والبيان ، وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إنجازه القرآن
إلا بإدراكه ، والوقوف على أسرار وأغواره ، ومن أجل هذا توجه كل متبصر
عن سائر التفاسير ، لأنى لم أعلم تفسيراً مؤسساً على المعاني والبيان سواء ، فأتى
بعضهم أن أملى فيه كتاباً يشتمل على التهذيب والتحقيق ، فالتهديب يرجع إلى

اللفظ ، والتحقق إلى المعاني ، إذ كان لامندوحة لأحدهما عن الثاني ^(١) .

ومن اختصروه البيضاوى بعد أن حرده من الاعتزال ، وقرر آراء أهل

السنة ، ثم جاء النسفى فاختصر الكشاف وتفسير البيضاوى .

أما المعقبون عليه فكثير . منهم أحمد بن محمد بن منصور الجذامى الإسكندرى

المالكي قاضى الإسكندرية المشهور بأبى العباس ابن النير ، كان إماماً فى النحو

والآداب والأصول والتفسير ، وله يد طويلة فى علم البيان والإنشاء ، خطب بالإسكندرية

ودرس فيها وكتب فى الحكم بها ، ثم اشتغل بالقضاء . توفى سنة ٦٨٣ هـ

(١٢٨٤ م) وله مصنفات منها الانصاف من صاحب الكشاف ^(٢) . ناقش فيه

الزحشرى ، وعارضه بنصر مذهب أهل السنة على مذهب المعتزلة ، بدليل قوله :

الحمد لله الذى أهل عبده الفقير إلى التورث عليه ، لأن أخذ من أهل البدعة بأمر

أهل السنة ، فاحصى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقدمات الأسنة ^(٣) .

ولكنه مع ذلك اعترف بفصل الزحشرى فى الكشف عن وجود إعجاز

القرآن البلاغية التى تؤكد أنه كلام الله سبحانه ^(٤) .

ومنهم شرف الدين الحسن بن محمد الطنبجى ٧٤٣ هـ (١٣٦١ م) فى كتابه

(فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الرب) وقد ذكره ابن خلدون فى قوله :

لقد وصل إلينا فى هذه العصور تأليفه الذى شرح فيه كتاب الزحشرى ،

وتبع أنفاها ، وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبين أن البلاغة

إنما تقع فى الآية على ما يراه أهل السنة لأعلى ما يراه المعتزلة ، فأحسن فى ذلك

ما شاء ، مع إمتناعه فى سائر فنون البلاغة ، وفوق كل ذى علم عليه ^(٥) .

وهناك كثير غير هؤلاء ^(٦) .

(١) الطراز للعوى ٥/١ (٢) بنية الوجاهة ١٦٨ . (٣) حاشى الكشاف ٣٩٩/١

(٤) حاشى الكشاف ٥٢٢/١ (٥) مقدمة ابن خلدون ٩٩٩

(٦) كشف الظنون ٣٠٩/٢ - ٣١٦

الفصل السابع في بحر اللغة

تفوق الزختمري في اللغة كما تفوق في التفسير ، وقد تجلت عنايته بالملامة وحقائقها ومجازاتها ونصوصها ونحوها في تفسيره السكشاف .
ولكن له جهودا عظيمة أخرى في اللغة العربية لتدوين من مؤلفاته فيها ،
حسبنا أن نذكر منها ما يأتي :

(٧) أساس البلاغة

كان الخليل بن أحمد (١٨٠ هـ) أول من دون معجم لغويا سماه كتاب العين ،
جمع فيه كثيرا من ألفاظ اللغة ، ورتبها حسب مخارجها من الخلق فالأسنان
والأسنان فالشفنين ، ووضع أحرف العلة في آخر الكتاب ، وقد سعى كتابه
العين ، لأنه بدأه بحرف العين .

ثم سار كثير من مؤلفي المعاجم على طريقة الخليل ، كما أخذ في البارع لأبي
علي القلي^(١) (٢٥٦ هـ) وفي تهذيب اللغة للأزهري (٣٧٠ هـ) وفي الحكم
لابن سيده (٤٥٨ هـ) .

ولكن بعض اللغويين اتجهوا إلى ما بين الآخرين في ترتيب المعاجم ، فألف
الجوهري (٣٩٨ هـ) « تلح اللغة وصحاح العربية » مراعيًا في ترتيب ألفاظه
أواخر السكيات ، كما فعل ابن منظور والفيروز آبادي فيما بعد .

ورتب أحمد بن فارس (٣٩٠ هـ) كتابه المجلد في اللغة ، على أساس الحرف الأول
والثاني والثالث ، غير أنه التزم في ترتيبه الهجائي ما بعد الحرف الأول من حروف

الهاء إلى أن يبلغ الياء ، ثم يعود فيذكر ما بعده من الهمزة إلى ذلك الحرف ،
فمثلا عقد فصلا للراء ، ولكنه لم يذكر الراء مع الهمزة ثم مع الباء ثم مع التاء
وهكذا ، بل ذكر الراء مع الزاي ، ومع السين ، ومع الشين ، ومع الصاد
إلى الياء ، ثم عاد فذكر الراء مع الهمزة وما بعدها إلى الزاي .

طريقته

١ - ثم جاء الزحشرى ، فأناف كتابه أساس البلاغة على نهج هجائى
أرق وأسهل من نهج ابن فارس ، إذ ألزم الحرف الأول وما يليه من حروف
الهاء ، فعقد بابا الهمزة ، فرع منه الهمزة مع الباء (أب ، أبر ، أس ، أبش ،
أبص ، أبط وهكذا إلى أبى) وفرع منه الهمزة مع التاء (أتب ، أتم ، أتى)
وفرع منه الهمزة مع الناء (أئر ، أئف ، أئل أئم أئخ) وفرع الهمزة مع الجيم
(أيج ، أجد ، أجر أئخ) وفرع الهمزة مع الحاء ومع الخاء ومع الدال وهكذا ،
وسار على هذا النهج فى كل حرف .

ولا شك أن هذا الترتيب الدقيق السهل جدير بقوله فى المقدمة : « وقد
رتب الكتاب على أشهر ترتيب متداول ، وأسهله ، متناولا ، مهجم فيه الطالب
على طلبته موضوعة على طرف تمام وحبل الذراع ، من غير أن يحتاج فى التنقيب
عنها إلى الإحاف والإيضاح ، وإلى النظر فيما لا يوصل إلا بإعمال الفكر إليه .
وفى أدق النظر فيه الخليل وسينويه . »

٢ - شرح المعانى الحقيقية للكلمات ، وأضاف إلى هذه المعانى الاستعمالات
الجازية . فقال مثلا فى مادة ثقب : ثَقَّبَ الشئ بالثقب ، وثَقَّبَ اللآل الدر .
وَدَرَّ مَثَقَّبٌ ، وعنده دُرٌّ عذارى لم يثقبين ، وثَقَّبَ البراقع لعيونهن

ومن الجاز: كوكب ثاقب ودري: شديد الإضاءة والتلألؤ ، كأنه يثقب الغلبة فينفذ فيها ويدروها ، وقد : ثَقَّب ثَقُوباً ، وكذلك السراج والنار ، وثَقَّبْتُها وأثَقَّبْتُها ، وأثَقَّب نارك بثقوب ، وهو ما ثَقَّب به من حرق وجر ونحوها . ورجل ثَقِيب وامرأة ثَقِيبَة : مشبهان للهب النار في شدة حرّهما ، وفيها ثَقَابَة ، وحسب ثَقِب : شهير ، ورجل ثاقب الرؤى إذا كان جزلاً نظاراً ، وأتقنى عندك عين ثاقبة أي خبر يقين ، وثَقِب الطائر إذا حلق كأنه يثقب السكك (الجو) وثَقِب الشيب في اللحية أخذ في نواحيها .

وقال في مادة حلف : حالف بالله على كذا خلفاً ، وهو خلاف وحلافه ، وحلف حلفاً فاجراً ، وأخوفه كاذبه ، وحالفه على كذا ، وتحالفوا عليه واحتالفوا ، وحلف خصمه وأخلفه ، واستخلفه القاضي .

ومن الجاز : بينهم رحلف أي عهد ، وهم حلفاء بني فلان وأحلافهم . وهذا حلفي ، وهو حليف الندي وحليف السر ، وفلان محالف لفلان لازم له : وسنان حليف ، ورجل حليف اللسان يوافق صاحبه على ما يريد لحدته كأنه حليفه ... الخ .

وقال في مادة كبد : هو يأكل كهود الدجاج وأكبادها ، وكبدته : أصبت كبده : وكبد فلان فهو مكبود ، ورجل أكبد : وأصابه الكبد .

ومن الجاز : بلغ كبد السماء وكبداء السماء ، وتسكبدت الشمس توسطت السماء ، وتسكبدت الفلاة : توسطها ، وتسكبد اللبن : خثر ، وفرس وجل أكبد : واسع الجوف ناهد موضع الكبد ، وهو يبحث عن كبد الأرض وأكبادها : وهي معادنها ، ورمت إليه الأرض بأفلاذ كبدها : بكنوزها وذخائرها ، ووقع في كبد : في مشقة ، ونقول للخصم إنهم نفي كبد من أمرهم وبعضهم يكابد بعضاً ، والمداير يكابد الليل إذا ركب هواه وصعوبته .

وقد يتعمق فيذكر مجاز الجواز ، كقولهِ في مادة نطح : نطحت الكباش وانططحت ، ومن الجواز : نططحت الأمواج والسيول ، وأصابه ناطح : أمر شديد ، وتطير من التطيح والناطح : وهو المستقبل مما يُزَجَر ، ومن مجاز الجواز : رجل طريح : مشنوم .

وقوله في مادة نطع : على بالسيف والنطع ، ومن الجواز : نطع في كلامه إذا تفصح فيه وتعمق ، ومن مجاز الجواز نطع الصانع : تَخَدَّق في صناعته .

٣ — ذكر تصارييف الكمكيات ومتقانيها وجوعها ومزبدتها ومعاني كل منها ، سرتبا بعضها على بعض ، ومتدرجا بعضها وراء بعض ، وسلكها في عبارات عدة تفصح عن معانيها ، وتميز مجازاتها من حقائقها ، سواء أكانت هذه العبارات شعرا أم شرا ، قديمة أم محدثة ، وسواء أكانت من عصر الاحتجاج من الجاهلية إلى القرن الثالث — أم مما بعده ، لأنه أراد أن يبين دلالات الكلمة في خصوص بلغة ، وليس بعينه أن تكون هذه النصوص قديمة أم حديثة .

على أنه في كثير من الأحيان لم يقتصر على نصوص من كلام غيره ، بل أدار الكمكيات في عبارات من عنده ، لأنه طبق ما قاله في المقدمة : « ومن خصائص هذا الكتاب تخير ما وقع في عبارات المبدعين ، وانطوى تحت استعمالات المقلين ، أو ما جاز وقوعه فيها وانطواؤه تحتها ، من التراكم التي تملح وتحسن ، ولا تنقبض عنها الألسن » .

وقد تكون عباراته من أحد كتبه الأدبية التي ألفها قبل الأساس .

وهذه أمثلة من أساس البلاغة على غير عهد :

قال في مادة حصد : حصد الزرع : جزأه فهو حصيد ، وجمعه حصائد ، وهذا زمان الحصاد : « وآتوا حقه يوم حصاده »^(١) .

ومن الحجاز : حصدهم بالسيف : قتلهم ، « وهما يُكَبُّ الناس على : مناجرهم في النار إلا حصائدُ السنهم »^(٢) .

وقال في مادة (بلو) 'بلى فلان' : أصابته بلية ، قال :

أبليتُ وفقدان الحبيب بليّةٌ وكُم من كرم يُبتلى تم يهبرُ
ومنه قولهم : لا أبالي به أي لا أخبره قلة أكثرائي له ، وهو أفصح من
لا أبالي به ، قال زهير :

لقد بليت مُطعنٌ أم أوفى ولكن أم أوفى لا أبالي
وقولهم : أبليت عطلاً إذا بليت له شيئاً لا لِم عايت بعده ، حقيقة جماعته
بالأعذارى ، أي أخبراً له علماً بكمه ، وكذلك أبليت شيئاً ، قال جرير :

فأبلى أمير المؤمنين أماناً وأبلاه صدقاً في الأور الشدائد
وايتليت الأمر : تعرفته ، قال :

تسأل أسماء الرُّفقاء وتبتلى ومن دون ما يهون بابٌ وحاجبٌ
يريد أنه محبوب .

ومن الحجاز : بليت الشيء شمتته ، قال يصف للماء الأجن القديم :

بأنفرد ورده آل حتى كأنما يسوف به البلى عصارة خردل
وقال في مادة وقن : وقن الكتاب : كتبه كتابة حسنة ، والترقيش
الترقيش ، قال رؤبة :

دار كُتُف الكُتُف المُرَقَّة

وفي نوابغ الكلم : العلم درس وتلقين ، لا طرس وتلقين (٢) .

وقال في مادة رنح : رنح فلان وترنح إذا دبر به وتمايل كالسكران ، ورنحته
الشراب ، قال :

وكأني شربتُ على الذمِّ دِهاقِ تَرْنَحٍ مِنْ ذاقِها
ومن الجاز : رنحت الريح الغضا فترنح ، ولقد ترنح على فلان إذا مال
عليك ، لتناول والتزع ، قال أبو القريب البصري :

تَرْنَحُ بالكلام على جهلاً كأنك ماجدٌ من آل بدر

وبقول في مادة شب : شَبَّتُ النار : رفعتها ، وشبَّ الصبي شاباً ، وقوم
شبان وشباب وشبَّية ، وتقول : كان عصر شباني أجلي من العسل الشباني ،
منسوب إلى بني شبابة من أهل الطائف ، وتقول المرأة في شبابه كأنه في
شبابه .

ومن الجاز والكناية : شُبَّتْ الحرب بينهم ، وسمعت من مُحَدِّثِي النار
وهو يقول :

تَشَبَّيْتُ تَشَبَّبَ النَّمِيمَةِ تَعْنِي بِهَا زَهْرًا إِلَى تَيْمَةٍ

وهو كقولهم : أوقد بالخيمة نارا ، قال عمر بن أبي ربيعة :

ليس كالعهد إذ علمت ونكني أوقد الناس بالنميمة نارا
وتشبَّ الحمار وجهها ، وهو شبوب لوجهها

وقال في مادة نقد : تقول النّقدة إليهم كأنهم النّقْد ، وقد عاث فيها الذئب
الأعقد^(١) .

وقال في مادة مري : ومن الحجاز قَرَعَ قَرَوْنَهُ^(٢)

ونلاحظ أنه يذكر موضوع النص أحيانا كقوله في مادة : بضع .

قال أوس بن حجر في صفة القوس :

وَمَنْصُوعَةٍ مِنْ رَأْسِ قَرْنٍ شَطِيقَةٍ بَطُونٍ تَرَاهُ فِي السَّحَابِ مَكْلًا

وقوله في مادة خرج : قال زهير يصف الخيل :

وَحَرَجَهَا حَوَارِخَ كُلِّ يَوْمٍ فَحَدَّ جَمَلَتِ عَوَائِكُهَا تَلِينَ
أَرَادَ وَأَدْبَهَا كَمَا يُخْرِجُ التَّمْلَم .

وقال في مادة طفل : هو طفل بين الطفولة ، وامرأة وظيفية مُطْفَلٌ ، وَطَفَلَتْ
ولدها : رشحته ، قال الأخطل يصف سحابا :

إِذَا زَعَرَعَهُ الرِّيحُ جَرَّ ذُبُولَهُ كَمَا زَحَفَتْ عُودًا فَقَالَ تَطْفُلُ

وقال في مادة نفع : تَنَفَّحْتُ الشَّوْكَةَ مِنْ رَجُلٍ بِالْمَتَانِخِ ، بِالنَّفَاشِ ، وَنَفَحَ
البازي المحم بن سريه ، وَتَنَفَّحَ الْقَلَاعُ الصُّرْسُ : نزع . قال زهير يصف غزوا :

تَنَبَّذَ أَقْلَاهَا فِي كُلِّ سُرَّةٍ تَنَفَّخَ أَقْمِيئُهَا الْعُقْبَانُ وَالرَّحْمُ

وفي كثير من الآيات لم يذكر القائل ، مكتفيا بكلمة قال ، وأغلب
الظن أن القائل لم يكن معلوما له ولا لسايقيه الذين نقل عنهم .

كقوله في مادة جرد : ومن الحجاز : كيف جردت أي امرأتك ، قال :

(١) هذه العبارة من مقامات الرعمهري ١٠٠ النقد : جنس من الغنم قريب

الأه : المنوى

(٢) وردت في المقامات ٧٢

إذا أكل الجراد حُرُوثَ قَوْمٍ فَجَعَلْنِي حِجْرًا أَكَلُ الْجَسَدَ

وقوله في مادة دوح : وفلان يابس الدَّاح وهو الوُثْيُ والنقش ، قال :

يَالبَاسِ الوُثْيِ عَلَى شَيْبِهِ مَا أَقْبَحَ الدَّاحِ عَلَى الشَّيْخِ

وقوله في مادة نفج : وكانوا يقولون : هذيلالت النافجة ، وهي البنت ، لأنه

كان يأخذ مهرها فينفج ماله أي يورسه ويعظمه ، مؤنثه الجافحظ :

وَيْسَ سِلَاحِي مِنْ وَرَاقَةٍ وَالَّذِي وَلَا شَأْنَ مَالِي مُسْتَعَادَ النَّوَافِجِ

٢ - على أنه أغفل بعض المواد التي أجدتها في لسان العرب وفي القاموس

الحيط ، ولعله وجدها ليست من المواد الترية بالعاني والمشتقات ، فذكر مثلاً في

الجيم مع الهاء : جهرتم جهش ، ولم يذكر جهز .

وذكر في الحاء مع القاف حقل ثم حقن ولم يذكر حقم .

وذكر في الزاء مع التاء رتل وبعدها رتم ولم يذكر رتن ولا رثن .

وذكر في السين مع التاء سود وبعدها سور ، ولم يذكر سوخ :

وذكر في العين مع الكاف عكف وبعدها عكم ولم يذكر عكل .

وذكر في النون مع التاء نثأ وبعدها نثج ولم يذكر نثب .

قيمه وآثره

١ - هذا الكتاب معجم لغوي جمع المفردات ومعانيها الحقيقية والجازية ،

وكثيراً من النصوص البليغة التي وردت فيها ، فلم تحي . المفردات جوامد

منقطعة عن الاستعمال ، بل جاءت في سياق من التركيب أضفى عليها حيوة .

وقد كان الزحشرى يبتغي من تأليفه الكشف عن أسرار اللغة ، للوقوف

على وجوه الإعجاز ، وليس من المستطاع هذا الكشف إلا بشقوق معاني

المفردات في قولها ، ومعرفة حقائقها ومجازاتها كما قال في المقدمة .

٢ — وهو إلى هذا يتبوع يغذى الملكة الأدبية ، ويورد الشدايق بنفائس اللغة وآدابها ، وقد كان الزحشرى أدبياً بصيراً بما ينهض بأساليب الأدباء الناشئين ، لأنه جرب هذا الطور من قبل ، ولهذا قال في المقدمة : فمن حصل هذه الخصائص ، وكان له حظ من الإعراب ... وأصاب ذرواً من علم المعاني ، وحظى برش من علم البيان ، وكانت له قبل ذلك قرينة صحيحة وسليقة سليمة ، فصل ثمره ، وجزل شعره ولم يصل عليه أن يذهر المتكلمين ، ويخطر القارئ من .

٣ — وقد سلك مؤلفو المعاجم بعد الزحشرى طريقين ، فبعضهم حاكى الجوهرى في ترتيبه كتابه الصحاح ، وبعضهم تأثر بطريقة الزحشرى في الترتيب الهجائي الذي ألزمه ، وكان أبرع فيه وأدق وأسهل .

أما الفريق الأول فيمثل ابن منظور (٦٣٠ — ٧١١ هـ) مؤلف لسان العرب ، والفيروز آبادي (٧٢٩ — ٨١٧ هـ) مؤلف القاموس المحيط ، فإنهما عدلا عن الترتيب الهجائي إلى نظام الحرف الأخير من الكلمة الذي سار عليه الجوهرى في الصحاح .

وربما كان سبب ذلك أنهما لم يرتضيا طريقة الزحشرى في ترتيب الكلمات ولا مسلكه في التفريق بين الحقيقة والحجاز ، ولا طريقته في الاستشهاد بنصوص من البلاغ ، بعد عصر الاحتجاج ، وليس باستبعد أن يضاف إلى هذين السببين سبب ثالث هو أن الزحشرى زعيم المعتزلة في عصره ، وابن منظور والفيروز آبادي من أهل السنة ، وبين الفريقين ما بينهما من خصومة وعداء .

وأما الفريق الثاني فيمثل القموص (توفي سنة ٧٦٦ هـ) مؤلف الصحاح الكبير ، ثم اللجنة التي شكلتها وزارة المعارف المصرية برئاسة محمود خاطر بلق فرغت مختار الصحاح للرازي (توفي عام ٧٨٠ هـ) ، وجارح البستاني مؤلف محيط المحيط .

و-عيد الشرتوني مؤلف أقرب النوارد ؟ ومجمع اللغة العربية في المعجم الوسيط .

٤ — والمزال أساس البلاغة في صدارة معاجمنا اللغوية . لتفسيره ، ونستنبط منه ، وأنس إليه ونلق به ، لأن مؤلفه كما قال ابن حجر العسقلاني : « في غاية المعرفة بعلوم البلاغة ، وتصرف الكلام ، وكتابه من أحسن الكتب ، وقد أجاد فيه ، وبين الحقيقة من الجزأ في الألفاظ المستعملة أفراداً وتركيباً »^(١) .

(٢) المستقصى في أمثال العرب

منذ زمن مبكر عني كثير من اللغويين والأدباء بشؤون أمثال العرب ، مثل أبي عبيدة والأصمعي وأبي عبيد وأبي زيد والفضل بن محمد والفضل بن سالم .

ثم جاء الرمضري والميداني (٥١٨ هـ) فألفا كتابيهما في زمن واحد . أما كتاب الرمضري فهو (المستقصى في أمثال العرب) فرغ من تأليفه سنة ٤٩٩ هـ .

وأما كتاب الميداني فهو (مجمع الأمثال) .

وقد رتب الرمضري كتابه ترتيباً هجائياً كما صنع في أساس البلاغة ، فبدأ بالأمثال التي أولها همزة ، ثم باء وهكذا إلى الياء مراعيّاً في الترتيب الحرف الثاني وما بعده ، فذكر مثلاً في حرف السين مع الراء : سرق السارق فاستجر ، وبعده سراك من دملك ؛ فإذا انفتحت كتابان في صدر المثل راعى ما بعدهما ، فذكر في حرف العين مع النون : عند الشدة اند تذهب الأحقاد ، وبعده : عند النطاح يغلب الكهش الأججم .

واسكنه ذكر في باب الهمزة جميع الأمثال المبدوءة بهمزة ، سواء أ كانت الهمزة أصلية ، مثل إنك لا تنجي من الشوك العنب ، أم همزة وصل مثل : يحمل العبد على فرس ، اختلط الخابل بالنابل ، أم كانت الكلمة مبدوءة بأل مثل الحمد مفتحة ، والذمة مفرومة ، أم كانت الكلمة على وزن أفعل مثل : أحق من نعمة .

وقد شرح الرمخشري الأمثال ، وبين مواردها وأصنافها وملاسماتها ؛ وذكر مضارب كثير منها ، والأحوال التي يصح أن يقال فيها ، وأضاف إلى شرحه مسائل من اللغة والنحو ، واستشهد بنصوص شتى من شعر وشئ .

وفي كتاب الرمخشري ثلاثة آلاف مثل وأربع مئة وواحد ومثون . أما الليداني فقد رتب كتابه طبقاً لأصول السكتات ، فذكر في باب الهمزة الأمثال المبدوءة بهمزة قطع مثل : إن من البيان لسحراً ، ولم يذكر ما أوردته أن ولا همزة وصل ، ثم ذكر ما جاء على وزن أفعل من هذا الباب مثل : آكل من حوت ، ثم سرد أمثال المولدين ، وهكذا صنع في بقية الحروف ، فذكر في باب الباء الأمثال المبدوءة بباء ، مثل بلغ السيل الزبى ، ثم ما جاء على وزن أفعل مثل : أبلغ من قس . ثم أمثال المولدين ، ولكنه لم يلتزم الترتيب طبقاً لما بعد الحرف الأول من المثل فتجده يذكر مثلاً فيما أوردته : ترك الخطي ظله ، ثم يذكر تجوع الحرة ولا تأكل بشريها ، ثم يذكر تحسبها حقاً وهي بائس ، ويذكر في باب القاف : قطعت جبهة قول كل خطيب ، ثم يذكر قبل البكاء كان وجهك عابساً ، ثم يذكر قد استنوق الجمل وهكذا .

ويأتم الليداني ستة آلاف مثل كما ذكر في مقدمته أو يظهر أنه لم يراع أن كثيراً منها مكرر .

وفرق آخر بين العائلين ، هو أن الليداني ذكر في مقدمة كتابه عشرات من السكتب التي نقل منها ، على حين أن الرمخشري لم يذكر مصدره التي اعتمد عليها .

وقد كان الرمحشري أسبق إلى تأليف كتابه ، لأنهم يذكرون أنه لما اطعم على كتاب الميبداني ندم على أنه ألف المستقصى .

ويذكرون قصة أخرى ، أغلب الظن أنها من وضع الشفكهي أو العابدين ، لأنها لا تلائم أخلاق الرمحشري التي عرفناها ، فيقولون ^(١) إن الرمحشري لما وقف على كتاب الميبداني أخذ القلم ، و زاد نونا على كلمة الميبداني ، فصارت الميبداني ، ومعناها بالفارسية الذي لا يعلم شيئا ، فلما علم الميبداني بذلك أخذ بعض مؤلفات الرمحشري فحذف الميم نونا ، ومعنى الكلمة بالفارسية بالغف زوجته .

نماذج منه

١ — إذا ضربت فأوجع ، وإذا تعرت فأسمع .

يضرب في إتقان الأمر والتشديد فيه ^(٢)

وفي مجمع الأمثال : من أمثال المولدين : إذا ضربت فأوجع ، فإن الملامة واحدة ،

يضرب في الخشوع على المبالغة ^(٣)

٢ — أشام من أحمر عاد

هو قدار بن قديرة ، وهي أمه ، وأبوه سالف ، عقر ناقة صالح فهلك

بفعله ثمود . قال زهير :

فتنتج لكم غلمان أشام كلهم كاشحٍ عاد ثم تراضع فتفطم ^(٤)

وفي مجمع الأمثال بعد ذكر النمل أنه قدار بن سالف ويقال له ابن قديرة

وهي أمه ، عقر ناقة صالح عليه السلام فأهلك الله بفعله ثمود ^(٥)

(١) معجم الأدياء ٤٧/٥ وإنباء الرواة ١٢١/١ وبقية الوعاة ١٥٥

(٢) المستقصى ١٣٥/١ (٣) عم الأمثال ٥٨/١

(٤) المستقصى ١٧٦/١ (٥) بحم الأمثال ٢٥٦/١

٣ — أفرس من عمار بن الطفيل

هو ابن أخى عمار ملاعب الأسد ، أفرس أهل زمانه وأسودهم ، وكان له مناد ينادى بكاف : هل من راجل فأحمله ، أو جائع فأطعمه ، أو خائف فأؤمده ، ووقف جبار بن سلمى على قبره فقال : أعم ظلاماً أباً على ، فوالله لقد كنت تشن الغارة ، وتحمي الجارة ، سرباً إلى الولي بوملك ، بعيتاً عنه بوعيدك ، وكنت لا تضل حتى يصل النجم ، ولا تهاب حتى يهاب السيل ، ولا تعطش حتى يعطش البعير ، وكنت والله خير مما تكون حين لا تظن نفس بنفس خيراً ، ثم التفت فقال : هلا جعلتم قبر أبى على ميلاً في ميل^(١) .

وفي مجمع الأمثال هذا نفيه^(٢)

٤ — أنجز حرماً وعد

أنجز الوعد إذا نفذ . وأنجزته . قاله الحارث بن عمرو بن حُجْر الكندي لصخر بن نهشل ، وكان له مربيان بنى حظاً ، فجعل للحارث الخمس منه إن دله على غنيمة ، ففعل ، ووفى هو وعده . يضرب في استنجاز الوعيد^(٣) .

وفي مجمع الأمثال هذا وزيادة عليه^(٤)

٥ — أنقى من مرأة الغريبة

هي المرأة الناكح في غير عشيرتها^(٥)

وفي مجمع الأمثال : يعنون التي تزوج من غير قومها ، فهي نجاسة مرآتها أبداً ، لتلا ينجس عليها من وجهها شيء . قال ذو الرمة :

(١) المستقصى ١/٢٦٩ (٢) مجمع الأمثال ٢/٢٢٢

(٣) المستقصى ١/٣٨٤ (٤) مجمع الأمثال ٢/١٠٥

(٥) المستقصى ١/٣٩٨

لها أذن حشر وذفرى أسيلة وخد كرامة الغريبة أسجح^(١)

٦- إن من البيان لحر

سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمرو بن الأهتم عن الزرقان ، قال كيف هو عليكم ؟ فقال : شديد العارضة ، مطاع في العشرة ، مانع لما وراءه . فقال الزرقان : والله إنه ليؤلم أنى أفضل مما قال ، ولكنه حدى . فقال ابن الأهتم : والله ما علمت (إلا) أنه زمر المروعة ، ضيق العطن ، أحق الأب ، نعيم الخلد ، أما والله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى ، ولكن رضىت فقلت برضى ، ثم أسخطنى فقلت بسخطى . فقال عليه السلام ذلك .

يضرب في الثناء على البليغ^(٢) .

وفي مجمع الأمثال هذا المثل وشرحه بغير خلاف يذكر^(٣) .

٧- ضرب أخماساً لأسداس

أى اعتمد وتعاطى أخماساً لأجل أسداس ، وهو جمع خمس وسدس من أظواء الإبل . وأصله أن الرجل حتى إذا أراد سفرأ بعيداً عود إلى الصبر على العطش ، فآخذ بترقي بها مدرجا في الإضاء ، إذا قوَّز بها - دخل الصعراء - صبرت ، فهو حين سقيها أخماساً ثم يتجاوزها وينقلها إلى الأسداس عقيبها على سبيل التدريب لها إنما بتعاطى سقيها أخماساً لأجل سقيها أسداساً ، قال الكهيت :
وذلك ضرب أخماس أرادت لأسداس عسى ألا يكونا
وقال أيضاً :

أنتم أيقظ الأقوام أفئدة وأضرب ناس أخماساً لأعشار

(١) عم الأمثال ٢/٢٠٧ حشر : إضافة يستعمل للواحد ولثنى والجمع ، ذفرى : الذراد

الغنى .

(٢) المستقصى ١/٢١٤ (٣) مجمع الأمثال ١/١

وقال :

يَضْرِبُ لِلْمَكَارِ الَّذِي يَرِيْدُ أَمْرًا وَيُظْهِرُ غَيْرَهُ ^(١).

وقد شرح الميداني المثل هذا الشرح ، وذكر شعرا آخر غير التصوي
الثلاثة التي ذكرها الزمخشري ^(٢).

٨ — قَطَعْتَ جَهِيْزَةَ قَوْلِ كُلِّ خَطِيْبٍ .

بينما قوم يخطبون في صلح بين حيين — قتل أحدهما من الحى الآخر رجلا
ويسألون الرضا بالدية — جاءت أمة اسمها جهيزة فقالت : إن القاتل ظلم به
بعض أولياء المقتول فقتله ، فقيل ذلك .

يَضْرِبُ لِأَمْرِ قَاتٍ وَأَيْسٍ مِنْ صِلَاحِهِ .

وقيل هي جهيزة التي يضرب بها المثل في الحمق ، وإياه مثل فيمن يقطع
على الناس ما هم فيه بحماقة يأتي بها ^(٣).

وفي جمع الأمثال هذا الشرح نفسه ^(٤).

٩ — كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لِمَا عَافَتْ الْبَقْرُ

كانوا إذا عافت البقر الورود ضربوا الثور زاعمين أن الجن ركبتهم ، وأنهم
ترع البقر عن المشرب ، فينفرونها بإلقاء الضرب على الثور .
وقيل إنما يضرب لأنه قائد البقر وسائقها .

وقيل الثور : العرمت أي الطعالب ، يضرب فيذهب في نواحي الورود —

الماء — ثم تشرب حيثئذ ، وإذا كان على وجه الماء عافته .

يضرب للمأخوذ بذهب غيره ، قال أنس بن مالك الخنمى :

(١) المستقصى ١٤٥/٢ (٢) جمع الأمثال ٢٨٣/١

(٣) المستقصى ١٩٧/٢ (٤) جمع الأمثال ٢٥/٢

إني وقتلي شاكراً ثم أعطفه كالنور بضرب لآعاف القمر
وقال : (١)
ويشبه هذا ما ذكره الميداني (٢) .

(٣) الفائق في غريب الحديث

كان جمع الأحاديث التي بها كرات غريبة وترنيها وشرح غريبها مشاعدا
كثير من علماء اللغة والحديث ، فتوالت مؤلفاتهم حتى لم تكلدندع زيادة لستزيد .
وقد ذكر ابن الأثير في مقدمة كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر)
موجزا تطور التأليف في غريب الحديث ، منها أن أباعبيد بن معمر بن النقي التميمي
أول من جمع من ألفاظ غريب الحديث والأثر كتابا معدود الأوراق . ثم صنع
مثل صنيعه أبو الحسن النضر بن شميل المازني وعبد الملك بن غريب الأصمعي
ومحمد بن المستنير المعروف بقطر .

ثم ألف أبو عبيد القاسم بن سلام كتابه المشهور في غريب الأحاديث
والآثار ، فكان المرجع إلى زمن ابن قتيبة الدينوري ، إذ ألف كتابا على منهج
كتاب أبي عبيد ، أكثره لم يذكره أبو عبيد .

وتتابعت المؤلفات في هذا الفن ، إلى أن صنف أبو عبيد أحمد بن محمد الفراء
كتابا جمع فيه ما بين غريب القرآن والحديث ، ورتبه وفق حروف المعجم على
وضع لم يسبق في غريب القرآن والحديث ، وفسر الكلمات الغريبة ، وجمع فيه
ما ذكره سابقوه ، وهذا صار المؤلفون من بعده يتبعون أثره ، ويستندون
مألفاته ، إلى أن جاء الزنجشري فصنف كتابه سنة ٥١٦ هـ ، وسماه الفائق

«وقد عارف هذا الاسم شئى ، وكشف عن غريب الحديث كل معنى ،
ورتبة على وضع اختاره مَقْفَى على حروف المعجم ، ولكن فى العتور على طلب
الحديث منه كلفة ومشقة ، وإن كانت دون غيره من متقدم الكتب ، لأنه
جمع فى التقفية بين إيراد الحديث مسرودا جميعه أو أكثره أو أقله ، ثم شرح
عافيه من غريب ، فحى : شرح كل كلمة غريبة يشتمل عليها ذلك الحديث فى
حرف واحد من حروف المعجم ، فتدرك الكلمة فى غير حرفها^(١) ، وإذا تطلبا
الإسنان تقب حتى يملها ، فكان كتاب المروى أقرب مناولا ، وأسهل
أخذاً ، وإن كانت كلماته متفرقة فى حروفها ، وكان النفع به أتم ، والفائدة أعم^(٢) .

طريقته

١ — رتب الكلمات القريبة من الأحاديث والآثار على حروف المعجم ،
مراعيا الحرف الأول والثانى ، فيذكر مثلا فى الهزرة مع اللام أ ب ثم أ ت ،
ثم أ ف ، ويذكر فى الحاء مع الكاف ح ك ثم ح ط .

ولسكنه ليخرج الحرف الثالث ، ففي التاء مع القاف يذكر ق ك ثم ق ط ،
وفي الجيم مع الدال يذكر ج د ثم ج ذ ، ثم ج دد ، ثم ج د ن ، وفي الخاء مع
اللام يذكر خ ل ثم خ ل ج ، ثم خ ل ن ، ثم خ ل ب ، ثم خ ل ص ، وهكذا .

٢ — قد يذكر الحديث كله ، وقد يذكر بعضه ، انظرا إلى الكلمة
أو إلى الكلمات الغريبة التى يريد شرحها ، ويستشهد بنصوص بليغة من الشعر
والنثر ، وقد يعرب بعض الكلمات « إعراب المحقق البصرى الفاضل فى
سيبويه وتقرير الفسوى »^(٣)

وقد أثنى عليه ابن حجر فى قوله : « وكتابه الفائق فى غريب الحديث من

(١) استمدرك هذا بأن أشار إلى هذه الكلمات فى المواضع التى وردت فيها .

(٢) الفائق ١/٣

(٣) النهاية ١/١

أنفس الكتب ، فجعله المنفرد في مكان واحد ، مع حسن الاختصار ، وصحة النقل ^(١) .

نماذج منه

١ — النبي صلى الله عليه وسلم . أتى بكثف مؤرّبة فأكلها وصلى ولم يتوضأ .

هي المؤرّبة التي لم يؤخذ شيء من لحمها ، فهي متلبسة بما عليها من اللحم ، متعلقة به ، من أرّبت العفدة إذا أحكمت شدّها . من الناس من يوجب الوضوء يأكل ما مسسته النار . وعن أهل المدينة أنهم كانوا يرون هذا الرأي . وهذا الحديث وأشباهه ردّ عليهم ^(٢) .

٢ — إن الإسلام أبّأرّز إلى المدينة كما تارّز الحية إلى جحرها . أي تنضوي إليه وتنضم . ومنه الأروّز للبخيل المتقبض . وعن أبي الأسود الدؤلي إن فلانا إذا سئل أَرِزَ وإذا دُعِيَ انتَهَزَ ^(٣) .

٣ — في الحديث كانوا يتأتمنون شرار ثمارهم في الصدقة ، أي بقصدون . وفي قراءة عيد الله : « ولا تأتمموا الخبيث » ^(٤) .

٤ — النبي صلى الله عليه وسلم : لا يُوطئن من المسجد للصلاة والذكر رجل إلا ببشيش الله به من حين يخرج من بيته كما تبدّش بش أهل البيت بعائتهم إذا قدم عليهم .

التبدّش بالإنسان السرة به والإقبال عليه ، وهو من معنى البشاشة لا من لفظها عند أصحابنا البصريين ، وهذا مثل لأرتضاء الله فعله ووقوعه الموقوع الجميل عنده .

(١) لسان الميزان ٤/٦ (٢) الفائق ٢١/١

(٣) الفائق ٢٢/١ (٤) الفائق ٤٥/١

يُخرج في موضع الجر بإضافة الحين إليه ، والأوقات تضاف إلى الجمل .
ومن لا بداء الغاية ، والمعنى أن التمهيد يشيئ من وقت خروجه من بيته
إلى أن يدخل المسجد ، فترك ذكر الانتهاء لأنه مفهوم ، ونظيره :

شئت البرق من حلال السحاب

ولا يجوز أن يفتح حين كما فتحة في قوله :

على حين عاتبت العشب على الصبا

لأنه مضاف إلى . عرب ، وذلك إلى مبنى ^(١) .

هـ — النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يتعود من الأيهمين

هما السيل والحريق ، لأنه لا يهتدي لدفعهما ، من القلة اليهماء وهي التي
لا يهتدي فيها ، لأنه لا أثر يستدل به .

وقال ابن الأعرابي . رجل أيهم أصح ، وامرأة يهماء ، ومنه قالوا : أرض
يهماء ، ويقال للجبل الذي لا يرتقى أيهم .

وقيل اليهم الجنون ، ومنه الأيهم النحل المغتلم ^(٢)

(١) الفائق ٩٢١

(٢) الفائق ٢٣٢/٣

(٤) أعجب العجب في شرح لامية العرب

هذا كتاب شرح فيه الزمخشري قصيدة الشنفرى التى مطلعها :

أقيموا بنى أمى حذور مطيكم فإلى إلى قوم سواكم لأمنيل

وذكر فى مقدمة الشرح أنه أنه « ليتحفظ به الخزانة السعيدية والخضرة العزائية ، ذا الآلاء المظاهرة ، والنعم الوفيرة المستولى على جوامع الحكم بالتوفيق لأهلها والتعظيم ، والتقريب والتكريم ، وإحراز الكتب المؤلفة فيها ، وإعزاز أربابها ومصنفها » .

ويظهر من المقدمة أنه أنه بعد أساس البلاغة ، لأنه قال : « وخطابى لمن نشأ فى علم الإعراب وطالع أساس البلاغة » .

وقد شرح اللامية كثير من اللغويين ، مثل النيرد وتعلب والنيرزى والعكبرى ويحيى الخليلى الفسافى والزوزنى والبغشوانى وابن أكرم وابن زاكور وعطاء الله المصرى والسويدى والسعيدى الجهرى ، واستشهد بأبيات منها كثير من اللغويين والنقاد والمؤرخين .

وبلاحظ أن الزمخشري ملأ شرحه بالنحو حتى لكان النحو مقصوداً مقصداً ، وأنه اقتصر من اللغة على شرح المفردات الصعبة ، ولم يعرض لشيء من علوم البلاغة .

وهو فى شرحه يستشهد بالآيات القرآنية ، وبأبيات شعرية

وقد عني بها كثير من المستشرقين عند نشرها (ده ساسى) فأكبروا على دراستها ، وترجموها شعراً ونثراً إلى لغاتهم مثل (فريل) و (فيل) و (كوزجارت) و (زويس) و (ديكرت) و (هيرجشتل) و (الفارت) و (أداما ميكيشتا) و (فرين) و (ب . بليا) .

واتجه آخرون إلى اقتداء مخطوطاتها ، والموازاة بين بعضها وبعض ، مثل (بترمان) و (شيرنجر) .

وفي عام ١٨٦٤ رأى تولدكه أن بعيد النظر فيها ، فألف كتابا في الشعر الجاهلي عرض فيه لما قيل في اللامية ، وناقشه ، ثم قال : لولا أني رأيت على مخطوطة (بترمان) هذه الجملة (لامية الشنفرى ، وقيل إنها منجولة) ما تنفرق إلى ذهني شك في صحتها ، فإنها إن كانت منجولة فالشاعر الذي قالها يجب أن يكون ملما بالحياة العربية والجاهلية بالما تالما ، كما أن خياله غزير جداً ، حتى إنه يستحق أن يتبوأ اسمى مكان بين الشعراء الجاهليين ، وإذا لم تكن هذه اللامية لبطل الصجراء ، فإنها صنعت لتنسب إلى مثله .

وفي الوقت الذي كان فيه مجمع فيينا العامي ينشر دراسة لتولدكه عن التعليقات كان المجمع العلمي الباقري يبعث في عامي ١٩١٤ ، ١٩١٥ بحثاً فيما حول لامية العرب للمستشرق الألماني (جورج يعقوب) ، وقد ألف قبل هذا البحث كتاباً عن حياة البدو في العصر الجاهلي ، وجمع المصادر المختلفة للامية الشنفرى ، وعنى عناية خاصة بنبات الشرق العربي وحيوانه .

وقد ناقش ما أجمع عليه تسارع اللامية من أن السمع في قول الشنفرى :

فإنى لمَوَلَى الصبر أجتأب بَرَهُ قَلَى مِثْلِ قَلْبِ السَّمْعِ وَالْحَزْمِ أَنَعْلُ^(١)

هو ولد الذئب من الضبع . وخالفهم وقال إن مثل هذا التزاوج لم يحدث بين الذئب والضبع ، واستعان لإثبات رأيه بحديقة حيوان (هلازن) بألمانيا التي

(١) قال الزعشمي في شرح اللامية ٥٤ مول الصبر : ولله يريد أنه القائم به . اجتأب : أبس . أبز : أئتمه . أبز : يريد أني إليه أبسى فوبه . السمع حيم مركب وهو ولد الذئب من الضبع ، وفي النمل أسمع من سمع . قال الشاعر :
تراء حديد الطرير أبسج واضعا
أغر طويل الباع أسمع من سمع
الحزم أنعل : أعتدى الحزم

نجحت في تجربة التزاوج بين الذئب والثعلب ، وأخفت في تحقيق ما قاله شراح
الزئبية ، لأن السمع كما قال الرحالة والعلماء وبخاصة علماء الحيوان : حيوان آخر
يشبه الكلب ، وحجمه كالخمار ، إذا لم تصب الطلقة الأولى منه مقتلاً اكتسب مناعة
ضد الرصاص ، وهو مهاجم للإنسان ويضربه بمخلبه الأمامي ، فييجر بطنه ويقتحمه ،
ويطلق عليه علماء الحيوان اسم (ليكاون بيكتوس — Lycan Pictus) وهو
مشهور بقوة السمع حتى يضرب به المثل^(٢)

على أن المناعة التي يكتسبها هذا الحيوان ضد الرصاص ليست مما يدخل في
إطلاق العقول ، لأن إختفاى الطلقة الأولى أو ما بعدها لا يكسب الحيوان هذه
المناعة .

(٥) الجبال والأمكنة والمياه

تعريف بالجبال والأمكنة والمياه ومواقعها وأسمائها وبعض ما يتصل بها ، من
أخبار وشعر ، مرتبة ترتيباً هجائياً ، بدأ بما في أوله الهمزة ، فقال : أبو قبيس
الجبل المشرف على الصفا ، يسمى برجل من مذحج كان يكنى بأبي قبيس ، لأنه
أول من بنى فيه ، ثم ذكر بعده ما في أوله الباء ، وما في أوله الراء ، وهكذا إلى
الياء ، فقال : يَلْعَلْكم واد يحرم منه أهل اليمن .

فما ذج منه

١ — أجماء : جبل بالمدينة ، سمي بذلك لأن ثم جبالين هي أقصرهما ، فكانتا
جاء ، وأنشدني الشيباني :

القصر والنخل فالجاء بينهما أشهى إلى القلب من أسياح جَبْرُون
أجماء من المدينة على ثلاثة أميال ناحية العقيق إلى الجرف .

(٢) من مقال مجلة الرسالة العدد ٨١٥ في ١٤ فبراير سنة ١٩٦٥ الدكتور فؤاد حسن علي .

٢ — مُحْكَمٌ : نهر بالجماعة ، قال الأعشى :

وَنَحْنُ غَدَاةُ الْعَيْنِ عَيْنِ فُطَيْمَةٍ مَنَعْنَا بَنِي شَيْبَانَ شُرْبَ الْحَلَمِ

٣ — عَكَظَ : سَوَّقَ ، وَقِيلَ عَكَظَ مَاءٌ لَهُمْ ، قَالَ :

إِنْ عَكَظَا مَاؤُنَا فَيَجْلُوهُ

وَقِيلَ عَكَظَ مَا بَيْنَ نَخْلَةٍ وَالطَّائِفِ إِلَى بَلَدٍ يُقَالُ لَهُ الْفَتْقُ ، كَانَتْ سَوَاقِهِ تَقَامُ

هَلَالِ ذِي الْقَعْدَةِ فَلَا تَرَالُ قَاعَةٌ عَشْرِينَ يَوْمًا .

٤ — مَنفُوحَةٌ : بَلَدٌ فِيهِ مَنَازِلُ وَنُحَيْلٌ ، وَهِيَ خُطَّةُ بَنِي قَيْسِ بْنِ لُعَلْبَةَ .

قَالَ الْأَعْشَى :

فَقَاعِ مَنفُوحَةِ ذِي الْحَايِرِ (١) .

(١) لا تَرَالُ مَنفُوحَةٌ عَامِرَةٌ بِالْقُرْبِ مِنَ الرِّيَاضِ فِي نَجْدٍ ، وَبِهَا أَحْلَالٌ يَقُولُونَ إِنَّهَا كَانَتْ بَيْتَ الْأَعْشَى ، وَانْدَرَّتْهَا مَرَّاتٍ مِنْ سَنَةِ ١٩٥٧ إِلَى ١٩٦٠ .

الفصل الثامن

في شعب النحو

درس الزمخشري النحو ، وتفوق فيه كما درس اللغة وبرع فيها ، وكان
تابعاً للمذهب سيبويه والبصريين في آرائه ، كما يبين من مؤلفاته كلها ، وله في
النحو ثلاثة كتب هي :

(١) المفضل

شرح في تأليفه في غرة رمضان سنة ٥١٣هـ ، وفرغ منه في غرة المحرم
سنة ٥١٥هـ (١) .

وهو أربعة أقسام : الأول في الأسماء ، والثاني في الأفعال ، والثالث في الحروف ،
والرابع في المشترك .

ويتنازل به يورد أمثلة كثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف وشعر
البلغاء ونثرهم ، كقول له في حذف المفعول به :

وحذف المفعول به كثير ، وهو في ذلك على نوعين :

أحدهما أن يحذف لفظاً ، ويراد معنى وتقديراً .

والثاني : أن يجعل بعد الحذف اسماً مسياً ، كأن فعله من جلس الأفعال
غير المتعدية ، كما ينسب الفاعل عند بناء الفعل للمفعول به .

فمن الأول قوله تعالى « اللَّهُ يَسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » وقوله « لَا عَاصِيَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » لأنه لا بد لهذا الموصول من أن يرجع إليه من صانعه مثل ما نرى في قوله تعالى « الَّذِي يَخْطُبُ الشَّيْطَانُ الْمَرْءَ » وقرئ قوله تعالى : « وما علمته أيديهم وما علمت »

ومن الثاني قولهم : فلان يعطى ويقنع ، ويصل ويقنع ، ومنه قوله عز وجل : « وَأَصْلَحْ لِي ذُرِّيَّتِي » وقول ذي الرمة

ولم تعذر بالمثل من ذي ضرر وعيا إلى الضيف يخرج عراقيها نصلي^(١)
ولقد شرحه وعاق عليه كثير من النحاة^(٢) ، مثل أبي البقاء العسكري الشوفي سنة ٦١٦ هـ ، واسم شرحه الإيضاح ، ومثل ابن الحاجب (٦٤٦ هـ) وشرحه اسم الإيضاح أيضا ، وعلى هذا الشرح حواشى الآخرين.

وأكثر شراح المفصل شهرة موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الحلي المولود بحلب سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) درس النحو والحديث بحلب ودمشق والموصل ، وتوفي سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) وتلميذ عليه ابن خلكان سنة ٦٢٦ هـ ، ٦٢٧ هـ وقال إنه حجة في الأدب .

ولأن يعيش هذا مؤلفات منها حاشية على شرح ابن جني على (تصريف) التازي ، وشرح واف على (المفصل) عارض فيه الزمخشري في كثير من المواضع . وقد تحدث ابن يعيش عن الباعث له على شرح المفصل ، فقال : لما كان الكتاب الموسوم بالمفصل من تأليف الإمام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، رحمه الله ، جليلا قدره ، بأنها ذكره ، قد جمعت أصول هذا العلم فصوله ، وأوجز لفظه فتيسر على الطالب تحصيله ، إلا أنه مشتمل على ضروب منها لفظ أغربت عبارته فأشكل ، ولفظ تتخذه معان فهو محمل ، ومنها ما هو

(١) الفصل ٢/ ٣٩ . يروح : المراد يورحها

(٢) كشف القانون ٢/ ٤٨٨ — ٤٨٩

بإدراك الأفهام إلا أنه خال من الدليل مهمل ، استخرت الله تعالى في إكمال كتاب
أشرح فيه مشكله ، وأوضح محله ، وأنبع كل حكم منه حججه وعقله .

ولا أدعى أنه — رحمه الله — أخل بذلك تقصيرا عما أتيت به في هذا
الكتاب ، إذ من المعلوم أن من كان قادرا على بلاغة الإيجاز كان قادرا على
بلاغة الإطناب ^(١) .

وقد طبع هذا الشرح في ليبسيك من سنة ١٨٨٢ إلى ١٨٨٦ م ثم طبع
بإدارة الطباعة المنيرية بالقاهرة في عشرة أجزاء .

(٢) مقدمة الأدب

قسم هذا الكتاب خمسة أقسام :

القسم الأول في الأسماء ، فذكر المفردات وجوعمها التكسيرية ، مثل وقت
وأوقات ، وحين وأحيان ، وأجل وآجال ، وأوان وآونة وأيايين ، ودهر
وأدهار وأدهر ، ونبت ونبات ، وعشب وعِشَاب وأعشاب ، ومزرعة ومزارع ،
وسنبلة وسنابل ، وهكذا مراعىا موضوعات عامة لكل طائفة من الكلمات .

والقسم الثاني في الأفعال ، مثل : هَذَا الطَعَامُ يَهْبِسُهُ وَيَهْنُؤُهُ وَيَهْدَاهُ ،
وهِنَّهُ يَهْنُؤُهُ هُنُوًّا ، وهذا البعير بالقَطْرَانِ يَهْبِسُهُ وَيَهْنُؤُهُ هَذَا وهو الهداء

والقسم الثالث في الحروف ، فتكلم عن الحروف ، وعملها في الأسماء
والأفعال ، وعقد لذلك فصولا . منها فصل في الحروف التي تنصب الاسم
وترفع الخبر مثل : إن زيدا منطلق . بلغنى أن زيدا منطلق ، كأن زيدا الأسد ،
ما جاءني زيد لكن^٢ عمرا حاضر ، ليت زيدا خارج ، لعل عمرا حاضر ، فإذا

اتصل بها (ما) ارفع الاسمان كقولك : إنما زيد منطلق وكذا الباقي .

القسم الرابع في تصريف الأسماء ، فتكلم عن حركات الإعراب وحركات البناء ، وعن التذكير والتأنيث ، والنسب والتصغير . . الخ .

القسم الخامس : في تصريف الأفعال ، فعرض للمبنى للفاعل ، والمبنى للمفعول ، وللصحيح والمعتل ، وللتعجب ، ولأسم الفاعل واسم المفعول . . الخ .
والكتاب عربى فارسى في قسميه الأولين ، أما الأقسام الثلاثة الباقية فعربية خالصة .

ويبدو من هذا التعريف الوجيز أن الكتاب نحو ولغة ، ولكن النحو أغلب . وقد أهداه إلى الأمير الأجل بهاء الدين علاء الدولة أبى المنصور آتوز ابن خوارزم شاه ، ووصفه بقوله : « غاية لذته في مجاسة الأفاضل ، وقصارى لهوه في منادمة الأمثال ، ولا يزال ظل كرمه الواسع عليهم ممدودا ، وجناحه بانعاده الفاتن نجمودا ، وصلاته وخلعه مترادفة عندهم متواليه ، راحة إليهم غادية . وقد رسم لى أمره العالى — زيد علوا — بتحرير نسخة من كتاب مقدمة الأدب لخزاة كتبه المعمورة ، ففعلت على رسمه * وجعلت الكتاب مرسوما باسمه ^(١) » .

(٣) النموذج

هذا كتاب موجز جداً فى النحو ، اقتضيه من الفصل ، ويظهر أنه أراد به المبتدئين * عدد صفحاته ثلاث وعشرون صفحة .

وحد بنا هذه الإشارة ، لأن التفصيل فى هذا يحتاج إلى دراسة خاصة .

الفصل التاسع

في حديث النشر

نارس الزمخشري النشر الفني في هذه الكتب الثلاثة : نوايح الكم ،
ومقامات الزمخشري ، وأطواق الذهب .

وله أثر فني في مقدمات كتبه الأخرى وفي تنايا بعضها ، وخاصة الكشف ،
وفي بعض فصول كتابه ربيع الأبرار .

أما موضوعاته فتدور حول الوعظ والإرشاد والدعوة إلى التحلي بالنقوى
ومكارم الأخلاق .

وأما أسلوبه فالصيغة العامة له مجازاة كتاب عصره في الكلف بالسجع ،
وتكافؤ المحسنات ، والجنوح إلى حل المنظوم ، والتلاعب بالألفاظ الاصطلاحية .

ولقد كان المأمول من أبي القاسم أن يتجرر من هذه القيود التي كبلت
النثر الفني منذ القرن الثالث الهجري إلى القرن العشرين ، لكنه لم يتجرر منه .

مع أنه قال في مقدمة المقدمات ^(١) : ولتعلم أن ما جاء القاسم البديع ، من تحسين
الألفاظ وتزيينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والتدجييع والترصيع ، لا يلج

ولا يبرح حتى يوازي مصنوعة مطبوعة ، وإلا فما فني في أما كنه ، وبها عن
مواقع ، فنبوء بالبراء ، مرفوض عند الخطباء والشعراء .

على أن بعض سجعاته حلوة الوقع ، لا يبدو عليها استكراه ، وبعض

محسنة أسعفت بها المهارة واللباقة فجاءت كأنها عفو الخاطر ، ووليدة
النصافة ، مثل قوله : « ألا إن اتقاء المحارم ، من أجل المسكارم ، فانقها إما
المسكارم الغريزة ، وإما التوقف عند حدود الشارع ، وتخوف الزواجر
والقوارع »^(١).

وفوله : « يا أيها المستجدي ، حسبك ، فليس الكسب كسبك ، لا يُحقق
الديباجة مثل التعرض للحاجة ، فليرفع السير خصتك »^(٢) ، ولكن القناعة حصتك ،
وأقلل في الناس طمعك ، واسترهم فضل الله معك »^(٣).

ويكفي أن أذكر بعض الأمثلة من كفة بالسجع والمحسنات المتشعبة المنقلة
ببعض المفردات اللغوية التي لا باعث على استعمالها إلا الجنوح إلى الإغراب ،
أو الدلالة على الإحاطة والمنقطة ، على حين أن غيرها أجمل منها وقماً ، وأوضح
دلالة ، وأثرى معنى .

من ذلك قوله في مقامه العزلة : « قاتل الله بنى هذه الأيام ، جوارهم
غوار »^(٤) ونفاهم ينار »^(٥) بينما أنت في خلكوا تلك إذ فوجئت
بمشافهة بعضهم ، من الذين أخذك الله ببعضهم » . . .

فهو يتعسف في تعبيره ليسجع وليجانس بين حوار وغوار ، وبين نقال
ونقار ، ويستعمل كلمة مشافهة على ثقلها .

(١) المقامات ٥٦

(٢) الحصة : الحصة الفقر ، وقال في الأساس : سمعت أهل السراة يقولون : رفع
الله خصتك .

(٣) أطباق الذهب ٣٢

(٤) القوار : المناورة

(٥) النقال : مناق السكوك ، النقار : المناورة والتجسس

ويقول في المقامة نفسها^(١) : « استمعنا إلى غاية التعواية مُعْتَقِينَ ، ووردنا في هوة الرأي مُعْتَرِقِينَ^(٢) » .

والتكاف واضح في استعمال معتقن ومعتقن لضمان السجع والجناس .
ويقول في مقامة العمل^(٣) :

« إن ذكر النثر فهو ركة ابن لسان الحمرة حمرة لسانه جهش وما جهش^(٤) .

فهو يستعمل (ركة) بدلا من رأى ، ويستعمل جهش ليجانس بينهما وبين جهش ، ويمثل بشخص غريب الاسم ، غير مشهور بالإلاغة إلى درجة أن يضرب به المثل .

ويستعمل في هذه المقامة في استعمال كانت أربع متصلة بالفوس .
فيقول : « متى نظر إلى الرثاة مؤثرين متبيضين^(٥) ، كددين غير محبطين^(٦) أقبل على مقالة الفم بتقل ، وبجمرة العيظ يتصل » والتكاف بين في تتابع هذه الكلمات .

على أنه كتب خمس مقامات متصلة بأصطلاحات نحوية وعروضية وغيرها ، سأعرض لها فيما بعد .

وهذا النثر في كتبه : نوابغ الكلم ، ومقامات الزمخشري ، وأطباق الذهب ، وربيع الأبرار .

(١) مقامات الزمخشري ٧٢

(٢) معتقن : مسرعين

(٣) المقامات ١٠١

(٤) جهش : فزع أو حرب . جهش : هش وارتاح . ابن لسان الحمرة على وزن سكرة خطيب طبع لسانه الله عبد الله بن حصين أو ورقة بن الأعقر القاموس مادة حراء .

(٥) متبيضين : جاذبين أو تار التسي

(٦) محبطين : ساقطه سيماهم

(١) نوابغ الكلم

أما نوابغ الكلم فهي حكم قصص متوالية موجزة ألقى البخاري ، مسجوعة
سجما مترما ، لا ينظمها موضوع أو فكرة ، كقوله : العرب نبع صلب
المعاجم ، والعرب ^(١) مثل الأعاجم .

إذا قلت الأنصار كلت الأبصار .

لا تمش بالريية مؤثمة ^(٢) ولا تنس أن عليك مئة مئة .

صنوان من تمنع سائله ومن ، ومنع نائله ومن .

كرايت من أعرج في دوح المعالي أعرج ^(٣) ، ومن صحيح القدم ليس أدنى

الخير قدم .

قد جمع الأصل والفرع من تسع النفل والشرع .

رب صدقة من بين فكك خير من صدقة من بين كفتك .

لن يسود الثغر ^(٤) ما يسود القار .

أم الزائر ^(٥) تزور ^(٦) ، وأم النابغ تمور ^(٧) .

رب كلمة هي عند الناس فضيحة ، وهي عند الله فضيحة .

(١) الغرب : نوع من الشجر سهل الكسر

(٢) المئمة : الصوت الحلق

(٣) أعرج (التالية) : أصعد وأرق

(٤) الثغر : الواسي الغالب الثام

(٥) الزائر : الأست

(٦) تزور : قليلة الولد

(٧) النابغ : السكاب . تمور : كثيرة الأولاد .

(٢) المقامات

وأما المقامات فقد ألفها سنة ٥١٢ هـ ، لأنه قال إنه أصيب في تلك السنة بالمرض الناهكة التي سماها المنذرة ، فأخذ على نفسه اليثاق إن من الله عليه بالصحة ألا يطأ عتبة السلطان ولا أعوانه ، وأن يبرأ بنفسه ولما نه عن قرص الشعر فيهم ، وأن يعف عن التطلع إلى عطائهم ، ويحتشد في محو اسمه من الديوان ، ويبتهل إلى ربه ويقولك^(١) .

وكان تأليفها أو شرحها بعد نوايغ الكلم ، لأنه شرح كلمة نقار في صفحة ٧٢ من المقامات ، وقال : وفي نوايغ الكلم : أن يسور النقار ما أسود القار ، وشرح كلمة ثور في صفحة ٢٣٠ فقال : وفي النوايغ أم نثار نوز ، وأم النايغ ثور^(٢) . وفيهم مما ذكره في الشرح أن تأليفها أو شرحها كان بعد الكشف^(٣) ، وكان بعد الفائق في غريب الحديث^(٤) .

ويظهر أنه كتبها في مكة ، لأنه أشار إلى البيت العتيق بقوله : أسأل الله أن يضع لك سجال النعم ، ويعينك على إفادة أهل الحرم ، ويكتبك ببركة هذا البيت العتيق في زمرة العتقاء من النار^(٥) .

وهي خسون مقامة ، موضوعها النصيح والإرشاد والعظة ، موجبة إلى نفسه ، مصدره كل منها بقوله : يا أيها القاسم ، والكل منها عنوان مثل : مقامة المرشد ، مقامة التوحي ، مقامة الرضوان ، مقامة الزهد ، مقامة الصمت ، مقامة القناعة ، مقامة العفة ، مقامة التوحيد ، مقامة الشهامة ، مقامة العزم ، مقامة أيام العرب .

(١) المقامات ٦ (٢) في شرح الكلمات في نوايغ الكلم

(٣) شرح المقامات ١٠٥ (٤) شرح المقامات ٥٥

(٥) في المقامات ٥٥

وهي وإن خالفت مقامات الحريري في الموضوعات والغاية فإنها مما كاد لها في الأسلوب السجع الخافل بالمحسنات .

وقد شرحها الزمخشري نفسه شرحا مفصلا ، تعرض فيه للغة والبلاغة والنحو ، واستشهد بكثير من آيات القرآن الكريم والحديث النبوي وشعر العرب وأمثالهم وأخبارهم ، كقوله ^(١) :

الصائر يعمى بيضته ويرفرف غابها ، فغضب مثالا يذب عنه الإنسان من حوزته وحقيقته ، فيقال فلان يعمى بيضته ، ولو قيل فلان يرفرف بجناحه على بيضة الإسلام لكان مجازا مرشحا .

فإن قات : صابلم قالوا : أدل من بيضة البلد مع قوفهم أعز من بيضة البلد ؛ قلت : هي بيضة النعامة ، وأضيفت إلى البلد وهي المقارنة ، لأنها تباض فيها ، وأما تركها فتحضنها أخرى . فلما كانت متروكة من ناحية محضونة من أخرى وصفت بالعزة والذلة ، فقليل :

لو كانت قاتل عمرو غير قاتل بكيتته ما أقام الروح في جسدي

لكن قاتله من لا يعاب به وكان قدما يسمى بيضة البلد

والقنص أخت محروين ود في علي رضي الله تعالى عنه وقتله أخاه .

وقيل المراد بالبيضة التي هي ، مثل في القتل الكثرة البيضاء ، لأن الأرض تبيضها ، أو تشبهها بالبيضة ، فهو كقولهم أدل من ققع بقرقر .

وقوله في شرح « استقبل من الدهش » إنها كلمة موضوعة ، استعمل ، من باقل المضروب به المثل في البعي ، فليس على استنوق الجمل ونظائره ، نحو استنبط

العرب ، واستعرب النبط^(١) . ولكن لم يذكر هذا الاستعمال في أساس البلاغة .

وهذه نماذج من المقامات

١ — قال في مقامة العزلة^(٢) :

يا أبا القاسم ، أولُ فُسك عن حبة النبس واشْرطُ . وامت فرعة من قراع
الجبل فطرطها ، ولذَّ بعض السكوف والغبيران ، بعيدا من الرقعة والجيران ،
حيث لا معاذَ طرفك إلا سوادك^(٣) ، ولا تجرى مؤامرتك^(٤) إلا مع فؤادك ،
ولا توصل إلى سمعك إلا غمك ومناجاتك . والاجوارك^(٥) ومنذرك . . .

قال الله بنى هذه الأيام . فأنهم طلائع الشرور والآلام ، حوارهم عوار ،
وقالهم^(٦) تقار ، ووفاتهم نفاق ، تساقى بالسفهم الأعراس ، كما ترشق اسمهم
الأعراس^(٧)

٢ — ورثتم بعضها بشعر من إنشائه ، كقوله في مقامة الزهد^(٨)

طوبى لعبد بجبل الله ممقصة على صراط سوى ثابت قدمة

رث اللباس جديد القلب مستتر في الأرض مشهور فوق السماء سمة^(٩)

إذا الميون اختلته في بدائته تعلو نواظرها عنه وتمنعه^(١٠)

(١) المقامات ١٠٦ (٢) المقامات ٧٦

(٣) السواد : الشخص (٤) المؤامرة : المشاورة

(٥) الجوار : وقع الصوت بالدعاء والاستغاثة ، وفي التبريل (إذهم يبارون)

(٦) قالهم : مناقتهم الكلام . تقار : متافرة ينظر بعضهم بعضا بالغيب ، وفي تواضع

الكلام أن يسود النجار ، أو اسود القار .

(٧) تساقى : تقرب . قال تعالى : سلقوكم بألثة حداد

(٨) المقامات ٢٥

(٩) السمة : الاسم ومعنى البيت مبق على قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : كونوا

جده القلوب خلفان الثياب تحبون في الأرض ترقون في السماء .

(١٠) البدانة : ترك التكلف والمظهر واللبس .

ما زال يستحق الدماء بهيته حتى ترقى إلى الأحرى به حمة
فذلك أعظم من ذى الناج، مكثنا على التبارق محققاً به حمة
٣ — وفي مهابتها خمس مقامات ، ملاً الأولى باصطلاحات نحوية ، وسياها
(مقامة النحو) وملاً الثانية باصطلاحات عروضية ، وسياها (مقامة العروض)
وملاً الثالثة باصطلاحات القافية وسياها (مقامة القوافي) والرابعة اختص بها
اصطلاحات دوائية وسياها (مقامة الدواء) مثل الطاسيج^(١) والذريع^(٢)
والروزنج^(٣) والأسكوار^(٤) ، والخامسة قصرها على ذكر أيام العرب وسياها
(مقامة أيام العرب) وهذه المقامات الخمس منقلة بالكلف والتحليل ، وإن دلت
على مهارة في اللعب بالألفاظ .

فمن مقامة النحو قوله^(٥) :

يا أم القاسم أن تكون مثل همزة الاستفهام ، إذ أخذت على ضعفها
صدر الكلام ؟ ليطك أشميتها متقدما في الخير مع المتقدمين ، ولم تشبه في
تأخرك حرف التانيث والتثوين ، خارج الأبرار بعمل الثواب الأواب ،
فانفعل نداء من الاسم فاز بالإعراب ... ولا يكون ضميرك عن الفهم المدين
ساليا ، كما لا يكون أفمل من الضمير خاليا ...^(٦)

ومن مقامة العروض قوله^(٧) :

يا أم القاسم ، أن تبلغ أسباب الهدى بمعوة الأسباب^(٨) والأوتاد^(٩) أو تبلغ

(١) الطاسيج : ألسنة السواد سميت ألسنة المنقل وهو أربعة وعشرون طسجاً .

(٢) الذريع : تعريب تاريك وهو الظلم وهو سواد يعمل للعفة إذا احتاجوا إلى حل

الأبرار

(٣) روزنج : تعريب روزنامه وهو ما يكتب فيه ما يجري كل يوم من استخراج وثائق

(٤) الأسكوار : كتاب يكتب فيه عدد الخرائط والكتب الواردة والتألفة

(٥) المقامات ١٨٠ (٦) شرح بتفصيل المراد من هذه الاصطلاحات

(٧) المقامات ١٨٦

(٨) السبب اسم ظرفين وهو سبب خفيف نحو قل وسبب ثقل نحو رجم ...

(٩) الوند اسم لثلاثة أحرف نحو نعم ونحو قال ...

أسباب السراوات فرعون ذو الأوتاد ابن الحنظلي في عروض سيوى علم
العروض^(١) في العلم والعمل بالسنة والعروض ، ما أحوج مثلك إلى الشغل
بتعديل أفعيله ، عن تعديل وزن الشعر بتفاعيله^(٢) .

(٣) أطواق الذهب

وأما أطواق الذهب في المواظف والخطب فإنه مئة مقالة ، كل منها في بضعة
أسطر بغير عثران ، أنشأها في مكة قبل تأليف الكشف ، قال في المقدمة :
« أسألك أن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ، وأن تحفظ فيها
ما وجب الإجازة من حق التمام والذمار ، لأنها وجدت في حرمك المطهر ،
ورأيت في جحر بيتك المنذر »^(٣)

وقال الميرزا يوسف خان الأشعبياني في شرحه لها : يريد أنه أنشأ تلك المقالات
بمحكمة أهلها لله تعالى ، وذلك أنه كان بطوف بيت الله ، وإذا فرغ من الطواف
ألف مقالة ، ثم يقوم ويطوف ويلتفت بعد الفراغ ، وما زال على ذلك إلى أن
بلغت مئة كاملة^(٤) .

وشرحها أيضاً الشيخ يوسف أفندي الأسير

ثم ألف شرح الذين عبد المؤمنين بن هبة الله المغربي الأصفهاني كتابه أطباق

(١) العروض : الحائض وناحية . وصحى هذا العلم بالعروض لأنه أحية من نواحي العلم ،
أو باسم الجزء الأخير من أبحر الصراح الأول ، كما أن علم المواظف علم الفرائض يقول الفرضيين
فريضة الزواج كذا وفريضة الأيم كذا ، وقبل العلم وهو محمود بيت وقيل السعة التي في وسطه .
أخذ الحلي هذه الأسماء من بيت العرب وهي السبب والوند والعاصم والعروض والضرب
لشبهها لبيت الشعر .

(٢) تفاعيل الشعر سبعة خماسيان وخمسة فاعليان وخمسة سباعية وهي الأفاعيل
والأركان والمضادات والمناطع والأوزان

(٣) أطواق الذهب ٦ (٤) ثلاثة الأدب في شرح أطواق الذهب ٦

الذهب على غرار أطواق الذهب ، وقال إني حذوت حذوه ، واقتنيت أثره وخطوه ^(١) .

ثم حاكها السيد توفيق البكري في كتابه صهاريج النوافذ ، ثم أحمد شوقي في كتابه أسواق الذهب ، مع اختلاف الموضوعات وتفاوت العبارات .
وعنه نأذج من أطواق الذهب :

١ - - من عرف منهل الذل فعافه ، استعذب نقيع العز ، ذاعفه ^(٢) ، ومن لم يصقل بحر الخيضاء لم يصل إلى بحر النعم ، ومن لم يصبر على برائن أسد اللقاء لم يصب أطرافاً كالنعم ^(٣) ، ومن لم يقض غايه عشر بقده ^(٤) ، لم يقمض له بسر بقده ^(٥) .

٢ - الدنيا أدوار ، والناس أطوار ، قاليس كل يوم بحسب ما فيه من الطوارق ^(٦) ، وعاشر كل قوم بقدر ما فيه من الطرائق ^(٧) ، فالأيام لا تجري على وفق مرادك ، والأيام لا تسري على طبق تأويلك وإسارك ^(٨) ^(٩)

٣ - وابن آدم ، أصلك من ضئصال كالخيار ، وفيك ما لا يسلك من التيه والافتخار ، تارة بالأب والجدة ، وأخرى بالدولة والجدة ، ما أولاك بالآ تصغر خديك ، ولا تفتخر بجديك . ابصر خليلي مم مر كيت ، وإلأم متقلبك . فحفض من غداؤك ، وخل بعض خيلائك ^(١٠) .

(١) أطواق الذهب ٧ (٢) الذاعب : السهم الشديد

(٣) النعم : شجر ابن الأغصان تشبه به بيان الحسان .

(٤) يقذه : يوجهه

(٥) أطواق الذهب ٤٢ (٦) الطوارق : الشقوق والأحداث

(٧) الطرائق : المذاهب

(٨) التأيوب : السير من أول النهار . الإسك : سير لا إقامة فيه .

(٩) أطواق الذهب ٦١ (١٠) أطواق الذهب ١٢

٢ — العلماء السوء جمعوا غرائب الشريعة ودَوَّنوها ، ثم رخصوا فيها لأبناء السوء وهوئولها ، ليتهم إذ لم يراعوا شروطها لم يعرّفوها ، وإذ لم يسمعوها كما هي لم يجمعوها ^(١) .

٣ — ذو الحقيقة لا يعرّف ديباج اللوك ، ولا يعبأ إلا بعبادة الصمّوك ، يقول : وزاء الديباجة ليل دامن ، وتحت العبادة نهار شامس ^(٢) .

(٤) النصائح للصغار واليهوالمع الكبار

مجموعة من النصائح والحكم في صور مقالات قصار عندها نحو التسعين . منها قوله :

١ — القاضي تعمل فيه الرشوة ، مالا تعمل في الشارب النشوة ، إن أنه فسكران مثلاً وطرباً ، وإن فاته فتكلاًن وبلاً وحرّاً ، كأنه لم يسمع أن الرشوة من الشجّة ، وأن السحت مأخوذ من السحت ^(١) .

٢ — من لم يحفظ ما بين فسكية ، ظل يُقَسَّب كعقبة ، ومات يتامل على دقية ^(٢) ، حزناً على ما فرط فيه من التحفظ ، وأسفاً على ما فرط منه من التلطف ، ولو كان الإنسان مخزوماً لم يكن التؤاد محزوماً ، فلما يحرس مهجته من لم يحرس طبعه ، وإن نجد على السر أديباً ، إلا بكل أمانة قيمنا .

(١) أطواق الذهب ٨٩

(٢) شامس : مشرق . أطواق الذهب ١٤٥

(٣) السحت : بضم السين الحرام وفتحها الاشتغال

(٤) الذب : الحنب

(٥) ربيع الأبرار

وأما ربيع الأبرار فقد ألفه بعد نوابغ السكك وبعد ديوان شعوره وبعد ديوان المشور^(١).

وموضوعه كما قل في مقدمته «إحسان خواطر الناظرين في الكشف عن حقائق التنزيل، وترويح قلوبهم للعبية بإجالة الفكر في استخراج ودائع علمه وحجابه، والتنفيس عن أذهانهم المكشوفة، استيضاح خواصه وخفاياه».

وقد عرض فيه لكثير من الموضوعات مثل الأوقات وذكر الدنيا والآخرة، والسماء والكواكب، وذكر العرش والكرسي، والسحاب والنظر والنجيم والبرق والبرق وما ينصل بذلك من ذكر الاستمطار وغيره، والنفوس والريح والسم والحار والبرد والظل، والنار وأنواعها وأحوالها وذكر نار جهنم وأحوالها والدرج والشمعة ونحو ذلك، والأرض والجهال والحجارة والخصي وجواهر الأرض والمنازل وذكر الرحفة والنفس، والسمو البحار والآودية والأشجار والعيون والآبار وما ينصل بذلك وناسه من ذكر السفن والسياسة وغيرها، والشجر والنبات والفواكه والرياض والبساتين وذكر الجنة، والبلاد والديار والأبنية وما ينصل بها من ذكر العبارة والغرائب وحجب الوطن، والجنون والحق والسفه والقفوة والحزن والعجالة وترك الآثام والفصول والرسوم في معاشرتة الناس وعلاقاتهم ومصالحهم ومخاسنهم ومراستهم وذكرهم وزيارتهم، وذكر السلام والتحية وآداب النفس وما ينصل بذلك، والقصاص وما ورد من حكاياتهم وملحهم، والمتصوفة وما جاء في أكتابهم ورزقهم، وما شئت من ذلك.

الخطب والشعر والنصائح والبلاغة والعي والإقحام والإيجاز وما اتصل بذلك ،
والنساء ونكاحهن وحلاقتهن وخطبتهن والإعراس بهن ومعاشرتهن وما يخدم
ويخدم منهن ..

وهو يعتمد في هذا الكتاب على النقل من بعض كتبه ، ومن الجاحظ ،
وغيره ، ويدكر كثيراً من الأحداث والأخبار والأشعار ، وما روى عن
السابقين فيها وفيما اتصل بها ، فنجد كثيراً من الأسماء تتردد مثل عمر بن
الخطاب وابن عباس وعلى بن أبي طالب والحدري والحسن وأنس بن مالك
ووهب بن منبه وأحمد بن يوسف والصنوبري والمأمول والقرزوقي وابن مسعود
وابن الرومي والأصمعي والطحاوي وعبد الملك بن مروان وبديع الزمان الحماني
ومسلم بن هارون وأنوشروان الخ .

ومن هذا يتبين أن الكتاب مجموعة من المعارف والطرائف أكثره
بعبارات غيره . وهذه نماذج منه .

١ - قال في معاشرته الناس وملاقاتهم ومصالحاتهم ومراسلتهم وذكرهم
وزفارتهم ^(١) .

جابر رضى الله عن النبي صلى الله عليه وسلم : من أخلاق النبيين والصدقين
البشاشة إذا تراءوا ، والمصافحة إذا تلاقوا ، والزائر في الله حقاً على الزور
إكرامه .

كان القمقام بن ثور المذلي إذا جلس رجل جعل له نصيباً من ماله ، وأعادته
على حوائجه ، وأدأ إليه شاكراً .

عن محمد بن عبد الله بن يحيى بن خلفان قال : بعني إلى أبي المعتضد في

شيء ، فقال لي : اجلس ، فاستعظمت ذلك ، فقلت إنه لا يجوز ، فقال لي :
يا محمد ، إن أدبك في القبول مني خير من أدبك في قيامك .

قال رجل لأبي خليفة الجمحي : ما أحسبك تنسني ، قال : وجهك يدل
على نلو نسبك ، وإلا كرام يرفع من مسألتك ، فأوجد السبيل إلى معرفتك .
قال أبو تمام :

يحميه لآ لاؤه ولو ذر عيته من أن يقال بن أو ممن الرجل ؟
وفي معناه

أرم بعينيك في مفارقنا ثم قد التاج غير ملتزم
المعنى :

ولو كنتموا أنسابهم أعزهم وجوه وفعل شاهد كل مشهد
ابن عباس : لجابسي على ثلاث : أن أرميه بطرفي إذا أقبل ، وأوسع له
إذا جنس ، وأصغى إليه إذا حدث .
زار الخليل بعض تلامذته فقال له : إن زرتنا فبفضلك ، وإن زرتناك
فلفضلك ، فلك الفضل زائرا ومزورا .

أراد رجل أن يقبل يد هشام بن عبد الملك فقال : لا تفعل ، فإنما يفعله
من العرب الطمع ومن العجم الطبيعة .

قال رجل لهنصور : أعطني يدك أقبلها ، قال : إنا نضونك عنها ، ونصونها
عن غيرك .

سأل بعض أصحاب أبي حنيفة الشافعي عن مسألة ، فأجاب عنها ، فقال له :
أخطأت . فقال : لو كنت مكافئك ثم كنت مثل ما كنتي لاحتجت إلى أدب .

كان أرحم به إذا تخطى هام سميره ، وكان قباذ إذا رفع رأسه إلى السماء أقاموا
 بهرام جور : إذا لم تضد قلوب الأحرار بالبشر ، والبر قبأى شيء تصيدها ؟
 معاوية : نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط ، وأكلت الطعام
 حتى لا أجد ما يمر به ، وشربت الأثرية حتى رجعت إلى الماء ، وركبت الخيول
 حتى اخترت نعلي ، ولبست الثياب حتى اختبرت البياض ، فلما قي من اللذات
 ما تنوف إليه نفسي إلا محادثة أخ كريم .
 لبعد :

ما عاتب المرء اللبيب كمنفسه والمرء بصاحبه الجليس الصالح
 ٢ — وقال في القصص والمنصوفة^(١) :

جهاب بن الأرت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن بني إسرائيل لما
 قصوا عليكوا .

ابن عمر رضي الله عنه : لم يقص على عهد رسول الله ولا عهد أبي بكر ولا
 عهد عمر وعثمان ، وإنما كانت القصص حين كانت الفتنة .
 ابن المبارك : سألت الثوري : من الناس ؟ قال : العفاء ، قلت : من الأشراف ؟
 قال : المنقون ، قلت : من النبوك ؟ قال : الزهاد ، قلت : من المغوغاء ؟ قال :
 القصاص الذين يأكلون أموال الناس بالكلام .
 وهب رجل لقاص خاتما بلا فص ، فقال : هب الله لك في الجنة عرفة
 بلا سقف .

قال ابن السكك للمنصوفة : إن كان لباسكم هذا موافقا لسراكم لقد أحببت
 أن يطلع الناس على سراكم ، وأن كان مخالفا لسراكم لقد هلكتم .
 قال بعضهم : قلت لصوفي معنى جهنم ، فقال : إذا باء الصياد شبكته فيأبى
 شيء يصيده ؟

٣ — وقال في النساء ومعاشرتهم ^(١) : —

عوتب الكسائي في ترك الزواج فقال : مكابدة العفة عنهم أيسر من الاحتياج لمصاحبتهم .

قيل لأعرابي يجمع بين ضرائر : كيف تقدر عليهم ؟ قال : كان لثياب يطأونهم سليمان ، ومال يقدورهم إيلياء ، ثم قد بقي لنا خالق حسن ، فمعهم معاشرة .

خطب ميت دقيانوس غني وفقير ، فاختار الفقير ، فسأله الإسكندر ، فقال : كان القتي ^{العسلي} حاكلا وكان يخاف عليه الفقر ، والفقير عاقلا فكان يرجي له القتي .

قال مصعب السكينة : أنت مثل البعثة لآلهين . قالت : لا والله ولكن آتي كرمي أن يقبل ثوبك .

الأحف : لأفمى نككات في بدي أحب إلى من أقيم ردت عنها كقفا . قال عمر رضي الله عنه لرجل هو بطلاقي امرأة وزعم أنه لا يحبها : أو كل البيوت تبني على الحب ، فإن الرعاية والتدبير ؟ .

قال عبد الملك لابن الرقايح : كيف علمت بالنساء ؟ قال : أنا والله أعلم بهن ، وأنشأ يقول :

قُضَاعِيَّةُ الْعَيْنِينَ كُذِّبَتْهُ الْحَسَا خُرَاعِيَّةُ الْأُخْرَافِ طَائِفَةُ النِّمِ

لَهَا حُكْمُ لَقِيَانِ وَصُورَةِ يَوْسُفَ وَمَنْطِقُ دَاوُدَ وَعِصْفَةِ مَرْيَمَ

سئل المغيرة بن شعبه عن النساء ، فقال : بنات العم أحسن مواهباً ، والغرائب أحجب ، وما ضرب رموس الأقران مثل ابن السوداء .

أبو عمرو بن العلاء عن رجل : لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدي منها . قيل : وكيف ؟ قال : أنظر إلى أبيها وأُمِّها فإنها ليى بأحدهما .

الفصل العاشر

في روضة الشعر

خلف الزحشري ديوان شعر في ١١٩ ورقة^(١)، جمع قصائده استجابة لمشورة ابن وهاس كما ذكر في المقدمة .

فأما موضوعات هذا الديوان فهمها :

١ — المدح ، فقيه مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم^(٢) ، ومدائح لابن وهاس^(٣) ، ولنظام الملك^(٤) ، ولأملك سنجر^(٥) ، ولعبيد الله بن نظام الملك^(٦) ، ولعبد الله^(٧) ، ولعين الدولة^(٨) ، ولجيز الدولة^(٩) ، ولتغر المعالي^(١٠) ، وللوزير محمد^(١١) ، وللموفق^(١٢) ، ولحمد خوارزمشاه^(١٣) ، ولحمد بن أبي الفتح الساجوق^(١٤) ، ولبنى زريق بهمدان فقد زارهم أيام إقامته بالحجاز^(١٥)

٢ — الشكوى من الزمان ومن الناس ومن معاندة الخط .

٣ — الغزل .

(١) راجع مؤلفاته	(٢١) الديوان ٨٩
(٣) الديوان ٢٧	(٤) الديوان ٩٤
(٥) الديوان ٢٠	
(٦) الديوان ٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٠٦	
(٧) الديوان ١٤ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٩٩ ، ١٠٥	
(٨) الديوان ١٥	(٩) الديوان ٢٢
(١٠) الديوان ٢٧	(١١) الديوان ٣٣
(١٢) الديوان ٧٤	(١٣) الديوان ٨٢ ، ١٠٦
(١٤) الديوان ٨٥	(١٥) الديوان ١٩٠

٤ — الفخر .

٥ — الحكمة .

٦ — التزهيد .

٧ — المراسلات والرد على الإخوان والشوق إليهم .

٨ — الحنين إلى مكة .

٩ — الرثاء ، كرتائه لمحمد بن أرسلان^(١) وإسراج الدولة^(٢) ولأبي سنان^(٣)

خصائص شعره

١ — أما الطابع العام^(٤) لشعر الزمخشري فإنه شعر عالم امتزجت نفسه بالحقائق العاطفية وقضاياها ، وأخذ نفسه يجد الحياة وواقعها ، فكان يسبح عواطفه وشلا نارة وانحيا نارة ، وقاما تفجر دافقا فياضا ، فجاء خياله من القريب الذي لا يحاق في الآفاق البعيدة ، وجاءت صوره تكريرا لما رسم سابقوه .
وأما أسلوبه فرصين جزل لا تحس فيه بضعف أو تهافت في أية قصيدة من قصائده .

٢ — وهو يبدأ بعض مدائحه بغزل تمهيدى لا حرارة فيه ، على طريقة كثير من القدماء ، كقوله في مدح الوزير مجير الدولة الأرسطاني^(٥) :
أيا حبذا سعدى وحُبُّ مقامها ويا حبذا أين استقل خيامها
حياتى وموتى قرب سعدى وبغدها وعزى وذلى وصاحبها وانصرامها
سلام عليها أين أمت وأصبحت وإن كان لا يقرأ على سلامها

(١) الديوان ١٦ ، ٣٢ (٢) الديوان ٣٦

(٣) الديوان ٧٠

(٤) حيث كنت أقرأ مخطوطة الديوان لأكتب في تفصيل عن شعر الزمخشري عرض على أحد أبنائى من طلبة الدراسات العليا أن يعد رسالته عن الزمخشري الشاعر وتخليق ديوانه بإشرافى ، فأكتفيت بهذه الإشارات .

(٥) رثاء الرواة ٣/٢٦٧ وقال ابن التورثي حلق عليه وأعطاه برسا وألف دبرار

(م ١٩ — الزمخشري)

وعبى الله سرحاً قدر عى فيه سرحها (١)
 إذا سحبت سمدى بأرض ذبولها
 وقد أرغم المسك الذكى رغامها (٢)
 وإن مايت قضبان بان رأيتها
 تنكس واستعلى عليها قوامها (٣)
 وبمثل هذا الغزل بدأ مدحته لصدر الملك (٤).

٢ — ويقدم لبعضها بالشكوى من سوء حاله ، والفخر بعلمه وأدبه ،
 والسخط على الدهر الذى جاد على الجهال ، ويحل على العلماء ، كقوله فى مدحة
 لنظام الملك (٥) :

خليلى هل تجدى على فضائلى
 من الغبن ذو نقص بصيب منازلا
 ومن لى بحق بعد ما وفرت على
 كذا الدهر كم نوهاء فى الخلى جيدها
 ومما شجاني أن نغرمنا قى
 وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى
 ولى فى دقيق النجو والتقد منطق
 غنى من الآداب اكفى إذا
 فبالمنى أصبحت مستغنيا ولم أكن
 وبالبمنى مرض صديقى وشيخى

إذا أنا لم أرفع على كل جاهل ؟
 أخو الفضل محقوق بثلث الفضائل
 أراذلها الدنيا حقوق الأمائل ؟
 وكم جيد حسناء القادر عاطل
 تغنى بها الركبان بيت القوافل
 وسارت مسير البيرات رسائلى
 إذا قلقة لم أبقي قولاً لقائل
 نظرت فبافى الكف غير الأنامل
 فخر خورزم ورأس الأفاضل
 عدوى وأنى فى فهاة باقل

(١) سرحها : لباها وأعلمها . خام فيها سوامها : رمت فيها لباها .

(٢) الرغام : الرغام .

(٣) الديوان ١٢

(٤) الديوان ٩٤

فقلتُ بفضلي بالغيا ولواني كقصرٍ إبادٍ أو كسجبانٍ وائلٍ
ويصرح بطلب العطاء في بعض المدائح ، كقوله لنظام الملك (١) :

وكم قلت ألقى في وزارتك النبي وأدرك وحدي ما أرتجى كل أمل
ولم أدرك أن الأرذالين يتركون ما تمسوا رأى لست أحظى بطائل
فوقع إلى هذا الزمان فإنه غلامك يجمعني كعوض الأراذل
وقوله في مدح عبید الله (٢) :

لقد طفت في نجد البلاد وغورها فما كان إلا بالوزير مقرجي
وما أرتجى إلا عطينة كفه وهل غير هذي الكف كفت لمرتجي ؟
وقوله (٣) :

وابذل لأهل الفضل منك مودة فإن الفضائل لا تبين وكود
ومتي بذلت لهم وداداً فليكن منحصراً بزيادة محمود
ونلاحظ أنه لم يقصر على الطلب الصراح ، بل جهر بأن يؤثره وحده في
قوله : « وأدرك وحدي ما أرتجى كل أمل » .

وطالب بأن يكون أعظم نوالاً من سواه في قوله :

ومتي بذلت لهم وداداً فليكن منحصراً بزيادة محمود
وهو في هذا الطلب الصراح شبه جريراً في قوله لعبد الملك بن مروان (٤) :

أخشى يا بديك أبي وأمي بشيب منك إنك ذو أريج
أشكر إن رددت علي ديشي وأنت القوادم في جناحي

(١) الديوان ٩٥

(٢) الديوان ٢٠٢

(٣) الديوان ٣٠

(٤) الأغاني ٦٥/٥

وقوله لعمر بن عبد العزيز^(١) :

إني لآمل منك خيراً عاجلاً والثقة بس مؤمنة بحب العاجل
والله أنزل في الكتاب فريضة لأن السبيل والفقير العائل

ويشبه المتنبي في قوله لكافور^(٢) :

أيا ملك هل في الكأس فضل أناله فإني أشقى منذ حين وأشرب
وهبت على مقدار كمّي زماننا ونفسي على مقدار كفيك نطلب
وقوله له^(٣) :

أرى لي يقربني منك عينا قريبة وإن كان قربا بالبعاد يُشَاب
وهل نافعني أن تُرفَعَ الحجبُ بيننا ودون الذي أملت منك حجاب
وفي النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عتدها وخطابه

٤ -- ويرجع في حسن التخلص من الغزل التمهيدى إلى المدح ، فيصور
نفسه مريض يحتاج من كثرة ما صوب الدهر إليه سهام ، ولكنه صار في
رعاية الأمير الذي يقيه سهام الدهر وخطوبه ، فيقول^(٤) :

أزعموا السيرُ بُكرةً واستقنوا سقط الغيث حيث ساروا وحلوا
استقلوا فكيف لي بحياة ولقد كنت قبل أن يستقلوا
استحلوا دمي وفيّ صلاح ودم الصالحين لا يستجمل
غابتي الدثني وهن خفاف ربما يغلب الأعور الأذل
واسمرات سعادتي رؤيت ثابت الخاتم والخليم كثر

(٢) ديوان المتنبي ١/ ١٢٦

(٤) الديوان ١٠٢

(١) ديوان جرير ٤١٥

(٣) ديوان المتنبي ١/ ١٢٩

لَا تَرَوْا لَكُمْ كِسْرَةً يَخْتَلِجِي إِنَّمَا يَمْدَحُ الْإِمَامَ فِي الْأَقْلِ
عَجَزَتْ عَوْدِي التَّوَابِ عِذْمًا تِلْكَ آثَارُهَا عَلَى تَكْدُلِ
وَأَنَا الْيَوْمَ لِمَنْ عَرَنِي خُطُوبَ فَلْ أَيْسَابُهَا الْأَمِيرُ الْأَجَلِ
إِنَّمَا حَضَرَهُ الْأَمِيرُ لِمَنْ يَشْكُو صُرُوفَةَ الزَّمَانِ شَمْسٌ وَظَلُّ
كَمَا يَحْسَنُ التَّخْلُصَ مِنَ الشَّكْوَى إِلَى الْمَدْحِ ، فَإِنَّهُ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي مَدَحَ بِهَا
عَظِيمَ الْمَلِكِ ^(١) صُورَ آلاَمِهِ مِنْ تَعَاةِ حَالَتِهِ ، وَازْدَهَى بِثِقَاتِهِ وَكَفَاتِهِ ، وَعَجِبَ
مِنَ التَّغَاضِي عَنَّهُ ، وَالْحَنُو عَلَى غَيْرِهِ ، وَتَخْلَصَ مِنْ هَذَا إِلَى الْمَدْحِ بِقَوْلِهِ :

وَمَا حَقَّ مَنِّي أَنْ يَكُونَ مُصَيِّعًا وَقَدْ عَظُمَتْ عِنْدَ الْوَزِيرِ وَسَائِلِي
وَأَعْظَمَهَا أَنِّي نَسِيتُ نَصَائِدَ إِذَا عُرِجَتْ أَسَابُ هَذِي الْقَبَائِلِ
وَقَدْ كَانَ يَرَعَى النَّاسَ حَقِّي قَبْلَهُ عَلَى عَدَمِ الْقُرْبَى وَبَعْدِ الْوَصَائِلِ

٥ - وَبَعَى بِالْمُحْسَنَاتِ ، كَمَا تَرَى الطَّبَاقَ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ حَيَاتِي
وَمَوْتِي ، وَبَيْنَ قَرَبِ وَبَعْدِ ، وَعَزْ وَذُلْ ، وَوَصْلَ وَانْفِرَامَ ، وَكَأْتَرَى فِي الْبَيْتِ الثَّالثِ
بَيْنَ (سَلَامَ عَلَيْهَا) وَ (إِنْ كَانَ لَا يَقْرَأُ عَلَى سَلَامِهَا) وَبَيْنَ أُمْسَتْ وَأَصْبَحَتْ .
وَتَحْمَدُ الْجَنَاسَ فِي الْبَيْتِ الرَّابِعِ بَيْنَ (رَعَى اللَّهُ) بِمَعْنَى حَفِظَ مِنَ الرَّعَايَةِ
(وَرَعَى فِيهِ سَرَحَهَا) مِنَ الرَّعَى وَالْأَكْلِ ، وَبَيْنَ (سَرَحًا) وَ (سَرَحَهَا) وَبَيْنَ
(رَوْضَ) وَ (أَرْضًا) وَ (سَامَ) وَ (سَوَامَ) .

وَهَذَا الْكَلْفُ بِالْمُحْسَنَاتِ وَاضِحٌ فِي قَوْلِهِ يَمْدَحُ بَنِي زُرَيْرٍ ^(٢) :

كَمْ قَلَّتْ فِي خُورِ زَمْ عِنْدَ تَوَخُّلِي لِرُكَاثِي سِيرِي إِلَى مَعْدَانَا
وَيَايَا الْكِرَامِ بَنِي زُرَيْرٍ لَمْ تَزَلْ تَحْفُو بِذَاتِ غَرِيرِ الْأَوْطَانَا ^(٣)

(١) سَبَقَتْ آيَاتٌ مِنْهَا فِي طَرِيقَتِهِ الَّتِي بَدَأَ بِهَا قَصَائِدَ الْمَدْحِ .

(٢) الدِّيْوَانُ ١١٠ (٣) بِذَاتِ غَرِيرِ : الطُّبُورِ

وينو وزير ما تَزَنُّ ثيابهم إلا على الحَصِيَّات من ثَمَلَانَا

٦ — وهو حين يعبر عن عاطفة صادقة جياشة يتحرر من الحساسات الضعيفة .
لأنه يندمج مع الفكرة أو مع الشعور ، كقوله في تصوير ضيقه بالإقامة في
خوارزم (١) :

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ شَرْفَا وَعَمْرَا إِلَى الَّتِي فِيهَا تُغْدِيَتْ وَلَيْدَا
وَلَسَكُنْ تَوَلَّيْتُ بِالْكَرَامَةِ غَيْرَهَا وَهَذَى أَرَى فِيهَا الْخَوَانُ عَتِيدَا
وَمَا مَزَلُ الْإِدْلَالُ لِلْحَرَمِ مَزَلَا وَإِنْ كَانَ عَيْشُ الْحَرْقِيَّةِ رَغِيدَا
سَأُحِلَّ عَنْهَا ثُمَّ لَسْتُ بِرَاجِعٍ وَأَضْرِبُ مَرَّتِي فِي الْبِلَادِ بَعِيدَا
فَلَا كُنْتُ إِنْ ضَمْتُ فِيهَا ابْنَ حَرَّةٍ وَلَا عَشْتُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ حَمِيدَا
وقوله وهو فاصد مكة عازم على الإقامة بها حتى الموت (٢) :

قَامْتُ لَتَمْتَعَنِي الْمَسِيرُ تَمَاضِرُ أَنَّى لَهَا وَغَرَارُ عَرَمِي بَاتِرُ
سَيَرِي تَمَاضِرَ حَيْثُ شَتَّتِ وَحْدَتِي أَنَّى إِلَى بَطْعَاءِ مَكَّةَ سَائِرُ
حَتَّى أَتِيَنَّهُ وَبَيْنَ أَطَارِي فَتَى لِلْكَعْبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَجَاورُ
مَتَاقِرُ نَمٍّ وَنَمٍّ تَدْفُقُ أَغْطَى وَلَسَوْفَ يَبْعَثُنِي هَذَاكَ الْخَاسِرُ
وقوله في مدح ابن وهَّاس (٣) :

فَتَى هُوَ حَالِمٌ بِالْعَالِي بِأَسْرِهِا وَقَدْ حَلَمْتُ مِنْهُ الْعَالِي بِأَوْجَدَا
تَجِيبُ نَمَّتَهُ مِنْ دَوَانَةِ بَاهِيهِ نَيْتَاتُ أَعْرَاقِي أَطَابَتْهُ مَوْلَدَا
وَلَوْ شَاءَ لَمْ يَمْتَدَّ تَحْتَدَّ عَاشِرُ إِصْبَاحُ كَفَاءِ النَّوَةِ مَحْنَدَا

(١) الديوان : ٣٧

(٢) الديوان : ٤٢ .

(٣) الديوان : ٢٨ .

وَقَرَأَ مِنْ سِيَاهِ فِي قِسْمَانِهِ شَهَادَةً حَقٍّ أَنَّهُ رَسِيطُ أَحْمَدَ
هُوَ الْخَرُّ مَا أَصْدَى إِلَى بَعْضِ مَعْشَرِ فَأَبْصَرَهُ إِلَّا نَقَمْتُ بِهِ الصَّدَى
وَلَيْ مِنْهُ نُصْحُ الْخَبِيرِ وَالْعَقْدَةُ الَّتِي أَيْتَ أَنْ يَرَى الزَّائِدُونَ أَوْثَقَ مَعْرِفَتَا

٧ — وَقَدْ بَاجَأَ إِلَى الْبَالِغَةِ الدَّلَالَةَ عَلَى خُضُوبِ الْعَاطِلَةِ ، كَقَوْلِهِ فِي مَدْحِ
الْمَلِكِ سَنَجَرِ (١) :

تَمَّيَّهَ كُلِّ النَّاسِ كَعْبَةٍ سُوْدُودٍ أَهْلُ الْخَوَائِجِ مِنْهُمْ حُجَّاجُهَا
وَكَاثَمَا السُّلْطَانِ سَنَجَرِ كَعْبَةٍ لِمَلِكٍ مُنْتَجِبٍ لِلْمُلُوكِ رِثَاجُهَا
رَكِبَ السِّيَاسَةَ وَهِيَ أَصْعَبُ مَرْكَبٍ فَتَطَاوَمَتْ لِرُكُوبِهِ أَتَاجُهَا
أَرْقَبَتْهُ دَوَاهِيهِمْ فَلَا إِلْجَامُهَا إِلَّا عَلَى بَسْمِهِ وَلَا إِسْرَاجُهَا
فَوَأنَّهُ رَكِبَ النُّجُومَ لَا نَبْتَ أَفْرَادِهَا عَنْهُ وَلَا أَزْوَاجُهَا
جَهْمُ الْحَيَا لِلْعَمْدِ طَلَقَ إِذَا ضَيْقَانِهِ نَزَلَتْ بِهِ أَفْوَاجُهَا
يَحْمَرِي إِلَيْهِمْ سَيِّبُهُ بِأَنَامِلٍ مِثْلَ الْبَحَارِ تَلَاوَجَتْ أَمْوَاجُهَا
تَسْفِي الْحَقِيقَةَ فِي أُمُورِكَ كَلِمَا إِنَّ الْحَقِيقَةَ وَاضِحٌ عَنْهَا جُهَا
فَوَأنَّ عَمْدَكَ شُبْنَهُ بَيَاضُهَا لَا رَنْدَ كَالْعَذْبِ الْفَرَاتِ أَجَاجُهَا

وَالْمُبَاطَعَةُ الْمَعْرُوقَةُ وَاحِدَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَبْيَاتِ وَخَاصَّةً الْبَيْتَ الْخَامِسَ وَالْتَّاسِعَ .

٨ — وَلِلزُّخْمَشَرِيِّ حُكْمٌ صَاحِبُهَا شَعْرًا ، كَمَا أَنَّ لَهُ حُكْمًا كَثِيرَةً صَاحِبُهَا
ثَرًا ، وَلَكِنْ حُكْمُهَا الشَّعْرِيَّةُ لَا تَرْفَعُ إِلَى أَوْجِ حُكْمِ الثَّنَائِيِّ وَأَبْنَى الْعِلَاءِ ، لِأَنَّهُمَا
لَا تَصُورُ دَخَالَاتِ النُّفُوسِ ، وَاصْطِرَاحِ الْبَوَاطِفِ وَمَشْكَالَاتِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ .

والطلب الناجع في علاج هذه المشكلات ، وإتانا هي أقرب إلى الوعظ المألوف
والنصح المعتاد ، كقوليه ^(١) :

ليس القيادة أكلماً مطروزة ولا سرا كيب يحرق فوقها الذهب
وإتانا هي أفعال مذهبة ومكررات يلعبها العقل والأدب
وما أخو الحمد إلا من بغى شرفاً يوماً فهاهنا عليه النفس والنسب
وأفضل الناس حرّاً ليس بعلبه على الحجة شهوة فيه ولا غضب

خاتمة المطاف

أما بعد ، فقد آن للقلم أن يتوقف بعد تعاويف طويل الشقة ، لكنه رغب
الجهد ، حبيب الشقة ، المنبئين للعالم البارزة من الرحلة في صحبة الزمخشري .
فما هذه المعالم ؟ .

١ - لقد طاعتنا اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية وفروعها ناضرة
ناضجة في زمخشري مدينة وإقليم وفيها حولها ، وأشرق علينا من سماء المنطقة
كلها نجوم شع عليها وأدبها على الشرق وعلى الغرب من بخارى إلى قرطبة .
وما تزال أشعتها تنير الطرق للياحفين والدارسين .

٢ - ورأينا اللغة العربية والثقافة الإسلامية لم تنمثر هناك فحسب ،
بل استقرت استقراراً مطمئناً ، فصيغت مناطق واسعة شاسعة عدة قرون ،
ثم صارت كلها أو أكثرها اليوم من الأعداء السوقيين ، فياحسرونا عليها .
ومعنى هذا أن العرب لم يفوموا وحدهم ينشر لغتهم وثقافتهم وديهم ، بل
إن مكان تلك الأقاليم شاركهم إذ سارعوا إلى الإسلام فاعتنقوه ، وأقبلوا
على علومه ، وبادروا إلى اللغة العربية فأداروا بها أسنتهم ، وأجروا ألقامهم ،
واصطفوها لغة لهم . ثم اندمجوا في آدابها وثقافتها فانتقلوا إلى العروبة انتقالاً ،
وإن شئت فقل إنهم استعربوا استعراباً ، حتى صاروا ينافسون العرب في
الإنتاج بالعربية ، والمؤلف فيها ، والنوص إلى أسرارها . وكان كثير من
الأمراء والوزراء كلوا بالعلوم العربية والإسلامية ، حفيّاً بالأدب والآباء ،
حتى لكانهم بنو العباس في عصرهم الذهبي ببغداد .

٣ — ورأينا الرغبة في طلب العلم أجدي وسائله ، إذ كان المأمور
الحاجة مقصد العطاش إلى المعرفة يؤمنه من بلاد ثانية ، كما تنقل الرخشي
من إقليم إلى آخر ، واستقى من مدينة بعد مدينة ، ودرس على هذا وسمع من
ذلك ، ولم يأنف — وقد بلغ مرحلة المناظرة للعلماء — أن يخلص من أستاذ
كثير جليسة المتعلم المشوق إلى أن يجيزه أستاذه .

٤ — ونجيب لنا أنه كان مشغولاً بالمعرفة ، يتزود منها من الأساتذة تارة ومن
الكتب تارة ، فتنوعت ثقافته ، وتميزت عقابته ، وتعددت مؤلفاته ، وكثر
تلاميذه والمجربون به ، فاشغل معاصريه ومن بعدهم ، سواء في ذلك موافقوه
ومخالفوه ، وما تزال بعض كتبه من المنابع الأصيلة للفكر العربي الإسلامي
إلى اليوم ، كالكشف وقتوه ، وأساس البلاغة وحقيقته ومجازاته ، والفصل
وشروحه .

٥ — وليس من الزيد في شيء أن نصف الرخشي بأنه كان أرفع
العمارة تأويلاً لآيات القرآنية ، لطابق مذهبه ، ومن حقه أن نشيد بأنه ما كان
يريد من هذا التأويل الذي تنبى به نفسه إلا أن يبرز الخلق سبحانه وتعالى
عن أية شبهة قد تتسرب منها الشبهة لظهوره أو الخلل . فقد كان الرجل
عريق الدين ، عميق الإيمان ، عظيم الفتوى ، غيوراً على الإسلام أشد الغيرة .
٦ — كذلك كان الرخشي أول من فرق بين علوم البلاغة وقسمها إلى
معان وبيان ، وجعل البديع تابعاً لها وحقبة ، ثم جازاه في هذا التقسيم السكاكي
ومن بعده إلى اليوم .

٧ — وهو صاحب السبق إلى تأليف معجم لغوي مرتب على الحروف
المجالية ، هذا الترتيب الدقيق السهل الذي نجد في أساس البلاغة ، كما نجد شبيهاً
ببعض كتابيه الآخرين الفائق والمستقصى .

٨ — على أنه قد كان — وهو فارسي الأصل — مغرماً باللغة العربية بفطاهها
على سائر اللغات ، ومؤثراً للعرب يرفعهم إلى أسنى الدرجات ، لأنه ربط ربطاً

وثيقاً بين العربية والإسلام ، وبين حب العربية والإسلام ، وكان يختص من الشعوبية على البلاد التي أسلمت واستعربت ، لأن الذي يتفق على العرب اليوم سينفق على الإسلام في الغد ، ولأن وحدة اللغة والثقافة والعقيدة والحضارة والتاريخ والتوجدان المشترك كلها دعائم وطيدة في حصن الإسلام ، يسند بعضها بعضاً ، فلا بد من الحفاظ عليها موصولة متساندة ، وإلا تطرق الوهن إلى الصرح الأشم الذي يترى به أعداء الإسلام أينما تربص .

٩ — وعلى الذين يتهمون اللغة العربية بالعمى والجود أو الزاخرة أن يرجعوا إلى مؤلفات الخنصري ، ليعلموا أن العربية ثرية مرفقة بشور ، اتسعت في مؤلفاته لسعيد المقيق عن قضايا التشريع وعلم الكلام والفلسفة والنحو والبلاغة . وسامت لشعر الفنى وأشعره ، كما وسعت النظم التي مارسها سابقوه ومعاصروه ولاحقوه ، ولم تغمر إلا حينئذ تعمر أهونها ، وتخلفوا عن مدايرة الزمن ، لأن الأمم لا تنمى وحدها محزل عن المجتمع الذي يتكلم بها ويقرأ ويؤلف ويعبر .

١٠ — والخير لمن ينصرفون عن العلوم والآداب طموحاً إلى منافع زائل أن يتأسسوا بالمحشرى ، إذ أنه قلق في أول حياته ، ثم تغلب على مثل هذا الطموح ، فأنصرف إلى الإنتاج ، لأنه وجد فيه الجهد الذي لا ينضب ، والجاه الذي لا يحول ، والسعادة التي لا يرقها شيء . حتى لقد استعاض مؤلفاته عن الزوجة والبنين ، بل فصلاً عليهم تفضيلاً .

١١ — وإلى لامل أن تشرق علينا كتب التي توارت ، فقد كان كتابه (المستقصى في أمثال العرب) محتجباً لم يطبع إلا منذ ثلاث سنوات ، ولعل فيها أوفى عديد منها فيضاً غزيراً يروى الظالمين .

وأرجو أن يطبع ديوانه ، فإن به شعر كثيراً يتراوح بين المتوسط والجودة ، وهو في حالة تصوير لبعض مظاهر المجتمع الذي عاصره . وبعض الأحداث التي مرت به ، وهو صورة لنفسه ، وأقوال في دوحه أدبه .

المراجع

١ — أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . شمس الدين القنصلي . لبنان

سنة ١٩٠٢ .

٢ — أساس البلاغة . الزحشرى . مطبعة دار الكتب بالقاهرة (١٣٤١)

هـ ١٩٢٢ م)

٣ — أطواق ذهب في المواعظ والخطب . الزحشرى . شرح الشيخ يوسف الأسير . الطبعة الثالثة بيروت سنة ١٣١٤ هـ

٤ — أعجب العجب في شرح لامية العرب . الزحشرى . الطبعة الثانية

سنة ١٣٢٥ هـ .

٥ — الأعلام — الأستاذ خير الدين زركلى . الطبعة الثانية .

٦ — أمالي المرتضى . السيد المرتضى . القاهرة سنة ١٩٠٧ .

٧ — إنباه الرواة على أنباء النجاة . القفلى . تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل

إبراهيم . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٧٤ هـ . ١٩٥٥ م .

٨ — الأمواج في النحو . الزحشرى . مطبعة الجوانب بالقسطنطينية

سنة ١٢٩٩ هـ .

٩ — الانصار أبو الحسن الخطاط . القاهرة ١٩٢٥ م

١٠ — الانصاف من الكشاف . أحمد بن المنير السكندرى . على هامش

الكشاف .

١١ — الأنساب . السمعاني . نسخة مصورة سنة ١٩١٢ م

١٢ — إيران في عهد الساسانيين . كرسنيس . ترجمة الدكتور يحيى

الخطاب . القاهرة ١٩٥٧ م

- ١٣ — البداية والنهاية في التاريخ . ابن كثير . مطبعة السعادة بمصر .
- ١٤ — البصائر والذخائر . أبو حيان التوحيدي . بتحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد طلبة صقر . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٧٣ هـ . ١٩٥٣ م .
- ١٥ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . السيوطي . مطبعة السعادة . سنة ١٣٢٦ هـ .
- ١٦ — البلاغة العربية : تاريخ وتطور . الدكتور شوقي ضيف . دار المعارف سنة ١٩٦٥ . القاهرة .
- ١٧ — البيان والتبيين . الخليل . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٦٧ هـ . سنة ١٩٤٨ م .
- ١٨ — تاريخ آداب اللغة العربية . جورجى زيدان . دار الهلال . سنة ١٩٥٧ م .
- ١٩ — تاريخ آل ساجوق . العماد الأصفياني . مطبعة دار التأليف بمصر .
- ٢٠ — تاريخ أبي الفدا . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٢٥ هـ .
- ٢١ — تاريخ الأدب في إيران . برون . ترجمة الدكتور أمين الشواربي . مطبعة السعادة . سنة ١٣٧٣ هـ . سنة ١٩٥٤ م .
- ٢٢ — تاريخ الحضارة الإسلامية . ف . بار تولد . ترجمة الأستاذ حمزة طاهر . مطبعة دار المعارف .
- ٢٣ — تاريخ الرسل والملوك . الطبري . المطبعة الحسينية بمصر .
- ٢٤ — تاريخ الفلسفة في الإسلام . دي بور . ترجمة الدكتور محمد أبو ريده . القاهرة سنة ١٩٢٣ م .
- ٢٥ — ثلاث رسائل في إعجاز القرآن . مطبعة دار المعارف .
- ٢٦ — ثلاث رسائل الجاحظ . نشرها يوشع فشكل .

- ٢٧ — الجبال والأمكنة والمياه . الزحشمري . لندن سنة ١٨٥٥ م
- ٢٨ — الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية . فون كورنر .
ترجمة الدكتور مصطفى بدر .
- ٢٩ — الحيوان . للجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون
- ٣٠ — الدولة الخوارزمية والغول . الأستاذ حافظ حدى . مطبعة الاعتماد
سنة ١٩٤٩ م
- ٣١ — الدولة العباسية . الأستاذ حسن خليفة . الطبعة الأولى .
- ٣٢ — ديوان جرير . مطبعة الصاوى بالقاهرة .
- ٣٣ — ديوان الزحشمري . مخطوط بدار الكتب . أدب ٥٢٩ .
- ٣٤ — ديوان المتنبي . بشرح البرقوقى . المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ
- ١٩٣٠ م
- ٣٥ — ربيع الأبرار ونصوص الأحيار . الزحشمري . مخطوط بدار الكتب
١٥٥ أدب .
- ٣٦ — الرحلة المغربية . محمد العبدوى البنسى . تحقيق الأستاذ أحمد بن
جلو . نشر كلية الآداب الجزائرية
- ٣٧ — الرسالة القشيرية . القشيري
- ٣٨ — زرادشت الحكيم . الأستاذ حامد عبد القادر . مطبعة النهضة بمصر
سنة ١٩٥٦ م .
- ٣٩ — شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون . ابن نهافة . تحقيق
الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم .

٤٠ — سلاجقة إيران والعراق . الدكتور عبد المنعم حسنين . القاهرة .

سنة ١٩٥٩ م

٤١ — سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي . محمد بن أحمد النسوي ، تحقيق الأستاذ حافظ حدى مطبعة دار الفكر العربي سنة ١٩٥٣ .

٤٢ — شرح أدب الكاتب . الجواليقي . مطبعة القدس سنة ١٣٥٠ هـ .

٤٣ — شرح الفصل . موافق الدين عيش بن علي بن عيش . إدارة الطباعة المنيرية بمصر .

٤٤ — ضحى الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة دار التأليف سنة ١٣٥٥ هـ . ١٩٣٦ م .

٤٥ — طبقات الشافعية الكبرى . السبكي . المطبعة الحسينية بمصر سنة ١٣٥٤ هـ .

٤٦ — طبقات للقسرين . السيوطي . طبعة أوروبا .

٤٧ — الطراز . يحيى بن حمزة العمري . مطبعة المقتطف سنة ١٣٣٣ هـ . سنة ١٩١٤ م .

٤٨ — ظهر الإسلام . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م .

٤٩ — عروس الأفراح في شرح تلخيص الفتاح . بهاء الدين السبكي . من شروغ التلخيص . القاهرة ١٣٤٢ هـ .

٥٠ — علم الأخلاق للأرسطو . ترجمة الدكتور أحمد لطفي السيد .

٥١ — غيون الأخبار . ابن قتيبة . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .

٥٢ — الفائق في غريب الحديث . الزحشرى . تحقيق الأستاذين علي

البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم

- ٥٣ - الفرق بين الفرق . البغدادى . مطبعة الحلبي ١٣٦٥ هـ ١٩٤٥ م .
- ٥٤ - في علم النفس . الأستاذ حامد عبد القادر والأستاذ محمد عطية الإبراهيمي .
- ٥٥ - القاموس المحيط . الفيروز آبادي .
- ٥٦ - فلاح الأدب في شرح أطواق الذهب . ميرزا يوسف خان . مطبعة القادري بمصر سنة ١٣٢١ هـ .
- ٥٧ - السكامل في التاريخ . ابن الأثير . المطبعة الأميرية .
- ٥٨ - الكشف . الزمخشري . الطبعة الأولى بالمطبعة الهندية المصرية ١٣٤٢ هـ .
- ٥٩ - كشف القنون عن أسامي الكتب والقنون . حاجي خليفة . الطبعة الأولى سنة ١٣١١ هـ .
- ٦٠ - لسان الميزان . ابن حجر العسقلاني . الطبعة الأولى بالهند سنة ١٣٣١ هـ .
- ٦١ - مجموعة رسائل للجاحظ . طبعة سامي .
- ٦٢ - محاضرات في تاريخ الدولة العباسية . محمد الخطري . الطبعة الرابعة سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م .
- ٦٣ - مختصر تاريخ العرب . سيد أمير علي . مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٨ م .
- ٦٤ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان . أبو محمد عبد الله بن أسعد الهافلي . الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣٣٨ هـ .
- ٦٥ - المستقصى في أمثال العرب . الزمخشري . مطبعة حيدر آباد الدكن سنة ١٣٨١ هـ - سنة ١٩٦٢ م .
- ٦٦ - معجم الأدباء . ياقوت . طبعة الدكتور فريد رفاعي .
- ٦٧ - معجم البلدان . ياقوت . مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦ م .
- ٦٨ - مناسخ العيب . القصر الرزي . الطبعة الأميرية ١٢٨٩ هـ .
- ٦٩ - مناسخ العجم . السكاكي .

- ٧٠ - مقامات الزمخشري . بشرح الزمخشري . الطبعة الثانية مصر ١٣٢٥ هـ
- ٧١ - مقدمة الأدب . الزمخشري . القسم الأول والثاني . مطبعة لويسيك ١٨٤٣ م والقسم الثاني إلى الخامس مخطوط بدار الكتب ٢٧٢ لغة .
- ٧٢ - مقدمة ابن خلدون . تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي . مطبعة لجنة البيان العربي بمصر
- ٧٣ - المثل والنحل . الشهرستاني . طبعة الجمعية الفلسفية بمصر .
- ٧٤ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن . للدكتور مصطفى الجويني . دار المعارف
- ٧٥ - النية والأمل في شرح كتاب المثل والنحل المرصفي . مطبعة دائرة المعارف النظامية بمحدر آباد الدكن ١٣١٦ هـ
- ٧٦ - مهذب رحلة ابن بطوطة . الأستاذ أحمد العوامري والأستاذ محمد أحمد جاد المولى . الطبعة الأميركية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م
- ٧٧ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . الثعوفزي . القاهرة ١٣٢٦ هـ
- ٨٧ - ميزان الاعتدال في معرفة الرجال . شمس الدين الذهبي . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ
- ٧٨ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ابن تقي الدين . مطبعة دار الكتب سنة ١٣٥٣ هـ - سنة ١٩٣٥ م
- ٨٠ - نزعة الأنبياء في طبقات الأدباء . ابن الأثير . طبعة مصر سنة ١٢٩٤ هـ
- ٨١ - نقد العلم والعلماء . ابن الجوزي . مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٠ هـ (م ٢٠ - الزمخشري)

٨٢ - نواع الكلم . الزحشرى : الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٢ هـ -

سنة ١٩١٤ م

٨٣ - وفيات الأعيان . ابن خلكان . تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد

الحليم . القاهرة ١٩٤٨ م

٨٤ - بقيمة الذهب . النعماني . المطبعة الحنفية بدمشق سنة ١٣٠٠ هـ -

الفهرس

مقدمة

تصنيف

يبتدأ

١ - خوارزم ٩ - ٥

موقعها ، سكانها بعد الفتح ، وصفها قديما ، وصف المقدسي ، وصف
ياقوت ، وصف ابن بطوطة ، بعض مدنها ، مدينة راجشير .

٢ - الحياة السياسية ١٤ - ٩

خضوع البلاد للحكم العربي مدة ، خضوعها للدولة السامانية ، عقوبة
السامانيين باللغة الفارسية واللغة العربية ، حد بهم على السنة .

خضوعها للدولة السلجوقية ، آثار الوزير نظام الملك في تشجيع العلوم
والآداب .

خضوعها للدولة الخوارزمية ، السلاطين الذين أدرتهم الزمخشري :

٣ - الحياة الثقافية ٣٤ - ١٥

كلمة عامة عن استعراب أقاليم خراسان وخوارزم وما وراء النهر ، كثرة
المعلماء والمؤلفين والمدارس والكتبات هناك ، تشجيع الحكام للحركة
الفكرية والأدبية ، ميزة أهل خوارزم في اتجاههم الفكري .

لمحة إلى إقليم خوارزم خاصة (١٦)

لغى الإقليم بالعلماء والآداب ، كاف السلاطين بتشجيع العلم والآداب ،

ديوان الإنشاء ، إنتاج العلماء والأدباء ، بالفارسية والعربية ، أمثلة لهم . مناهج المؤلفين في النحو والصرف والعروض ، منهمجهم في الفقه ، منهمجهم في البلاغة . المعزلة (٢٢) . كثيرتهم بالمرافى وفارس وخراسان وما جاورها ، تأييد البويهيين لهم ، غلبة الاعتزال على خوارزم .

القضاء (٢٥) : غلبة مذهب أبي حنيفة ، نظام التقاضى .

لمحة إلى المنطقة كلها (٢٦)

كثرة العلماء والمؤلفين والأدباء ، جهود البويهيين والسامانيين والسلاجقة في تنشيط العلم والأدب ، فضل الوزير نظام الملك ، المكتبات وأمرها ، علماء الحديث والفقه ، علماء اللغة والأدب ، الفلاسفة ، المتصوفة .

٣٥ - ٤٧ :

الفصل الأول

حياته

اسمه ، مولده ، دراسته بزمخشري ، رحلته إلى بخارى (٣٥) مدحه نظام الملك ، دلالة هذا المدح (٣٦) لما قال لم ينل ما أراد ؟ بأنه واتجاهه إلى خراسان ، مدحه بعض رجال الدولة (٣٨) دلالة هذا المدح (٣٩) رحلته إلى أصفهان عاصمة السلاجقة ، مدحه ملكها (٤٠) بأنه من هؤلاء جميعاء عزمه على الترفع والعكوف على التأليف ، رحلته إلى بغداد (٤١) اتجهه إلى مكة ليقم بها ، خلاوة أبيه هاشم وهاشم به (٤٢) اطمأنه إلى الإقامة بمكة ، زيارته همدان (٤٣) تطوافه بالجزيرة ، عودته إلى وطنه ، لومه نفسه على هذه العودة (٤٤) رجوعه إلى مكة ، تعريجه على الشام ، تشجيع ابن وهاشم له على تأليف الكشف (٤٥) سفره إلى خوارزم ، تعريجه على بغداد (٤٦) إقامته بخوارزم حتى الوفاة (٤٧) .

أساتذته

أبو مضر محمود بن جرير الضبي (٤٨) ، عبد بخاري ، أبو منصور الحارثي ،
أبو سعد الشقاني ، أبو الخطاب بن أبي البظر (٤٩) أبو علي الحسن بن المنذر
اليسابوري (٥٠) الدامغانى ، ابن الشجرى ، أبو منصور ابن الجوابي ، عبد الله
ابن طلحة الباري (٥١) .

الفصل الثالث

تلاميذه

كثيرة تلاميذه في خراسان والعراق وحوارزم : أمثلة لهم (٥٢ — ٥٤)
استجازة بعضهم له (٥٤) تلاميذ كتبه (٥٤) .

الفصل الرابع

مؤلفاته

جهود خوارزم في حماية الإسلام ، آثار النهضة العلمية والأدبية التي بلغت
أوجها في القرن الرابع (٥٦) شغف الزمخشري بالدرس والبحث ، فراغه للعلم ،
استعاضته بكتبه عن النسل (٥٧) .

مؤلفاته في العلوم الدينية ورجالها (٥٨)

مؤلفاته في اللغة (٥٩)

مؤلفاته في النحو (٦٠)

مؤلفاته في العروض (٦١)

مؤلفاته في الأدب (٦١)

٩٨ — ٦٤

الفصل الخامس

معالم شخصيته

معنى الشخصية (٦٤) صفاته الجسدية (٦٥) شغفه بالثقافة (٦٥) اعتزاله (٦٧)
عزة نفسه (٧٠) بين الطموح والقناعة (٧٣) تدينه (٧٨) تواضعه (٨٤) حبه
للعرب والعربية (٨٨) قسوته على مخالفيه (٩١) غروبه (٩٦)

٩٩ — ٧٤٤

الفصل السادس

في زحاح التفسير والتأويل

لمحة إلى التفسير قبل الزمخشري (٩٩) عدة التفسير في رأي الزمخشري
(١٠٠) تأثره بعبد القاهر الجرجاني (١٠٢) المعتزلة الذين سبقوه إلى التأويل
(١٠٣) القاضي عبد الجبار الهمداني وجهوده (١٠٤)

الكشاف

الباعث على تأليفه (١٠٨) بغض من تغل عنهم : القاضي عبد الجبار ،
مجاهد ، عمرو بن عبيد (١٠٩) أبو بكر الأصم ، الزجاج (١١٠) الرماني ،
عبد الله بن دستور ، سيوري ، الجاحظ ، الواقدي ، مذات من القراء والمفسرين
والنحاة والفقهاء والمفسرين (١١١)

أهم مباحث الكشاف

أولا - في خضم المعتزلة

لمحة إلى المعتزلة ونشأة مذهبهم (١١٢)
أصول المعتزلة وكيف أيدعها الزمخشري (١١٩)

(١) التوحيد

معناه عندهم (١١٩) معتقدات يثورها على التوحيد :

١ — نفي الصفات المستقلة القديمة (١٢٠)

٢ — نفي التشبيه (١٢١) .

تأويل الرخصري لقوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أريد أنظر إليك قال لن تراني » ، تعليق ابن المنير (١٢١) .

تأويله لقوله تعالى : « ثم جعلناكم فئات في الأرض لننظر كيف تعملون » (١١٢) ، تعليق ابن المنير (١٢٣)

تأويله لقوله تعالى : « والله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه » ، تعليق ابن المنير (١٢٣) .

تأويله لقوله تعالى : « وما قدرنا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه » سبحانه وتعالى عما يشركون » (١٢٤) ، تعليق ابن المنير (١٢٥) .

تأويله لقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (١٢٥) .

تأويله لقوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، بيد الله فوق أيديهم » (١٢٦)

تأويله لقوله تعالى : « ونحن أقرب إليهم حبل الوريد » (١٢٦) .

تأويله لقوله تعالى : « وتبين وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (١٢٦) ، تعليق ابن المنير (١٢٧)

٣ — إنكارهم رؤية العباد لله في الآخرة .

تأويل الرخصري لقوله تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أريد أنظر إليك قال لن تراني » (١٢٧) ، تعليق ابن المنير (١٣٠)

تأويله لقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار » (١٣٤) تعليق ابن المنير (١٣٤)

تأويله لقوله تعالى : « وجوهٌ يومئذٍ مُّسَدِّدَةٌ إِلَىٰ رِبِّهَا نَظَرَةٌ » (١٣٥)
٤ — وأيمهم في أن القرآن مخلوق

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله » (١٣٦) تعليق ابن المنير (١٣٧)

(٢) العدل

١ — معناه عندهم (١٣٧) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « إن شرَّ الذُّنُوبِ عند الله العِصْيَانُ الْبِكْمَ الَّذِينَ لَا يُعْقِلُونَ ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ عَرِضُونَ » (١٣٨) تعليق ابن المنير (١٣٩)

٢ — نظرية الصلاح والأصلاح (١٤٠) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « وَعَلَى اللَّهِ قَسْدُ السَّبِيلِ ، وَهِيَ جَانِبُ الرَّحْمَنِ ، وَلَوْ شَاءَ لَطَمَسَ اللَّهُ أَعْيُنَ » (١٤١) تعليق ابن المنير (١٤١) .

تأويله لقوله تعالى : « فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ لَهُ خُورٌ مَّخْفُوفٌ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ

موسى » (١٤٢)
تأويله لقوله تعالى : « لَا يُسْأَلُ عَنْهَا تَعْمَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » (١٤٢) تعليق ابن المنير (١٤٢)

تأويله لقوله تعالى : « وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ . . . » (١٤٣) تعليق ابن المنير (١٤٣)
تأويله لقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ » (١٤٤) .

٣ — نظرية الحسن والقبح الدائمين (١٤٥)

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « ثَلَاثَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرِّسَالِ » (١٤٥) تعليق ابن المنير (١٤٦) .

تأويله لقوله تعالى : « وما كان الله ليضلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون » (١٤٦) تعليق ابن المنير (١٤٧) .

تأويله لقوله تعالى : « ونفس وما سواها فأطمها فجورها وتقواها » (١٤٧) تعليق ابن المنير (١٤٧) .

(٣) حرية العباد

معنى هذه الحرية (١٤٨) تسميتهم أنفسهم أهل العدل (١٤٨) لما إذا أطلق عليهم خصومهم لفظ القدرية (١٤٨) تبرؤهم من هذه التسمية ، أدلهم على مذهبهم (١٤٩) توسط الأشعري بين مذهبهم ومذهب الجبرية (١٥٠) .

تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » (١٥٠) تعليق ابن المنير (١٥٠) .

تأويله لقوله تعالى : « ومن يرد الله فتنة فإنه يملك ما يشاء من الله شيئاً » (١٥١) تعليق ابن المنير (١٥١) .

تأويله لقوله تعالى : « وقال الشيطان لما نضى الأمر إن الله وعدكم الجنة ، ووعدكم فأخلفكم » (١٥١) تعليق ابن المنير (١٥٢) .

تأويله لقوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » (١٥٣) .

تأويله لقوله تعالى : « ونفس وما سواها فأطمها فجورها وتقواها » (١٥٣) تعليق ابن المنير (١٥٤) .

(٤) الوعد والوعيد

معناها (١٥٥) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بعثك به ، ويغير ما دون ذلك لمن يشاء » (١٥٥) تعليق ابن المنير (١٥٦) .

تأويله لقوله تعالى : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَاِذَا جَاءَهُمْ حَاكَمُهُمْ فَهَلْ يَخَالَفُونَ فِيهَا » (١٥٧) تعليق ابن المنير (١٥٧) .

تأويله لقوله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا شَفَاعَةٌ . . . » (١٥٨) تعليق ابن المنير (١٥٨) .

تأويله لقوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَاللَّائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَاوُنُ إِلَّا مَن أُوِّينَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا » (١٥٩) تعليق ابن المنير (١٥٩) .

(٥) المنزلة بين المنزلتين

منشأ الخلاف في الحكم على مرتكب الكبيرة (١٥٩) الآراء في ذلك (١٦٠) دليل المنزلة (١٦٠) تأويل الزمخشري لقوله تعالى : « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ » (١٦١) تعليق ابن المنير (١٦١) .

تأويله لقوله تعالى : « الَّذِينَ هَالِكُمْ اللَّهُ إِنَّا نَعْلَمُ مَا كَانُوا عَمِلِينَ » (١٦١) تأويله لقوله تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . . . » (١٦٢) .

تأويله لقوله تعالى : « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » (١٦٣) تعليق ابن المنير (١٦٣) .

تأويله لقوله تعالى : « وَإِنْ رَأَيْتَ ظُلُمًا عَلَى ظُلُمٍ . . . » (١٦٤) تعليق ابن المنير (١٦٤) .

تأويله لقوله تعالى : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا » (١٦٤) .

رَأَيْتَهُ لَقَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنْ تَجْتَنِبُوا كِبَائرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُصْلَحُوا عَنْكُمْ سِتَائِكُمْ » (١٦٥).

رَأَيْتَهُ لَقَوْلِهِ تَعَالَى : « الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَائرَ الذُّنُوبِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّعْمَ، إِنْ رُبِّكَ وَاسِعٌ مَغْفِرَةً » (١٦٥).

(٦) الأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ

مَرَّحِلَتَيْهَا (١٦٥) رَأَى الزَّحَّاشِي (١٦٦)

ثَانِيًا — مَذَاهِبُ فِقْهِيَّةِ

لَمْ يَقْتَضِرِ الزَّحَّاشِي عَلَى مَذْهَبِهِ الْحَنَفِي (١٦٧) أَسْئَلَةً مِنْ عَرْضِهِ لِلْأَحْكَامِ
الْفِقْهِيَّةِ :

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْاِخْتِجَاعِ فَهُوَ اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَلْكِ ، فَمَنْ لَمْ يَحْدِثْ فَضِيئَتَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَهُمْ » (١٦٧) .

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِحْتِمَاءَ عَلَيْهِ » (١٦٧)

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَيَسْأَلُكَ عَنِ الْخَيْضِ قُلُوبُ أَهْلِ أَذَى فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْخَيْضِ » (١٦٨)

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوَاطِنَ كَامِلِينَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَرْضِعَ الرِّضَاعَ ٠٠٠ » (١٦٨)

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ » (١٦٨)

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » (١٦٩)

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَابْتِغُوا الْبَيْتَ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النُّكُلَ ، فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ

رَشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » (١٦٩)

في قوله تعالى : « لَا يَتَّبِعُ أَخْذَكُمْ اللَّهُ بِالْفُجُورِ فِي أَيْمَانِكُمْ » (١٧٠)

في قوله تعالى : « إِنَّمَا الْفُشْرُ كَوْنُ نَجَسٍ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَائِمِهِمْ هَذَا » (١٧١)

في قوله تعالى : « الَّذِينَ يَفْضَحُونَ مِنْكُمْ مِنْ أَسْهَمِهِمْ مَا هُنَّ أَمْهَانِهِمْ » (١٧٢)

في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ مِنْ أَمْتِهِنَّ » (١٧٣)

ثالثاً - قراءات

عنايته يذكر كثير من القراءات (١٧٥) ذكره المصاحف (١٧٥) ذكره لروايات شتى (١٧٥) أمثلة للقراءات :

في قوله تعالى : « وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَإِذَا ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ يَطْلِقُونَهُ وَلِيَّةٌ طَعَامٌ مَسْكِينٍ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » (١٧٦)

في قوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّبِعْهَا مَسْلُفٌ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَاللَّهُ وَحْدَهُ قَائِمًا

بِالْقِسْطِ » (١٧٧)

في قوله تعالى : « إِنَّمَا الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بغير

حق » (١٧٧)

في قوله تعالى : « قال رب اجعل لي آية ، قال آتيتك الناس ثلاثاً
أياماً إلا رمزا » (١٧٨)

في قوله تعالى : « أم لهم نصيب من الملك فإن لا يؤتون الناس نقيراً »
(١٧٨)

في قوله تعالى : « سماعون للكذب أكانون للسمع » (١٧٨)

في قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (١٧٩)

في قوله تعالى : « أيسكر عنهم أسوأ الذي عملوا » (١٧٩)

في قوله تعالى : « وما هو على الغيب بضنين » (١٧٩)

مفاضلة بين القراءات

في قوله تعالى : « وإنا لجمع حضرون » (١٨٠)

في قوله تعالى : « ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة . . . » (١٨٠)

في قوله تعالى : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » (١٨١)

استبعاد القراءات الشاذة وإنكارها

في قوله تعالى : « أفم يأس الذين آمنوا أن يري الله الهدى الناس جميعاً »

(١٨١)

رابعاً — آراء نحوية

تعريض للاعراب (١٨٢) أمثلة الآيات التي عرض فيها للنحو :

في قوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما

بالقسط » (١٨٢)

في قوله تعالى : « ذلكم لله فاني توفىكون ، فلق الإصباح وجعل الليل

سكنا والشمس والقمر حسابا » (١٨٣)

في قوله تعالى : « إن يمسك الزيد فيضلك روا كذا في طبره » (١٨٤)

في قوله تعالى : « فلولاً كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون من الفساد في الأرض » (١٨٥)

في قوله تعالى : « وقال الملك إني أرى سبع بقرات سماناً يأكلهن سبع عجاف » (١٨٥)

في قوله تعالى : « هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً » (١٨٦)

في قوله تعالى : « لا أنسيمُ يوم القيامة » (١٨٧)

خامساً — مسائل لقوية

حرصه على تحلية بعض الدلالات الدقيقة . (١٨٩) .

في قوله تعالى : « والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون » (١٨٩) .

في قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » (١٩٠)

في قوله تعالى : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » (١٩٠)

في قوله تعالى : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » (١٩١)

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يردكم بشك من دونه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه . . . » (١٩١)

في قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها . . . » (١٩٢)

في قوله تعالى : « ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عينا فيها نسى سليمان » (١٩٣)

في قوله تعالى : « وأزلنا من العصور ما نجا » (١٩٤)

في قوله تعالى : « وكذبوا بآياتنا كذاباً » (١٩٤)

سادساً — نصوص شعرية

استشاده بالشعر كما استشهد سابقوه (١٩٥) لم يحرم الإسلام الشعر كما

(١٩٥) أمثلة من استشاده بالشعر في تفسيره :

في قوله تعالى : « والحاصلات من النساء إلا ما ملكت أيما نكح » (١٩٦)

في قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا عنقه كل ينان » (١٩٧)

في قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين

اتبعوه في ساعة العسرة » (١٩٧)

في قوله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة فالتأله حنيفا » (١٩٨)

في قوله تعالى : « يطاق عليهم بكس من معين » (١٩٩)

في قوله تعالى : « وإياه لحب الخير لشديد » (١٩٩)

في قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بغوضة فما فوقها » (١٩٩)

سابعاً — بلاغة ونقد

تمديد (٢٠٠) كثرة البلغاء والأدباء والفلاسفة من المعزلة (٢٠٠) عنيتهم

بالكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي (٢٠١) انتفاع الزمخشري بدراسات

المعزلة والأشعرية وعبد القاهر الجرجاني (٢٠١) تفرقة الزمخشري بين علمي

البيان والمعاني (٢٠٢) رأيه أن علم البديع تابع لها (٢٠٣) أثر السكاكي

بالمزمخشري (٢٠٣) أثر يحيى بن حمزة العلوي به (٢٠٤)

أمثلة مما ذكره من علم البيان :

١ — التشبيه .

في قوله تعالى : « إنهم أروى شرباً كالتنصير كأنه جملة صفر » (٢٠٥)

٢ — تشبيه التمثيل :

في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، مثابهم كمثل الذي استوقد ناراً . . . » (٢٠٦)

٣ — الاستعارة :

في الآية السابقة

في قوله تعالى : « ثم جعلناكم فئات في الأرض من بعدهم لنظروا كيف تعملون » (٢٠٩)

في قوله تعالى : « وما يضلُّ به إلا الفاسقين الذين ينتظون عهد الله من بعد ميثاقه » (٢١٠)

الاستعارة المرسعة في قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم » (٢١١)

في قوله تعالى : « مثابهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم » (٢١١)

٤ — الكناية ، تفرقة بينها وبين التعريض (٢١٢) أمثلة لها :

في قوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيها عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم » (٢١٢)

في قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » (٢١٣)

في قوله تعالى : « وفات اليهود يد الله مغلوبة ، غلت أيديهم . . . » (٢١٣)

في قوله تعالى : « ولقد حققنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن

أقرب إليه من حبل الوريد » (٢١٤)

في قوله تعالى : « إذا زلزلنا الأرض زلزالاً عظيماً . . . » (٢١٤)

في قوله تعالى : « قلوا أضلَّنا أمْلام وما نحن بتقويل الأمْلام بعائين »

(٢١٥)

٥ — الجاز المرسل ، حقيقة ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها . . . » (٢١٥)

في قوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » (٢١٦)

في قوله تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (٢١٦)

٦ — الجاز العقلي ، معناه ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « يُضِلُّ بِكَ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا » (٢١٦)

في قوله . . . « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فكانت أفعالهم

وما كانوا مهتدين » [٢١٧]

في قوله تعالى : « الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيص الأرحام وما تزداد »

(٢١٧)

أمثلة من علم المعاني

١ — التفهيم ، أمثلة له :

في قوله تعالى : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض إنما أنتم

مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (٢١٨)

في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » [٢١٨]

في قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » (٢١٨)

في قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة » [٢١٩]

آيات أخرى [٢١٩]

٢ — الفصل والوصل ، أمثلة لها :

في قوله تعالى : « ألم ذلك الكتاب لا رب فيه هدى للمتقين » (٢١٩)

في قوله تعالى : « قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون » (٢٢٠)

في قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا رب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون

بالغيب وبقوه من الصلاوة مما رزقهم لينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك . . .
(٢٢٠)

٣ — التوكيد

في قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . . . »
(٢٢١)

٥ — التقديم والتأخير ، أمثلة :

في قوله تعالى : « قل أغير الله اتخذ ولياً » (٢٢١)

في قوله تعالى : « أغير الله تأمروني أسجد أيها الجاهلون » (٢٢٢)

في قوله تعالى : « ذلك الكتاب لأريب فيه » (٢٢٢)

في قوله تعالى : « وظنوا أنهم ما نعتهم حصولهم من الله » (٢٢٢)

٥ — الحذف :

في قوله تعالى : « فلا تجمعوا لله أرباباً وأنتم تعلمون » (٢٢٣)

في قوله تعالى : « والصالحين والذليل إذا سجي ما ولدتك ربك وما قلى » (٢٢٣)

٦ — الالتفات ، هو في رأيه من علم البيان وفي رأى السلاطين بعده من علم المعاني .

في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » (٢٢٣)

تأثر البكائي بالزحشرى

٧ — التعبير بالمضارع عن الماضي

في قوله تعالى : « والله الذي أرسل السلاج فقير جداً فسقناه إلى

بلد ميت » (٢٢٥)

٨ — التعبير بالماضى عن المستقبل .

في قوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » (٢٢٦)

في قوله تعالى : « وَيَوْمَ يَفْخُ فِي الصُّورِ فَفُزِحَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ » (١٢٦)

٩ — الجملة الانشائية والجملة الفعلية . دلالة كل منهما

في قوله تعالى : « وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَاٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدَيْهِ » (٢٢٧)

في قوله تعالى : « وَإِذْ حَتَّوْا إِلَى شِبَاطِنِهِمْ فَنُفَا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » (٢٢٧)

أمثلة من علم البديع

١ — الجفاس :

في قوله تعالى : « وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ » (٢٢٨)

في قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَمْنِ » (٢٢٨)

٢ — الطباق :

في قوله تعالى : « أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافِهُونَ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ » (٢٢٨)

٣ — تأكيد المدح بما يشبه الذم :

في قوله تعالى : « وَمَا تَقْصُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٢٢٩)

٤ — اللف والنشر . معناه .

في قوله تعالى : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ . . . » (٢٢٩)

٥ — التماكاة ، معناها .

في قوله تعالى : « إِنْ لَمْ يَنْصَرِفْ أَنْ يُضْرَبْ مِثْلًا مَا بِعَوِظَةِ فَمَا فَوْقَهَا »

(٢٣٠)

في قوله تعالى : « نَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِهِ » (٢٣٠)

ثامنا — تعليل وتخصيص

١ — مقدرته على التعليل والتخصيص . أمثلة لتعليله :
 في قوله تعالى : « كَلِمَاتٍ رَزَقْنَا مِنْهَا مِنْ نَحْنُ قَاتِلُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ » وأتوا به متشابها . . . » (٢٣٢)
 في قوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِنَ الْغَمَامِ » (٢٣٣)
 في قوله تعالى : « لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِثْلُ حَظِّ الْأَشْقِيَاءِ » (٢٣٣)
 في قوله تعالى : « وَلَا تَسْجُدُوا لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قِسْئُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ » (٢٣٤)

٢ — أمثلة من تخصيصه :

لغية رؤية الجن (٢٣٥) لغية الحمد بمعنى التأثير الفعالي (٢٣٥)
 سحرته بما ذكره بعض سابقيه من هر يوسف عليه السلام بالمعصية (٢٣٦)
 استهجانه ما ذكره عن تعالى داود عليه السلام بأمرأة (٢٣٨)
 تعاقبه السائر على أن عمر الخليل الوليد سببه من الشيطان له (٢٣٩)
 ٣ — أمثلة من متابعتة لأغلاط سابقيه :

في قوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلَعِ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عِنْدَ قَوْمٍ لَهَا جَعَلَ لَهَا مِنْ دُونِهَا سِتْرًا » (٢٣٩)
 في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الْغُرُورُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَتْ لَكُمْ مِنْ يَدَيْهِ غَيْرَ . . . » (٢٤٠)

في قوله تعالى : « أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرُوءٌ » (٢٤٠)
 في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَابَكُمْ فَوْقَ سَوَاتِلِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ . . . » (٢٤٠)

قيمة الكشاف وأثره

• سرعة لغز شئ (٢٥٢) إعجاب المحدثين به (٢٥٣) أثناء من
 جلدون عليه (٢٥٣) أثناء يحيى العلوي (٢٥٣) احتضار اليمصاوي والنسفي له
 (٢٥٤) تعقيب كثير من العلماء عليه (٢٥٤)

٢٦٧ — ٢٥٥

الفصل السابع

في بحر اللغة

(١) أساس البلاغة

طريقة تدوين المعاجم (٢٥٥) طريقة المحدثين (٢٥٦) عبارة
 المعاني الحقيقية والمجازية للكلمات (٢٥٦) ذكر التصاريف والشتقات والجمع
 والمزيدات ومعانيها مرقباً بعضها على بعض (٢٥٨) وضعها في عبارات
 أدبية (٢٥٨) بعض العبارات من كلامه (٢٥٨) أمثلة (٢٥٨) اختلافه
 بعض المواد (٢٥٢) قيمته وأثره (٢٥٢)

(٢) المستقصى في أمثال العرب

طريقة ترتيبه (٢٥٥) موازنة بينه وبين مجمع الأمثال الفيداني (٢٥٥)
 نماذج منه (٢٥٦)

(٣) الفائق في غريب الحديث

تطور التأليف في غريب الحديث (٢٦٠)
 طريقة المحدثين في الفائق (٢٦١) نماذج منه (٢٦٢)

(٤) أعجب العجب في شرح لامية العرب

لما ألفه (٢٦٤) عبارة القدماء بشرح اللامية (٢٦٥) انصراف

الترجمة في شرحه إلى النحو (٢٦٤) استشهاده بالآيات والشعر (٢٦٤)
عناية المبتدئين باللامية (٢٦٤)

(٥) الجبال والأمكنة والمياه

موضوع الكتاب (٢٦٦) نماذج منه (٢٦٦)

٢٦٨ — ٢٨١

الفصل الثامن

في شعاب النحو

(١) الفصل

تعريف به (٢٦٨) كثرة شروحه (٢٦٩) شرح ابن يعيش (٢٦٩)

(٢) مقدمة الأدب

أقسام الكتاب (٢٧٠)

(٣) الأنموذج

٢٧٢ — ٢٨٧

الفصل التاسع

في حذقة النثر

نثر الفنى (٢٧٢) موضوعاته (٢٧٢) الطابع العلمى لأسلوبه : كلفه بالسجع
والحسنات وحل المنظوم والتلاعب بالمصطلحات (٢٧٢) أمثلة (٢٧٣) .

(١) أنواع الكلام

موضوعه ، نماذج منه (٢٧٤)

(٢) المقامات

مبنى ألقاب : وأين ؟ (٢٧٦) موضوعها (٢٧٦) شرحه لها (٢٧٧) مثال من
شرح (٢٧٧) نموذج من مقامة العروة (٢٧٨) نموذج من مقامة النحو
(٢٧٨) من مقامة العروس (٢٧٩)

(٣) أطواق الذهب

موضوعه (٢٨٠) نماذج منه (٢٨١)

(٤) النصائح الصغار والبالغ الكبير

موضوعه (٢٨٢) نماذج منه (٢٨٢)

(٥) ربيع الأبرار

مبني ألفه ؟ (٢٨٣) موضوعه (٢٨٣) طريقته (٢٨٤)

نماذج منه (٢٨٤)

٢٨٨ — ٢٩٦

الفصل العاشر

في روضة الشعر

ديوانه المختلط (٢٨٨) موضوعاته (٢٨٨) خصائص شعره (٢٨٩) :
مضروب عواطفه في الأعراف الأغلب (٢٨٩) رصانة أسلوبه (٢٨٩) بدء بعض
المداخل بغزل تهيملي لاجراء فيه (٢٨٩) بدء بعضها بالشكوى والسخط
والفخر (٢٩٠) حسن التخلص من التهيد إلى المدح (٢٩٢) العناية بالحسنات
(٢٩٣) التخلص من الحسنات حين يعبر عن عاطفة قوية (٢٩٤) التبالغة في
بعض شعره (٢٩٥) حكمة (٢٩٥) .

٢٩٧ — ٢٩٩

حاتمة المطاف

٣٠٠ — ٣٠٦

المراجع

كتب المؤلف

١ — وحن النسيب في شعر شوقي :

دراسة لغزل شوقي من حيث بواعثه وخصائصه

٢ — وطنية شوقي :

دراسة مفصلة للوطنية في شعره ، ومظاهرها المختلفة ، معتمدة على دراسة العصر الحديث من الناحية السياسية ، وعلى نصوص من شعر شوقي وموازنت بينه وبين غيره من شعراء العصر الحديث ، وتوضيح لموقفه من الخلافة الإسلامية وأنه لا يتعارض مع وطنيته

٣ — الإسلام في شعر شوقي :

دراسة لتدبيره ومظاهره في شعره من إيمانه بالله ، ومدانحه للبني ، وإشادته بخصائص الإسلام ، ودفاعه عنه ، ودراسة فنية لهذا الشعر الديني .

٤ — الفكاهة في الأدب :

يقناول الفكاهة وأصولها وتقسيمها إلى أنواع طبقا للبواعث النفسية ، ويعرض في تفصيل لدلالات الفكاهة الاجتماعية والسياسية واللغوية .

٥ — البطولة والأبطال :

يعرض للبطولة وأسسها وأنواعها ، ولصور من أبطال العرب في الجاهلية والإسلام ، وبعض أبطال مصر الحديثة ، مع التحليل .

٦ — أبوجيان التوحيدى ،

دراسة لعصره السياسي والعلمي والأدبي ، وعرض لحياته ، وثقافته ولصلاته بوزراء عصره ، وتحليل لشخصيته ، وتعريف بكتبه ، وتحليل لأسلوبه ، وموازنت بينه وبين معاصريه ، وبينه وبين الجاحظ .

٧ — سماحة الإسلام :

تحليل منصف لسماحة الإسلام في نواح شتى في السلم والحرب ، معتمداً على التشريع والنصوص والتطبيق ، مع موازنات بين الإسلام وغيره من الأديان والشرائع والقوانين والفاسقات .

٨ — أدب السياسة في العصر الأموي :

يتناول الأحزاب السياسية ونشأتها ومذاهبها ، ويعرض نماذج من أدبها شعراً وخطابة وحواراً وكتابة ، مع تحليل لهذا الأدب ، ودراسة لخصائصه ، وموازنات بين بعضه وبعض . وعرض للعصبية القبلية والجذسية وآثارها في الشعر والسياسة .

وبه ترجمة لبعض الأدباء الساسة .

٩ — سوسن :

قصة مصرية سامية العرض ، نبيلة الغرض .

١٠ — مع ابن خلدون :

عرض لآرائه في التربية وعلم الاجتماع التي لم يعرض لها الدارسون من قبل ، ودراسة لأدبه من نثر وشعر .

١١ — الغزل في العصر الجاهلي :

دراسة للغزل في الجاهلية من حيث أصوله ، وبواعثه ، وأنواعه ، ونشأته كل منها وعلاقتها بالبيئة ، مع موازنة بين الغزل في الجاهلية والإسلام نال به المؤلف درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى .

١٢ — المرأة في الشعر الجاهلي :

دراسة مفصلة للمرأة في العصر الجاهلي من الشعر ، من حيث مكانتها في الأسرة والقبيلة والمجتمع ، أمماً وزوجة وبناتاً وأختاً وقريبة . ودراسة للمرأة في

الحياة العامة في السلم والحرب ، وثقافتها وصناعاتها . ودراسة للمرأة في الحياة الفنية ، من حيث أثرها في الغناء ، ومن حيث روايتها للشعر ، وتقدها له ، ولشاعريتها ، وأنواع شعرها وخصائصه ، مع موازنات بينها وبين النساء المعاصرات لها في العالم القديم .

نال به المؤلف درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز .

١٣ — الحياة العربية من الشعر الجاهلي

بحوث تمهيدية ، وتوثيق للشعر الجاهلي ، ودراسة له من حيث تصويره لألوان الحياة الاجتماعية والدينية والعادات والمعتقدات ، والصلوات العرب بغيرهم من الأمم .

١٤ — أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي

عرض وتحليل لصور الطبيعة في الشعر الجاهلي من حيوان ونبات وجماد وظواهر في الأرض والجو ، واستنباط الخصائص العامة في تداول الشعراء للطبيعة ، ودراسة لأصداء البيئة في موضوعات الشعر وأخيلة الشعراء وفهم .

١٥ — تيارات أدبية بين العرب والفرس :

بتناول صلات العرب والفرس في الجاهلية والإسلام ، وأثرها في كل من الشعبيين في العقائد والنظم والعادات واللغة والأدب . . الخ .

١٦ — المثل السائر لابن الأثير :

تقديم وتحقيق وتعليق

١٧ — الطبرى

دراسة لعصره ، وبيئته ، وحياته ، ومصادر ثقافته وألوانها ، وعرض لتلاميذه ، ومؤلفاته ، ودراسة لشخصيته ، ولما هججه في التفسير والتاريخ والفقه .

١٨ - فن الخطابة :

دراسة للخطيب ، وعدته ، وصفاته ، وعوامل نجاحه ، ودراسة للخطابة ،
وأواعها ، وأصولها ، وأساليبها ، وتصوير الأمم لها ، وتعقيب بدراسة منفصلة
للخطابة السياسية في العصر الأموي .

١٩ - بطولة وبطل :

دراسة للبطولة ، وتحليل لبطولة الرئيس جمال عبد الناصر من خلال حياته
وأعماله وأقواله .

٢٠ - الجاحظ :

دراسة لعصره ، وحياته ، ومعالم شخصيته . ومؤلفاته ، وخصائصه الفنية ،
مع تحليل بعض كتبه .

٢١ - تحت راية الإسلام :

بحوث شتى في الدفاع عن الإسلام ، وفي الكشف عن ألوان من الثقافة
الإسلامية .

٢٢ - القومية العربية في الشعر الحديث :

دراسة لدعائم القومية العربية في تفصيل ، وعرض للشعر الذي أثر فيها وتأثر
بها من الخليج إلى المحيط ، ودراسة فنية لهذا الشعر ، وتوضيح لجهود مصر قديما
وحديثا في مجال القومية العربية .

٢٣ - الزمخشري :

دراسة لعصره ، وحياته ، وأسانيده ، وتلاميذه ومؤلفاته ، ومنهجه في
التفسير ، وما تضمنه من تأييد مذهب المعتزلة ، وما اشتمل عليه من آراء فقهية
ونحوية وبلاغية الخ . ودراسة لجهود الزمخشري في ميادين اللغة وغيرها ،
وتحليل لنثره وشعره . .